هدى بركات

حجر الضحك



جائزة الناقد للرواية
١٩٩٠





حجرُ الضّحك

رِوَايـة

هدى بركات

حَجَرُ الضّحك

روايـة



56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

THE LAUGHING STONE

by

HODA BARAKAT

First Published in the United Kingdom in 1990

56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

British Library Cataloguing in Publication Data

Barakat, Hoda
The Laughing stone
1. Fiction in Arabic. Lebanese writers, 1945–
I. Title
8923–736

ISBN 1-85513-053-X

الطبعة الاولى: آب/ اغسطس ١٩٩٠

- I -

١ -

لم تكن ساقا خليل طويلتين بالقدر الكافي.

ففيما كان ناجي ينفض رأسه بخفّة لتتطاير عنه قطرات المطر، كان خليل يلهث وراءه وهو يخبط قدميه في الأرض محاولاً إزالة الوحل عن حذائه، على الدرجة ما قبل الأخيرة، قبل أن يتقدّم ويلحق بناجي إلى داخل الشقّة...

٢ -

يسترسل ناجي في الكلام فيلوذ خليل بالصمت ويحاول أن يجعل من وجهه مساحة بيضاء ومحايدة، يتنفس بعمق ويرخي عضلات وجهه حتى يفرغ عينيه من أية ردة فعل قد تكبح انطلاق ناجي في الكلام. فناجي من هؤلاء الناس القليلي الكلام الذين لا يؤمنون بأن قلب الإنسان وعاء يمتلىء فيفيض على الآخرين..

لذا كان خليل يخشى على ناجي، إذ يبدو له، كلما نظر إليه، أن فيه أمراً مريباً. مريب بمعنى أن ناجي وهو ينضح عافية،

يشعر خليل بشكل ما، بأنه مريض.. ليس مرضاً.. إنما شيء قد تحسه الأمهات حيال أولاد محبوبين لا يستغرقون تماماً باللعب مع أترابهم..

إنهما الآن في غرفة خليل الأرضية. وخليل لم يعد يتابع كلام ناجي. لكنه يترك لأذنيه أن تمرحا في مياه هذا الصوت الدافئة ويكـاد، لطمأنينته، يشعر بالنعاس وهو يتابع اتساق ساق ناجي التي يبين قسم منها ما بين البنطلون والجارب الطويل. وناجي مستلق براحة على عرض السرير وقد شبك يديه خلف رأسه واستند إلى الحائط فيما لا تزال الساق التي تحمل الأخرى تصل الأرض. كم جلده شديد البياض ـ يفكر خليل ـ مع أنه الآن لا يعكس من ضوء النهار سوى ما ترسله النافذة المقابلة في أعلى الحائط... شعره شديد السواد والالتماع والفوضى، وكذلك عيناه.. وأفكاره التي تسقط بيننا كحبيبات السكّر..

يبدّل ناجي من وضع ساقيه دون أن يكف عن الكلام المتقطّع، فترتاح الشعيرات شيئاً فشيئاً عائدة الى وضعها الطبيعي المنسدل باتجاه القدم دون أن يتحرك خط الجوارب المطاطي من مكانه. في ناجي أناقة ـ يفكر خليل ـ لا يستطيع المرء تقليدها بسهولة. فهو دائماً باللباس السبور الشديد البساطة الذي يبقى على حاله الأولى بعد غسله مرات عديدة. وهو لا يملك الكثير من الثياب، ربما قدر ما يملك خليل الذي يحاول، كلما أراد شراء قطعة جديدة، أن يختارها بعيني ناجي.. وهي في بادىء حياتها تبدو فعلاً كذلك، لكنها بعد فترة قصيرة تعود إلى ارتباكها الغامض وإلى استغراقها في

مجموعة ثياب خليل. ربما السرّ في تناسق جسد ناجي، أو ربما هو في طريقة الست إيزابيل في غسل الثياب وكيّها، وطيّها...

في ناجي أشياء كثيرة لن يستطيع خليل تقليدها.. ولع ناجي بمذاق الأطعمة مثلاً، وقدرته على التمييز بين البهارات والمطيّبات ودرجة النضج رغم أنه لا يأكل إلا القليل مما يثير شجن الست إيزابيل باستمرار ويحدو بها غالباً إلى دعوة خليل إلى الأكل بهدف فتح شهية ابنها...

يعرف ناجي أشياء كثيرة صغيرة لا يدري خليل من أين تأتّى له الوقت لتجميعها.. أشياء لا يبدو لخليل أنها موجودة في الكتب أو في الجرائد وهي قطعاً غير موجودة في البيت... ومرة خطر لخليل أن هذا «الفرق» بينه وبين ناجي إنما مصدره «البيبي رون» أو «الجاردان دانفان» أي روضة الأطفال في مدارس الراهبات والقساوسة، وهي غرف واسعة مشرقة وملونة يبدأ فيها الطفل التعلم بطريقة يجهلها خليل تماماً.. إذ هو بدأ القراءة والكتابة كما قد يبدأهما الآن رجل في مثل سنه...

يتوقف ناجي عن الكلام. يتوقف طويلاً فتأخذ خليل خشية أن يضجر زائره البخيل ويخرج فجأة فيقوم لتحضير الشاي. لكن ناجي يرفض بحجة أنه لا يشرب الشاي إلا حين يكون مريضاً أو مصاباً بالزكام، وإلا فالشاي الصيني بالياسمين. لكن خليل لا يعلق بأكثر من ابتسامة هازئة، ويضع الإبريق الصغير فوق الإبريق الكبير ويشعل موقدة الغاز الصغيرة ليطوّل الوقت.. يضغط زر النور ويعود إلى كرسيّه فيما يتابع ناجي النظر إلى النافذة التي صارت الآن تعكس أشياء الغرفة الصغيرة..

يعود ناجي إلى التأفف من إلحاح أمه عليه بالسفر إلى أخته التي في السعودية.. إنه يفكر بالصعود إلى بيته - يفكر خليل - لكنه يقول لناجي بأن للست إيزابيل حقها في الخوف عليك فأنت ترى كم أن الأحوال تزداد سوءاً يوماً بعد يوم.. لكنه سرعان ما يندم على محاولته الظهور بمظهر الصديق الذي يريد، بموضوعية، ما هو الأفضل لصديقه فيما هو يخاف أن يكون مقنعاً لشدّة بغضه فكرة أن يبتعد عنه ناجي ولا يعود يراه..

والإبر الصينية: يسأل خليل مسترسلاً في غواية ناجي ليبقى. إنها مدهشة يجيب ناجي وقد تحسنت ساقها بما لا يوصف.. ينجح خليل ويسترسل ناجي في تعداد حسنات الطب الشرقي والغذاء الطبيعي وحكمة قدماء الشرقيين. يتحمس مكثراً من ترداد «نحن الشرقيين» ويتركه خليل ينسى فنجان الشاي الداكن الآخذ بالابتراد.. بهدوء.

* * *

إنهما الآن يمشيان في الهواء البارد، ودائماً يسبق ناجي خليل بخطوة صغيرة تاركاً له متعته الخفية بالنظر إلى كتفيه وظهره من الخلف. يتوقف ناجي عن الكلام وكأنه رجع منه - بعد رحلة قصيرة - إلى مكانه الطبيعي. يرفع ناجي ياقة سترته ويضع يديه في جيبي بنطاله فيما خطواته الآخذة بالتسارع لا تحدث أية ضجة على الإسفلت المبلول. يتقدم بخطوات ثابتة في الشارع الضيّق ولا يرى أن المارة أصبحوا قليلي العدد، وكأنه منشغل بالتفكير بأمور هامة تستحوذ عليه، وهو يرفع

رأسه من وقت لآخر متفحصاً السماء كأن في القبة الليلكية ما يؤكد أو ينفي الفكرة التي تتقلب في رأسه.

ينفرج وجه ناجي بابتسامة عريضة، ويضع يده على كتف خليل فلا يعود هذا الأخير وراءه. يلتفت إليه خليل منتظراً لكن ناجي لا يتكلم... أفكاره هذه ـ إما هي ضدي إما أني معترض عليها لا محالة، لذلك هو يبتسم ويسترضيني من غير أن يشعر.. هذا أفضل.. ليحتفظ بها.. المحزن أن تكون أفكاراً لا أملك برأيه أن أشارك بها.. كأكثر أفكاره التي يحاول أحياناً أن يأخذني إليها ثم يسأم في منتصف الطريق.. ويبتسم.. ويسترضيني...

ـ سوف يعودون. سترى. يقول فجأة ناجي..

يرى خليل ريتا. لا يراها تماماً. ليس كلّها. يرى شفتيها اللتين لا تتوقفان عن الحركة مع أنه لم يتكلم معها ولا مرة واحدة. أي أنها لم تتكلم معه ولا مرة واحدة. ينتبه خليل إلى أنه لم ير ريتا يوماً تكلم أحداً. فقط كان يراها تسير في الشارع، أو تدخل البناية عائدة إلى بيتها.. مرة رآها على شرفة منزلها في الطابق الرابع، تقذف بشيء ملفوف في كيس نايلون إلى أختها الصغرى وتعود بسرعة إلى الداخل. ربما لأنها كانت ما تزال بثياب النوم. ناجي كان يكلّمها من حين لآخر، لكنه لم يقل لها مرة كلاماً ذا معنى. كان فقط يزداد شحوباً حين تمر ريتا أو حين يلتقيان في مدخل البناية وكان خليل يستغرب ألا يقدم ناجي على مغازلتها بجرأة إذ ما الذي ينقصه؟ كان خليل متأكداً أن ريتا مغرمة بناجي.. كان يغمزه ناحيتها فيبتسم ناجي متجاهلاً، لكن خليل يزداد قناعة..

فقط حين تركوا البيت، وصعدت هي إلى جانب أمها في السيارة متقدمين كميون الأثاث، بدا ناجي عصبياً في تهكمه: إنهم مجانين.. مجانين تماماً.. ما الذي يحدث للناس.. إن أباها متعصب كثور، رجل مريض كان يأكل الجرائد أكلاً في المدة الأخيرة، ويظل في البيت ببيجامته وبشعره المنفوش، يغفو على المذياع ولا يكف عن الزعيق.. كان يربّي هواجسه المريضة كحيوانات نادرة بشغف وسعادة...

«سوف يعودون»... لم يعد أحد من الذين خرجوا.. أصص النباتات كانت تذبل وتيبس على الشرفات، وحين تعود ربّة البيت بزيارة خاطفة، تلقي بها في مكب النفايات وتحمل صرراً وأكياساً جديدة وهي تودع الجيران وتوصيهم بالبيت على عجل.. الجيران كانوا يأسفون وقلما تمهلهم الجارة المودّعة لاستكمال تطميناتهم أو أمثالهم الشعبية الداعية إلى التروّي والأسف والحث على العودة.. كانت تقبّل الأطفال وتلعن التفرقة والظروف والأيام وهي تكرج مسرعة بأغراضها على الدرج.. فيما الجيران يصعّدون الزفرات الطويلة ويغلقون أبوابهم على مهل، أو ينظرون إلى السماء خائفين عليها من مطر مفاجىء على طريق المعبر التي ينبغي لها أن تقطعها سيراً على قدميها.. إلى المنطقة الشرقية من العاصمة...

«لم يعد أحد من الذين خرجوا».. فكّر خليل أن يجيب ناجي حين عاد هذا الأخير إلى الضحك مستهزئاً، وإلى إلقاء كفه على كتف خليل. لكن أسفاً عميقاً كان يداخل خليل كلما رأى شفتي ريتا اللتين لا تتوقفان عن الحركة ثم تغيبان تماماً في قبة السماء التي أصبحت الآن سوداء، والتي عاد ناجي الى

استشارتها بعد أن هزّ كتف خليل داعياً إياه إلى الإسراع بالعودة...

كلب أبيض يمرّ بجانبهما وهو يرفع إحدى قوائمه المكسورة.. ويتبختر كأنه لا يبالي.. رجل مرتبك أمام بوابة عمارته الحديدية السوداء، يبتسم عند مرورهما وكأنه يعتذر عن فقدانه للمفتاح.. امرأة بدينة تخرج بكيس زبالة لترمي به عن بعد ينشق فوق الكومة المنتشرة. وتعود متمهلة.. شابان بثياب عسكرية يغنيان ويضحكان ثم يدلفان إلى محل الفليبرز نصف المضاء في نهاية الشارع..

- ٣

صبّن خليل يديه مرة أخرى ثم رفعهما إلى أنفه يتفحص أثر رائحة المعجون. عاد إلى الزجاج الذي ثبّته لتوه. وضع كرسياً وراح يدعك اللوح المبقع بجريدة عتيقة مبلولة بالماء والسبيرتو الأزرق. اكتست كفاه بلون الحبر المحلول الأسود. عاد إلى المغسلة، وعاد الضوء، كعادته، حاداً، عبر النافذة الوحيدة.

كل مرّة تضع فيها حرب ما أوزارها، تكبر حاجة خليل إلى الترتيب والنظافة. تكبر وتتشعب حتى تصير إلى ما يشبه الهاجس. بعد المعارك تعود غرفة خليل إلى حال من النظافة والانتعاش يشبه أن يكون ملتزم البناء قد خرج لتوه منها. تعود جديدة. يلتمع بلاطها وتفوح منها عطور الصابون والمنظفات والمطهرات.

خط بطانية السرير المقلّمة موازٍ تماماً للأرض. على الطاولة التي تحمل موقد الغاز جريدة لا تزال تحتفظ بطياتها وبياض

صفحاتها، والتماع الأواني والكؤوس الصغيرة على حافة المجلى النظيف في الطرف المستتر يوحي بأن امرأة ست بيت ـ أو عانساً شديدة البياض ـ تعيش منذ زمن، هانئة، في ذلك البيت الصغير. تتحول غرفة خليل، بعد الحروب، إلى بيت صغير ولا يعود ينقصها، لولا الظروف القاسية، سوى باقة صغيرة من الزهور البرية اللطيفة الألوان، في إحدى زواياها.

انتهت المعركة. جاء ناجي. جلس قليلاً. شعر أن خليل منشغل جداً ومأخوذ بالترتيب ولا مزاج له... اطمأن عليه وطلع إلى بيته. قال لأمه بأن خليل متوتر وحزين..

لم يكن خليل متوتراً بالمرّة. خطر له أن يحضر كوباً من الشاي لكنه فضّل أن يحافظ على ترتيب الغرفة، متمتعاً بانتظامها النموذجي وقتاً أطول. وهو بالطبع لم يكن حزيناً، بل كان، كلما جال بعينيه في المساحة الصغيرة المشرقة، يشعر بالرضا والاستحسان بل وبالفرح.

جلس على سريره وراح ـ يحدّق من الزجاج الجديد وهو يسمع أصوات كنس شظايا الزجاج الآتية من كل صوب في الشارع الساكن.. سكون كأنه يأتي من سماء بعيدة، من كون آخر، هو ذلك السكون الذي يحلّ على المدينة بعد المعركة.. سكون يشبه الخشوع أمام رؤيا عظيمة حلّت في رأس المدينة فأفرغته من كل ما عداها.. حتى الكلاب تتهيب الموقف وتبتلع نباحها وتغرق في ذهول داخلي... فقط من حين لآخر صوت شظايا الزجاج... وبعض السعال البعيد..

بدا لخليل أن أصناف الزجاج الجديدة أفضل نوعية وأكثر

شفافية. كثرة الاستهلاك مرّنت أيديهم على براعة لم تكن لديهم.. في السابق كانوا يرمون الألواح المكسورة.. الآن صارت لديهم خبرة التحويل، ولا بد أسفوا على كل ما كان يضيع هدراً.. الآن دخل كل شيء في دورته ليواكب دورة الحياة الكبيرة، وصاروا يشترون الرصاص الفارغ من الصبية الذين راحوا، بدورهم، يأخذون أمكنتهم الصغيرة في تلك الدورة الكبيرة.

وفيما كان خليل يفرك جلد يديه الباردتين، رأى دماً. مشحات من الدم الناشف الداكن، وأخرى لا تزال نيئة، حمراء ولزجة تغطي جرحاً ينز من باطن إبهامه.

استلقى خليل على السرير، وهو يحاول جاهداً تنظيم تنفّسه المضطرب، أبعد يده ثم دسّها في غطاء السرير.. تمنى لو أن أحداً يطرق الباب، الآن.. ثم، راح في ما يشبه السبات العميق.

* * *

وهو نائم، ممدداً على السرير الضيق، يعطي خليل نفسه للعين بشكل أفضل، أي بشكل أكثر وضوحاً إذ هو ينفي في ثباته وحياده كل احتمالات انخداع الحواس التي غالباً ما تضلّلها حركة الجسد أو مغنطة حقول العين.

فلخليل عينان واسعتان ضائعتا اللون بين الذهبي والأخضر تبلغان الناظر إليهما فيخيل إليه مثلاً أن خليل أطول بقليل مما هو عليه بالفعل. كما أن حركة جسده المقطوعة دائماً قبل ما يبدو انتهاؤها، حركة جسده المقننة لشدّة خجله المقموع ربما، تعطي وجهه شيئاً من النضج الذي ليس له.

خليل، الآن، ثابت وفي المتناول، ولو لم يكن في العمر الذي يكون اكتمل فيه نمو الرجل الجسدي لاعتقد الناظر إلى ذلك الجسد أنه جسد مراهق، يعد، بعد أن تكتمل فيه مهمات الأم الطبيعة، فتفرع الساق وتنتفض التويجات النافرة، يعد بتناسق وجمال كبيرين قد يذكران بتماثيل الرخام التي نحتها الأقدمون تقديساً ومفخرة بما قد يصل إليه جمال الذكورة المتألقة في يناعها.

لكن، وكتفاه الضيقتان لا تفيضان عن عرض المخدة الصغيرة التي يسند إليها رأسه، يتساءل المرء عن حكمة الأم الطبيعة في التوقف أحياناً عند محطة ما من محطاتها، وفي عدم الاسترسال في إيصال الرغبة الكامنة إلى النهايات الموعودة.

إن وجهه النائم الشديد الهدوء، والغياب، قد ينبىء في مشحة الشحوب التي تغطّيه، عن معرفة خليل لتلك الأمور معرفة كامنة، وعن الإذعان الحزين لها، إذ غالباً ما ينبىء الجسد في وصفه الثابت، وفي نومه، عن معرفته لدقائقه، لمشاكله وعثراته، لأفراحه ولأتراحه، عن معرفته الحدسية لوظائفه المستترة من غير وعي صاحب الجسد لها وعياً يخرج إلى حيّز الإدراك كما تقدّمه معرفة الحواس في حركتها... كأن تعرف الحبلى النائمة جنس جنينها، إذ الجسد المغروب بداية انفجارات خلاياه السرطانية...

على أي حال، بمجرد أن تقع العين عليه وهو في نومه الصغير هذا، يتحرك في القلب ما يشبه أن تكون والد خليل الذي عنّفه تعنيفاً مبالغاً فيه لهفوة تافهة اتخذتها ذريعة لفشة

خلقك، ولا تملك الآن إلا أن تضع رأسه الصغير على ركبتك وتروح تمسح شعره العسلي الناعم كشعر الأطفال فيما تترقرق عيناك بتمني الأحلام السعيدة له. تمنٍّ يخرجك من بئر الإحساس بالذنب، ويرده إلى بستان الفتوة اللاهية. حيث ينبغي له أن يكون، يبرطع بين أترابه...

وأتراب خليل هم في الحقيقة مجموعتان. الأولى التي تناسبه شكلاً والتي تتألف من شبان هم دون سنه بكثير، قد خلعت باب الرجولة خلعاً، ودخلت إليها من بابها العريض أي من باب التاريخ وراحت تصنع، يومياً، مصير منطقة بائنة الأهمية بالنسبة لخارطة العالم، وتدير حياة الناس العامة والخاصة حتى مسائل المياه والخبز والأحلام والهجرات... في حين أن المجموعة الثانية، وهي التي تخالفه شكلاً وتتألف من رجال هم في مثل سنه، قد أمسكت بناصية الأمور الكبرى أي بأدوات العقل والفهم والإدراك والتنظير، ووضع الخطط لضبط طابق الحياة العلوي.. في السياسة والقيادة والصحافة والـ...

هكذا أغلقت الرجولتان أبوابهما دون خليل فبقي وحيداً في معبر ضيق، وعلى تماس بين منطقتين شديدتي الجذب مقيماً فيما يشبه الأنوثة الراكدة المستسلمة لحياة نباتية محض، والرجولات الفاعلة المفجرة لبركان الحياة على قاب قوسين أو أدنى...

إلّا أن هذا اللبس هو الآن موجود فقط في ما يشي به جسد خليل النائم، ثابتاً، مقطوعاً عن حركته وعن وعي صاحبه له... فمستيقظاً، كان خليل لا يعي من المسألة سوى شدة ميله إلى

السلم والسلام والى عدم الرغبة في الخروج إلى... وعدم القدرة على مشاهدة الدم والـ... وسوى إحساس بالوحدة التي لا تنجح مطلقاً في اتخاذ مكانها براحة وهدوء في روحه المشوّشة القلقة...

- II -

- ١ -

طقم من الفوتيلات - ستة على الأرجح - من طراز الستيل الفرنسي المتفاوت الضخامة، تجاوره طاولات صغيرة ذات قوائم مشابهة لقوائم الفوتيلات، وسطوح زجاجية تعلوها منافض للسجائر ضخمة وملونة من الجفصين أو الزجاج، تتدلى فوقها مباشرة ثريات من زجاج مشوّه يقلّد الكريستال. وفي الخلفية، دائماً، وراء الفوتيل الكبيرة إطار خشبي أو مطلي باللون البرونزي للوحة منظر طبيعي أو لسيدة أسبانية تحمل غيتاراً أو لغزال ذي عينين دامعتين، من الورق.

الألوان بمجملها تشد دائماً نحو الزيتي أو النبيذي على تعريفات زهور متفتحة كبيرة أو خطوط أرابيك تجريدي. أما الستائر فهي ذات شراريب صغيرة وقناطر تخفي سكة الحلقات المعدنية. في المقابل تماماً، ودائماً أيضاً، طاولة السفرة آكلة المساحة المتبقية، وذات الكراسي الضخمة بأقمشتها التي تقفل اللون، وترد العين بقسوة إلى الفوتيلات....

كل ذلك محشور في فسحات حزينة، استعمل المهندس المعماري الحديث كل حيلته وموهبته حتى خلص إلى فسحات

للمرور ولكن ربّات تلك البيوت لم يقصّرن في إحباط حيل المهندس الحديث فملأن فسحات المرور تلك - بأصص نباتات الظل - أو شبيهتها البلاستيكية ذات الأعمار الطويلة والتكاليف القليلة - التي درجت كثيراً في السنوات الأخيرة في مدينتنا...

فمدينتنا المتوسطية الجميلة قد تضخمت على نحو مبالغ فيه في تلك السنوات الأخيرة. وهي مدينة صغيرة لم تكن - على الأرجح، مهيأة لأن تكبر على هذا النحو وذلك الإيقاع.. فقد غزتها القرى الصغيرة، المطرودة من أماكنها لأسباب شتى، والقرى الواقعة في غواية المدن وهواها الآسر، فكان أن تدبّرت المدينة أمرها بالتي هي أحسن، وتمددت وانتشرت واحتشدت بما أعانها الله عليه. وكان من جرّاء ذلك أن فرّخت تلك العمارات، وبالتالي تلك البيوت - أو بالأحرى الشقق - وجاءت متشابهة حدّ الكوابيس.

* * *

بدا الأمر لا يتعدى مجرد الضيق في الوقت، أكثر منه ضيق في ذات اليد. فكأن صاحب الملك كان على عجلة من أمره لينصرف ربما إلى ما هو أهم وأسمى وأكثر رسوخاً في الحياة. وكذلك بالطبع المهندس الشاب.. ومعامل المفروشات، وأيضاً.. سكان تلك الشقق.. كانت المدينة بكاملها، تبدو وكأنها - على شيء من ضيق النفس - تريد أن تخلص من انشغالاتها الجانبية تلك لتنصرف، بعدها، إلى أشواقها الحقيقية...

* * *

لذا بيت الست إيزابيل، كان شيئاً آخر، مختلفاً تماماً عن تلك الشقق التي توحي بالعبور لا بالإقامة، والتي يصعب أن نتصور أن لها مطابخ أو خزائن، أو عليّات للمؤونة أو الذكريات..

بيت الست إيزابيل يحوي أثاثاً ثقيلاً وقديماً يوحي بأنه بات جزءاً من البناء لدرجة أن الدرسوار الضخم مثلاً ذا المرآة المنحنية الزوايا صار هو الذي يشكل النصف الأسفل من الحائط ويسد الفجوة إلى فراغ الشارع...

إنه بيت مرتاح ومقيم في بناية أخذ مالكها وقته في بنائها، ثم مات موتاً طبيعياً كالإغفاءة. محاطاً على سرير شيخوخته بأبناء وأحفاد استفادوا من حكمته المتأنّية... هذا ما يرجحه الناظر إلى أغطية الدانتيل والكروشيه السكرية اللون المجنّحة المنشّاة، أو الداكنة الحريرية المنتشرة على الطاولات الصغيرة، أو على سطح التلفزيون القديم أو على أيدي الفوتيلات الواطئة، أو على ضوء الزاوية في طرفي الصالون أو على خزانة الموسوعة الفرنسية، مما يعطي الست إيزابيل شيئاً من حكمة مالك العمارة، ويسهل أن تتصور تراكم طبقات الحكمة والتفكير العميق مع تراكم القطبات قطبة قطبة وغرزة غرزة وسهرة سهرة في وقت كان يشغل فيه الوقت بالأصابع الرقيقة والإبر الدقيقة. فكثيراً ما يردّ الوقت إلى الحكمة وترد الحكمة إلى الوقت...

ولأن النباتات الصغيرة الخضراء تحت لوحة الفراشات المحنطة، كانت تبدو الوحيدة التي تعيش بمجهودها الخاص رغم أن أوراقها اللامعة النظيفة تشي بمقدار الاعتناء بها. فهي تجاور، دون تنافر، زهوراً برية باهتة اللون مصنوعة بدقة ومهارة من القماش الحريري والسلك المعدني المخفي..

الأثاث الذي عمّر طويلاً، لم يكن حقيقة بالأثاث الفخم. صحيح أن البيت يقتصر الآن على ساكنين اثنين هما الست

إيزابيل وابنها ناجي، إلا أنه قبل زواج أختيّ هذا الأخير، وسفر الأولى إلى السعودية واستقرار الثانية في القسم الشرقي من العاصمة، كان البيت يضج بحيوية الساكنين والزوار...

- ٢ ———

ما الذي يفقده البيت تحديداً حين يتركه ساكنوه فارغاً؟

كان الهواء الراكد في مماشيه وغرفه، وطبقة الغبار الكثيفة التي تراكمت على أثاثه وفرّغت هواءه من الأنفاس الإنسانية، كافية لأن تلغي من رأس خليل أي احتمال بدخول الست إيزابيل بمشيتها المتمهلة المائلة، وباستنادها إلى كنبتها قبالة الباب. لن تهمس بكلامها الهادىء النحيل الذي كان، كلّما تقدمت بها السن يزداد اقتضاباً كجسمها الصغير، وكضفيرة شعرها الرمادي الأزرق المعقوص دائماً إلى الخلف على شكل كعكة تنتظمها بشبكة حريرية صغيرة سوداء.

بدا البيت خالياً تماماً، خالياً مما هو أكثر من حضور أصحابه مع أن توزيع الأشياء فيه بقي تماماً على حاله. فقط سجاداته التي ارتفعت، بعد نهاية الربيع إلى زوايا الغرف الداخلية، جعلت مناخ البيت أكثر إسراعاً من الوقت العمومي في إحلال الصيف في أرجائه، ذلك أن سجاد الجيران كان لا يزال يتشمس على الشرفات، والصيف كأنه كان متردداً في دخول المدينة التي شاعت أنباء استقصائها في فهارس المدن.

ولطالما أجّل خليل صعوده إلى بيت الست إيزابيل، وكأنه بشكل خفي كان يؤجل اعترافه بفراغ البيت، كأن يفضل أن

يحتفظ له في ذهنه بالصورة الأليفة التي تجعله مكاناً منفرداً. كأن يفضل أن يرجىء وقوع بيت الست إيزابيل في عمومية البيوت، في التشبّه الذي سوف ينزع إليه هذا المكان، مع الوقت، ببقية البيوت التي غادرها أصحابها. لقد صعد يتفقد البيت لأنه عرف أن زجاجه المطل على الشارع قد انهار برمته إثر انفجار السيارة الملغومة التي كانت تستهدف زعيماً مشهوراً ماراً من هناك. لقد نجا الزعيم بأعجوبة، وأدرك كما أدرك معه سكان الحيّ بأن الجفاء سيقوم، عملياً منذ الآن فصاعداً، بين الزعيم وبين سكان الحيّ ذي الأغلبية المذهبية المعينة (إذ الزعيم من مذهب آخر...).

مصادفة مرور سيارة الزعيم، عرف خليل، سوف تسرّع من عمل الوقت الخارجي على داخل البيت، إذ، بتكسر الزجاج المطل على الشارع، سوف يكون دخول الغبار أكثر سهولة وإفساداً في هذا الوقت من الفصل فيصبح البيت أكثر إشارة وتدليلاً على غياب أصحابه وبالتالي، على استحالة رجوعهم إليه.

فقد حرصا الست إيزابيل وناجي، على ألا يودّعا خليل وداعاً مكشوفاً، الست إيزابيل كانت تعمل وكأنها خارجة إلى بيت جيرانها.. ربّتت بعجل على كتف خليل وهي تسلّمه المفتاح وتوصيه بريّ النباتات، وحرصت على أن تخرج قبله من الباب.. حتى ثيابها لم تكن فعلاً ثياب خروج بعيد. فقط استبدلت «بلطوفها» الصوفي باسكربينة سوداء ذات كعب صغير...

ناجي كان أكثر اقتضاباً منها، كان كلّما تحركت أو انتقلت

خطوات صغيرة في اتجاه ما، يكرر بإصرار ـ اتركي كل شيء مكانه.. وكانت تجيب بصوت تسمعه هي فقط... طبعاً. طبعاً..

تحيّر خليل في ما قد يفعله. أتى بالمكنسة من المطبخ وراح يجمع الزجاج المكسور كفرد بعيد في اوركسترا الشارع الخفيضة.. كعازف مقعد يتابع، بالإيماء، ومن بيته، عزف رفاقه المجتمعين في حفلة على منصة بعيدة. أخرج الزجاج إلى البلكون الصغير حيث كوّم الشظايا وطحينها في إحدى الزوايا... وهو يروي النباتات، أسف على إهماله الطويل لها إذ كانت تبدو على الرمق الأخير من اخضرار بائد. ثم راح خليل يجمع أغطية الدنتيلا وزهور الحرير التي انطفأت ألوانها وإطارات الصور الصغيرة، ويضعها بشيء من الإسراع المصطنع داخل جارور الدرسوار في غرفة السفرة. غرفة الست إيزابيل كانت كاملة الترتيب، كل شيء في مكانه تماماً، مضبوب ومتكتم.. غرفة، في فراغها من الأشياء الشخصية، كانت تبدو وكأن أقرباء قد قاموا بواجبهم بعد أن واروا الفقيد ـ ساكنها ـ الثري، وعادوا يتكلمون ـ خارجها ـ في أمور أخرى... فقط إشبيتها العتيقة، المتروكة في وسط السرير، على وسط المخدّة تماماً كانت ما تزال تذكر بشكل انشغال ذلك الذي غادر، أي بشكل حضوره الخاص، في تلك المساحة الصغيرة المتقشفة.

فوضى غرفة ناجي أشبه بالديكور المسرحي.. فوضى بلا داع أكيد سوى تمثيل ساكنها لشكل ارتباطه بالعودة إلى المكان. كل غرض كان يمثل إفصاح ناجي عن رسالته بالإصرار على عودة سريعة... لذا اجتهد الممثل حتى خرج عن الدور لشدة ما صرخ عدم اقتناعه ووشى بيأسه العميق، ولذا لم تكن

لا بيجامته، ولا شحاطته، ولا القمصان المتراكمة على السرير ولا الجوارب المتروكة على المكتب الصغير، ولا المشط على الكرسي، ولا حتى باب الخزانة المفتوح بدلالات مقنعة على عودة صاحبها إلى مكان غادره عرضاً. وعلى عجلة من أمره. كانت الأغراض في فوضاها الزائدة عن اللزوم وفي تخليعها المقصود أكثر إيلاماً لخليل، وأكثر إشعاراً له بطول المدة التي انقضت على فراغ البيت.

غرض واحد ظلّ خليل، خلال تجواله في الغرف، والمماشي، يحاول تجاهله.. ذلك أن هذا الغرض كان نقطة الوشاية الصارخة بحضور الغائب، وقف خليل فوق صينية القهوة وراح يحدّق فيها جيداً. كانت نقاطها الضوئية تمغنط وتنشر حقل رؤية الغائبين، كانت تجسد هالة اللامرئيين كما في أفلام الخرافة العلميّة.

شربوا القهوة وخرجوا. تركوا الفناجين بثمالاتها.. كانت القهوة ما تزال دافئة حين خرجوا.. تعمدوا ربما ألا يغسلوها لكي.. لكي تبقى أياديهم ملتصقة بها.. لكي تبقى كعين زرقاء ترد الشرّ عن سكان جدد تحدس الفناجين أنهم سيألفونها بعد حين، تركوها أمانة تواصل وسلام حار للقادمين الجافلين.. تركوها لكي تقول لهؤلاء القادمين: إننا نتشابه كثيراً.. وأن الألفة التي بيننا هي شيء وراء الألفة وإننا سنهرب إلى... وستهربون إلى... وأن الدوائر التي ستخطها حركة هروباتنا سوف تتطابق كما كانت تتطابق حركة طيران اليعاسيب في طقوس هياج العواصف والتزاوج....

قهوة الفناجين كانت جافة وشديدة الالتصاق.. وقهوة الركوة

كانت مغطاة بطبقة خفيفة من العفن القطني الأزرق، لاصقة بدبقها على نحاس الصينية المنقوش.

الركوة وفناجينها كانوا يتأهلون بمن سيقدم إلى البيت.

الركوة وفناجينها كانوا يعرفون أن إيزابيل التقية وابنها الوسيم لن يعودا.

وفكر خليل، قبل أن يرد الباب بأن يشتري لفافة نايلون يسدّ بها الشبابيك والنوافذ الفاغرة أفواهها إلى الشارع.

---

٣ -

ما الذي فقدته غرفة خليل تحديداً بعد أن غادر ناجي بيته؟

ما الذي تغيّر فيها وناجي لم يكن مقيماً بل كان زائراً بخيلًا.... وما زال... فناجي يزور خليل باستمرار وبأوقات تكاد تكون منتظمة. بل تكاد زياراته لغرفة خليل تكون أكثر عدداً منها أيام كانوا ما يزالون في البيت.

فقط صار خليل يعرف مسبقاً بموعد الزيارة و... فقط حين لا يأتي ناجي كان يكون بعيداً ولا يترك احتمال دخوله المفاجىء... كانت قناة صغيرة خفية تربط غرفة خليل ببيت الست إيزابيل تجعل المكانين كأنهما أوعية متصلة لكن خليل لم يكن يحزر ما هي المادة السائلة التي تتنقل بخفية بينهما فتقيم وجه الشبه وتصل ما يبدو مقطوعاً تماماً.

فغرفة خليل ما زالت على حالها لم يتغير فيها شيء البتة... ربما الجسد العائش فيها هو الذي تغيّر... صار أكثر ثقلاً ووزناً والتصاقاً بما وراء الباب.. يفرح خليل فرحاً مشوباً مضروباً

مغشوشاً مخلوطاً لا يدري بمَ، حين يعرف ويتوقع زيارة ناجي.. ربما يحدس أن الزيارات سوف تتباعد بعد حين أو تنقطع، ربما يخاف على ناجي من مسؤولية الزيارة فالأخطار كثيرة من المعبر إلى الغرفة وناجي، يعتقد خليل، يشبه طيراً غرّيراً، لا أم حقيقية له تدربه على شيء..

يتهيأ خليل لزيارة ناجي بفرح مصطنع.. يرتب غرفته وهو يعرف أن ناجي لا يلقي بالاً ولا ينتبه.. يشتري قهوة طازجة ثم يقعد متعطلاً منتظراً.. وحين يتأخر ناجي تبدأ شعلة انتظار خليل تذوي حتى يكاد يتمنى، من كل قلبه، ألا يأتي... ألّا يعود يأتي مطلقاً.. أن ينقطع عن الحيّ وتحولاته... أن يكف عن....

الزيارة لا تضيف إلى قلب خليل، إنها تـقطع منه... فكلما حضر ناجي على موعد كان يكون غائباً قبل الموعد بثانية ويعود غائباً بعده بثانية ويكون أعلن تفريغ الوقت قبل الزيارة وبعدها، والزيارة صغيرة، قليلة وتوسّع الوقت السابق والتالي، تفرغه وتفغره وترخيه.

يقرف خليل من وضعه كمنتظر، ويقرف من شكل إشفاقه على نفسه ويقرف من المطلّقة المدعبلة التي فيه... المطلّقة التي تجلس ببياضها وشحمها القصير على حجر شاهد المعشوق تنتظر في بيضة بيضاء على حجر الشاهد الأبيض... تنتظر أن يعود مريضاً لتحضنه وتقول له أرأيت أنا التي أحبك أكثر... لأنني انتظرتك هنا لا آكل ولا أشرب ولا ألتذ حتى تعود... حتى تعود مريضاً فأداويك لتستغرق في مرضك الميؤوس تحت ضوء عينيّ.. انتظرتك منقطعة موقوفة كغراب

لطيف لأدفنك بيديّ المخلصتين اللتين كانتا تدفعان العشاق المخبولين.. كل عمري وقفته وفرغته وقسطته من داخل وخارج بانتظار عودتك إلى قبر انعق فوقه لك بأجمل حناجري التي ما نعقت بها لذكر مخافة أن يدرن نقاؤها... أنعق لك بأغاني حب لم تعرفها من عرفتَ من النساء، لأني وحدي احتفظت لك بدموع كنت أربيها وتتكاثر كالأرانب لأفرج لك بها وأذرفها على تربتك كما يليق أن تذرف لك الدموع...

استغرق خليل في جسم المطلّقة المدعبلة. واستغرق في تمنّي أن يوصد العالم أبوابه دون ناجي. قال خليل في نفسه إنني أشبه مطلّقة ناجي التي ما تزال تخفي عشقها، تدّعي الصداقة مع من تتشهى أن يضع أصبعه على كتفها ويسحب عنه شعرة عالقة بعد أن كان يضعه في بزرة الروح فتنفجر... يا للتشبيه!.

أن نلتقي على موعد هو إعلان الاتفاق على ألا نلتقي مطلقاً... كيف نلتقي مع من لا يدفعون الباب ويدخلون علينا في أية لحظة... يشتمّون هواءنا الفاسد والرطب ويكشفون أعيننا الشاردة أو الدامعة أو الزائغة أو الكارهة. كيف نلتقي مع من كفوا عن قطع جملتهم الأخيرة في قولهم لأننا نعرف البقية، أو لأن البقية لا بد آتية، مع من اعتقدوا أن جهدهم وكثرة كلامهم واستعدادهم المتأنق قد يحشو الممصّات الصغيرة التي تسحب وقت الأجساد المشترك والروائح المشتركة التي تعبىء المكان بنبارشها الصغيرة ولقاحاتها التي تنعقد في الجو.

حين تختفي رائحة سكائر ناجي من المكان فإن المكان

يفرغ منه لا منها وحين تنظف الغرفة من آثاره المخفية والبائنة فإنها تنظف من شحنة عينيه.. وكلامه...

حين صار ناجي يأتي لزيارتي صار يتكلم أكثر من السابق ويخبرني أخباراً، يروي لي قصصاً... أصير كأنني جالس في السينما أو هكذا يبدو لي... كلما تكلّم كلما أحسست أنه يغيب ويفشل في ملء المكان.. كلّما سمعته كلما قل نفاذ عينيه إليّ، وهرب مني... لا بد أن يشعر بكل هذا، لا بد أنه يصمم في طريق عودته إلى المعبر، ألّا «يعبر» إليّ ثانية... وهو يعود فقط كفّارة عن أفكاره، يعود ليقول إنها مجرد أوهام وإنه هنا لأنه يحب أن يراني، وبالطبع لأن لا حدود بالنسبة له بين منطقتي بيروت وأنه لن يعترف بما هو حاصل، أنه يعود، كما يعود أي إنسان، من أي مكان من العالم بشكل طبيعي تماماً، لزيارة بيته وموضعه خلال فترة يكون فيها كثير التنقل أو على سفر.

تأخّر ناجي...

حين يتأخر ناجي يعود كل ما فكر به خليل، قبل أن يتأخر، مجرد كلام فارغ وتسلية تملأ الانتظار...

حين يتأخر ناجي يخون خليل بذخ الأفكار، وتنطفىء لعبتها.. يحلّ خليل في الفراغ ويصير يشبه بوصلة ذات إبرة واحدة ترتجف وتشدّ نحو الباب، أو يشبه أن يكون جسمه منقسماً إلى نصفين متقابلين: واحد «يأتي» وواحد «لا يأتي» وعقله في النصف واقع في تماس التجاذب وإذن فارغ ومتكوّم وغائب وزائد عن اللزوم كابن الأميّن في حكاية الملك سليمان...

وهذا وضع لا يشعر الواقع فيه بالتعب والعياء إلا بعد أن ينفك إلى أحد الاتجاهين... وصار خليل، كأم الولد الحقيقية، الكريمة النفس، يفضل ألا يأتي ناجي... وخلص....

ثم.. وبلمح البصر يصبح أن «يأتي»: ضرورة قصوى..

* * *

حين تستوي الشمس في السماء عندنا يكون ذلك إشارة إلى عودة المدينة. أي إلى ما يشبه حين تغطس الشمس في البحر عند غيرنا... فمواقيت نهاراتنا قد انفصلت عن توقيت الشمس العمومية.. الظهر يعني أن تبدأ المدينة بلملمة أغراضها ويتهيأ الناس للعودة إلى أمكنتهم التي فيها يرقدون الليلة... وهذا لا يعني بالضرورة بيوتهم.. بهذا أيضاً يصعب قاموس مدينتنا ولا يعود تعبير كمثل «يعود الناس إلى بيوتهم» بمثل ما يبدو عليه من التلقائية والبدهية... أو تعبير «يأكل الأولاد ما طبخته لهم أمهم» بما قد يفترض السامع من استنتاج منطقي...

حين تستوي الشمس في السماء تبدأ الأسواق تتململ بضيق من زوارها المتأخرين، ويروح أصحاب البسطات يهيئون صناديقهم «الكرتونية» لرفع البضائع عن الأرصفة وتعود باصات المدارس تتوثب في زحمة سير الشوارع القليلة المتاحة، وعربات الخضار تخفض أسعارها لتفرغ سريعاً من حمولاتها... وقرابة الثانية يخيّم الليل المجازي وتبدأ أسماع الناس الثانية تترقب تجلّيات هذا الليل الجديد فيما تنشغل الأسماع الأولى بلملمة أشياء النهار الذي انقضى لتكون

الرؤوس بكامل استعدادها للاستجابة السريعة لأخطار ومفاجآت ليل بعد الظهر الأول والليل الثاني الذي يليه...

لذا وبما أن الشمس قد استوت في سماء المدينة فإن ناجي لن يأتي اليوم وقرر خليل أن يخرج من بئر غرفته.

* * *

كان التساؤل يلحّ في رأس خليل: لمَ تمشّط «كلود» زوجة «نايف» شعرها في غرفة الجلوس، على مقربة منا، وليس في غرفة النوم؟ ولمَ تسترسل في تمشيط شعرها على هذا النحو وكأنها لوحدها هنا... بهذا الشعور بالطمأنينة والتجاهل... مع أنها من حين لآخر كانت تنظر من بين خصلتين وتعلّق على الكلام دون أن تكفّ عن حركتها المتتابعة.

منذ عرف خليل كلود وهو مقتنع أنها امرأة ضجرة.. منذ عرّفها نايف على أصحابه، في عزّ أيام العشق والحماس كان فيها شيء مترسب وبعيد سماه خليل ضجراً على سبيل الاصطلاح.. كانت شديدة الشحوب وشديدة الإهمال لنفسها ولا تتنطط كبنات كلّيتهم.. كانت قليلة الكلام لدرجة حسب معها أصدقاء نايف أنها لا تحسن التكلّم بالعربية ولم يسرع نايف إلى إجلاء الحقائق لأنه كان فخوراً بفرنسيتها رغم ما كان يظهره من عتاب وسخرية من لكنتها الغربية قليلاً... حمزة قال لهم في لقائهم الثاني بها: «من أين أتيت بهذه الأرمنية؟» فردّ نايف ضاحكاً ومبسوطاً: «إنها من كلية الآداب الفرنسية» ثم أردف: «انتبه، لسانها فالت وعيار شتائمها ثقيل». «ليست جميلة، أرجعها إلى هناك» قال له حمزة، ولم يعترض خليل مع أنه كان يرى أن كلود أجمل من فتيات الكلية...

قلّ جمال كلود حين أصبحت تعيش مع نايف في غرفته وقلّ أكثر حين كانت لا تهادن في ثوريتها حين يعنّ لها أن تتكلم وتشتم، وقلّ أكثر فأكثر حين تزوجها نايف ولم تتغيّر إلى ما يشبه الزوجات الصغيرات...

* * *

حين طرق خليل باب نايف لم يكن يعلم أن سهرة عنده... لم يكن مشتاقاً فعلاً لنايف ولا لبيته الصغير الشبيـه ببيوت أصدقاء الكلّية التي كان يتكاثر فيها الأثاث القديم الذي كانوا يشترونه من منطقة «البسطة» ويصرّون على الكرسي الهزّاز في أحد زوايا الصالون الصغير وعلى بعض الملصقات الفجّة يعلقونها على الأبواب الفاصلة... كان خليل يشعر أن لا علاقة لنايف ببيته أو بغرفته القديمة التي كان يذهب إليه فيها قرب مبنى الكلّية وأن البيت لكلود لا لتسكن أو تنجب فيه بل لتلعب... لتشتري أشياء تتناقض مع كنبات صالون بيت أهلها أو تشبه أفكارها من حيث العلاقة بتراث البلد القديم، الفلاّحي، فما زال نايف في سياق «الفلاحي» ولم يبتعد عنه ما يكفي لتبرير هذا الحنين إلى صينية القش والأواني الفخّارية ومكاوي الفحم، والكهرباء لم تصل ضيعته الجردية إلا بعد أن خط الشباب الشارب... وكانت تحرجه حميّة نايف وبساطته الظاهرة حين يسارع إلى وضع بعض الصحون شبه الفارغة ليأكل فيما كلود تطالع بقميص رقيق وفخذين مكشوفين، غائبة على مقربة منهما، وتظلّ تتجاهلهما حتى تعلّق بما معناه أنهما تحت المستوى الثقافي المطلوب لبؤس طفولتهمـا أو هما تحت المستوى الثوري المطلوب لعدم إحساسهما ببؤس الآخرين.. أو حتّى تطلب إلى نايف إخراج كيس الزبالة...

رفع نايف كأسه بوجه خليل يعزم عليه ليخرجه من صمته الكثيف إلى ما يشبه الإفادة من جوّ السهرة... ثم راح يضحك عالياً للصحافي الأجنبي الأشقر، مع أن هذا الأخير لم يكن يتكلّم بما يوحي بالجملة المفيدة.. كان الصحافي الأجنبي يتأرجح باستمرار على الكرسي الهزّاز وكلما طرح سؤالاً مقتضباً و «خبيثاً» على الآخرين راحت كلود تشتم أبو أمّته بعربية أصيلة وراح نايف يهدئها ويردّ باستفاضة وإطالة والصحافي الأجنبي يهز رأسه ويهز الكرسي الهزّاز، لم تكن أجنبية نايف تسعفه تماماً.. كان يلتفت ناحية كلود فتلقي إليه ببعض التعابير ثم تلحقها بالشتائم وبضربات تتسارع من فرشاة الشعر.. ثم تعود إلى صمتها.

الذي كان يتابع كلود بشكل مختلف، لاحظ خليل، كان «سعيد» مسؤول نايف الحزبي وابن قريته القابعة الآن في منطقة معادية.. ومع أن سعيد لم يكن مركز الدائرة كما يفضل دائماً أن يكون مفترضاً أن «ضياع» قريته كافٍ لأن يجعل الآخرين يهتمون به ويدلّلونه كعروس، ذلك أن وجود الصحافي الأجنبي كان يحيله إلى المركز الثاني الذي ارتضاه سعيد هذه المرة إكراماً منه لنايف ولأفكار الحزب...

أفكار الحزب كانت محيّرة، حسب خليل، في درجة إثارتها لدهشة الضيف الأشقر الذي راح يبدو وكأنه يسمع أخبار قبيلة بدائية يتعرف للمرة الأولى على طرق حياتها الفريدة... وكانت تعليقاته تكرر كثيراً كلمة «مدهش» أو «غير معقول» خاصة فيما كان يسمّيه «الأكشن» المتوفرة في المدينة الغريبة، «وكأنكم تعيشون في فوهة بركان» كان يقول بغيرة واضحة، فيرفع نايف

من وتيرة صوته ويستغرق أكثر فأكثر في سرد ما يزيد من شهيّة الضيف، حتى انتهى الأمر به أن سأله: «لماذا لا تبقى وتعيش هنا»؟ وبأسف أجابه الصحافي الأجنبي وقد احمرت عيناه بما يشبه البكاء من كثرة الشرب أو شدّة الأسف: «ليس مسموحاً لنا...».

استبد الانفعال بالصحافي الأجنبي لدرجة أنه وقف قاطعاً السهرة وطلب من سعيد أن يوصله إلى فندقه... قالت كلود لنايف دعه ينم هنا، لكن سعيد سارع إلى مناداة حارسه الشخصي، حسين، المنتظر في مدخل البناية، قال له في الأنترفون: «أوصله وعد بسرعة عندنا شغل»...

رجع سعيد إلى متابعة كلود بعد انصراف الأجنبي فيما راح نايف يعلّق على درجة ذكائهم في التقاط الأمور وشدّة جهلنا وتقصيرنا في مجالات الإعلام... غيّرت كلود الكاسيت ووضعت، لأم كلثوم أيضاً، أغنية قديمة وأكثر بطئاً في الإيقاع وجلست على الأرض قبالة خليل ورمت فرشاة الشعر من يدها وراحت تأكل بعض قطع الجزر... وتستغرق في نحول جسمها.

ربما هي ترد على سعيد، فكر خليل، ضاقت ذرعاً به، أو.... تريد إغاظته وتجاهله فجلست قبالتي... راح سعيد يعلّق على كلام الأغنية ويشرح أفكاره في اعتبار أم كلثوم غيبوبة رجعية قد تم تجاوزها فلم يردّ عليه أحد... اقترب من خليل وراح يسايره فيما نايف يرمي بأعقاب السجائر في كيس من النايلون ويرفع إلى المطبخ الصحون الصغيرة والكبايات الفارغة... قالت كلود لسعيد إنه من الأجدى له، انسجاماً مع رفضه لأم كلثوم، أن يصطحب امرأته إلى السهرات وبدأ الكلام مبطّناً...

وحين رد سعيد بأن امرأته تفضل التلفزيون بما قد يشبه التشكّي، قالت كلود إذن عشيقتك ثم أردفت بأن فيه عضواً مبتوراً وناقصاً اسمه النساء... قالت ذلك بما يشبه إقفال الموضوع. حاول سعيد أن ينفذ عن طريق «موضوع النساء» بأن يطيل الحوار، لكن كلود اقتربت من خليل وسألته لماذا لا يأتي أحياناً ولم يبدُ أنها تنتظر جواباً إذ أردفت بأنها تموت من السأم وذهبت للنوم.

إننا في مأزق حقيقي قال نايف بعد أن جلس على مقربة من خليل... وينبغي الخروج من هذه الدوامة فالبلد لم يعد يحتمل... نحن لم نعد نحتمل قال والتفت إلى خليل وكأنه يكرّمه ويدخله إلى جو الحديث من أوسع وأسهل أبوابه لكن خليل لم يفهم ما هو مقصود تماماً ولما طالت فترة الصمت أحسّ بالارتباك وقال ينبغي أن أعود. اعترض سعيد بأن البيت قريب، وبأن حسين لا بد في الطريق والساعة ما زالت التاسعة. إنه يصطنع لا مبالاته بانسحاب كلود... فكّر خليل...

لماذا لا تعمل معنا في الجريدة؟ سأل نايف خليل... كثيرون تركوا العمل وسافروا بسبب انهيار الليرة... ولم يفهم خليل الصلة لكنه أجاب نايف بأنه لا يجد نفسه كفؤاً للعمل في الصحافة، إذ هو، بإخلاص، لا يفهم ما يجري حوله... ومن الذي يفهم كل شيء يا رجل... أنت تقرأ كثيراً، مثقف أنا أعرف.. معرفة ما يجري على الشكل الذي تقصد / يأتي بالمعايشة اليومية، تتنشقه من جوّ الجريدة. تعال إنهم الآن بحاجة إلى كتّاب.. أنا أتكفّل بكل شيء فالرجل لطيف وودود...

* * *

لم ينتظر خليل حتى يوصله سعيد بسيارته...

الشوارع كانت خالية تماماً في المسافة المؤدية إلى غرفته حتى أن الجرذان كانت تبدو أليفة وغير آبهة بوقع الخطى القريب الذي كان خليل يتقصد أن يجعله مرتفعاً، خابطاً رجليه في الأرض علّها تهرب...

كان الملفت في ليل هذه الشوارع هو كثرة قطعان الكلاب حتى توجّس السائر أن يضرب المدينة داء الكلب أو ما قد تحدثه كثرة الكلاب من أضرار صحية أو أوبئة...

كانت كلاباً كبيرة تشبه الذئاب قليلاً في شكلها وفي توتر تلامسها وشغلها لمساحة الشارع وفي تفريغ المدينة لحركتها التي بدت على درجة عالية من الوحشة.. لا بد أن كلاب «الأسواق»، والمناطق المهدمة الخالية قد عادت ذئاباً حقيقية ـ فكّر خليل وحين رفع رأسه إلى السماء ورأى استدارة القمر وما يشوبه من غيوم كحلية وسوداء توجّس من العواء العميق وقال... ستصير ذئاباً....

ـ ٤ ـ

لم يأتِ ناجي البارحة لكي يفاجئني اليوم لكنه يحب اللعب.. فتح خليل خزانته القديمة ورصف قمصانه التي كواها لتوّه.. فرك بالزيت مفاصلها المسودّة وراح يفتح الباب ويسكّره حتى اختفى صريرها.. وقف يتفكّر بما يلبسه في هذا الطقس المحيّر وتذكر بنطلونه الأزرق الذي نسيه في المصبغة. تحسس النقود في جيبه وخرج يحمل شنطة التسوّق الشبكية ذات القبضتين المعدنيتين.

منذ أيام لم يذهب خليل إلى سوق الخضار، أي منذ انفجار

السيارة الملغومة على الطريق المؤدي إلى ساحة عرباته، ليس خوفاً من انفجار آخر إذ إن لم يحصل الانفجار الثاني بعد دقائق من الأول أي لحظة تجمّع الناس للإغاثة فإن المنطقة تكون أكثر أماناً من غيرها وأكثر استسلاماً للطمأنينة إذ تبدو وكأنها قد دفعت حصتها مما هو متوجب وأن دور الآخرين قد حان الآن... لم يذهب خليل لأن الكهرباء مقطوعة باستمرار وبعض حبات الخضار من الدكان القريب الأغلى ثمناً كانت أكثر توفيراً من أكياس تتكدس وتتعفّن في براد صغير مطفأ.. كذلك لأنه كان ضنيناً بما يملكه من مال قليل بعد أن انتقل تلميذه الصغير الوحيد من المنطقة... والأرجح أن خليل كان يؤجّل مروره في ذلك الشارع كي يعطي الوقت للأرواح التي أزهقت على حين غرّة، وكأنهم ماتوا من هول المفاجأة لا من تقطّع الأجساد ـ يعطيها الوقت لأن تعي ما حدث وتركن وتغادر هواء المكان.

بعد الانفجار بدا الشارع ملتئماً... يُحدث الانفجار فجوة أو فراغاً كبيراً في المكان. يشفط أشياء وأناساً لكنه بعد فترة قصيرة جداً، وبقدر قوة الفراغ، يعود إلى الانسداد، تعود حركة المياه البالوعية إلى الاستواء والانسياب... حتى أن الشارع بعد المتفجرة يكون أكثر وداعة وسلاماً، كمؤمن بعد أداء فريضة الصلاة، أو كمؤمن نجح في تجربة صبر وامتحان أخضعه لها الرب، فلبّى واستجاب، وكوفىء واستراح...

منذ سنوات غدت طويلة انفصمت سماء المـدينة إلى اثنتين... هواء علوي يمشي تحته من يهتمون بأمور السياسة ومن يجتهدون في قراءة الصحف والمناقشة وتحليل الأحداث

وانتظار نتائج التحليل وتفييشها.. وهواء سفلي، لسماء أقل ازرقاقاً لناس لا علاقة لهم بما يجري فوق... لا يفهمون ولا ينتظرون.... لا يعرفون مواعيد المؤتمرات والانتخابات ولا أسماء الوزراء. اختلطت عندهم الأمور تماماً فقد كفّوا عن اللحاق بها وهم عادة أهل المدينة الأكثر حركة وهم الضجرون الذين لا يلقون بالاً ولا يسألون....

ببساطة وراحة ودون كلفة يتحرك خليل بين هؤلاء.... يتلكّأ في أماكن تواجدهم في الأسواق والشوارع ويحاول أن يشبههم أكثر حين يشعر أنه على قاب قوسين من هاجس مرير كذلك الهاجس الذي يتسلّل بتؤدة إلى رأسه الآن وهو يخطو في منطقة الانفجار.. دخل الهاجس عن طريق المياه: إذا كانت المياه مقطوعة فلا بد أن في الزوايا وحفافي الأرصفة وأكوام الزبالة والخضار بعض البقايا من.... بقايا صغيرة لا ترفعها المكانس المتعجلة وخراطيم المياه الشحيحة جداً... وأخذ تنفّس خليل يتسارع ويداه تعرقان على المسكة المعدنية لكنه تعجّل خطاه وكأنه، لو تأخر قليلاً فربّ أمر أمسكه في هذا المكان... إلى الأبد....

توقّف خليل أمام محل الفليبرز يستجمع شجاعة آخذة بالتبدد. كرجت حبة بندورة من شنطته فلم يلحق بها.. إني الآن بعيد عن دائرة البالوعة التي غمرتها المياه الزرقاء المترقرقة... الكلاب لم تكن تختفي في النهار... إذ راحت تمرّ ناعسة متباطئة قرب ساقي خليل... لكنها في النهار أكثر شبهاً بالكلاب، وهي تؤاخي الناس ولا تعوي... تؤاخي البشر كجن يتخذ في الضوء أشكالاً أكثر ملاءمة لعاداتهم ولخيالهم.. في

النهار تتكشح أجسادها عن نقاط ضعفها لتعود كلاباً شاردة.. تظهر بقع الجرب فيها وبعض الجراح التي تنزّ أو بعض الأطراف المكسورة أو العيون المفقوءة أو الآذان الواقعة.. تترك أشداقها شبق الافتراس وتدبق بالزبد الأصفر وبقايا القاذورات.... وتنخرط في أهل المكان. تنخرط وتتكاثر على شكله.. فقط أنواع أخرى تختفي تماماً.. تماماً كهباء من عصور قديمة كالعصافير مثلاً...

خرج مسلح فتي من محل الفليبرز ونظر بسخرية إلى خليل الشاحب وإلى شنطته التي تشبه شنطات ربات البيوت. حمل خليل الشنطة وتابع سيره بخطوات حاول أن تكون ثابتة لردّ نظرات الفتى... ولم ينس أن يمر على المصبغة..

قال له العامل المصري لا بنطلون أزرق باسمك عندنا.. وراح يسأله بعض التفاصيل بضجر من يحاول التملص من نصّاب هزيل.. سأله خليل أن يستدعي صاحب المحل أبا محمد الذي خرج إلى الواجهة يحمل كوب الشاي بعينين محمرتين من نوم متأخر.. أجابه أبو محمد باقتضاب بأن لا بنطلون لا أزرق ولا أحمر إن لم يجده الصبي بين الثياب المتراكمة.. هزّ الصبي المصري رأسه بما معناه: والآن ماذا سيطلع من أمرك؟.

ردّ خليل باب غرفته وراءه وجلس على سريره يتنشق هواءها الأليف بعمق.. لم يذهب إلى الخزانة فهو متأكد تماماً. وضع يده على رأسه وأحس بخجل عميق من أصحابه الصاخبين في المظاهرات وفي الخطب... كانوا يرددون كلمة «جزمة» كما كان يردد شهداء المسيحيين الأوائل كلمة «سبع»... كانوا ضد

الجزمة إلى درجة راح خليل يتساءل بأي حنق ويأس وفراغ كانوا سيقعون لو لم تمنّ عليهم أقدارهم المتساهلة بكلمة «جزمة». وكان خليل يرى، من نور نافذته الوحيدة المنسكب فجأً في الأرض جزمةً كبيرةً لمّاعة تشبه رائحتها رائحة عنق الأب أو رائحة حساء المساءات الباردة...

قام خليل يرقّ دوائر العجين... أشعل فرن الغاز وقلب عليه صينية الألمنيوم الصغيرة التي خصصها للخبز منذ صارت الأرغفة تندر في الدكاكين أو يطول صف المنتظرين أمام الأفران... شوى رغيفين ثم غطّى بالقماش المرطب كريات العجين المتبقّية.. ملأت رائحة الخبز الطازج المكان. فرم بصلة صغيرة ووضعها في المقلاة مع قليل من الزيت.. جلب بيضتين من البراد المطفأ وراح يبحث في شنطته عن حبة بندورة ناضجة حمراء. خفف النار بعد أن حرك البصلة ثم راح يفرغ محتويات شنطته ويغسل الخضار في الجاط البلاستيكي. حمل الجاط وسكب ماءه في السطل قرب المرحاض لاستعمال لاحق...

كل أوساخنا تذهب عنا حين نحصرها في بيوتنا.. نجد منصرفاً لها مهما عزّت المياه.. وكله يذهب إلى البحر.

وتفكّر خليل قليلاً.. البحر. كلّه يذهب إلى البحر... كل الأيام التي تشطف المدينة تذهب إلى البحر.. منذ سنوات صارت كثيرة. كل ما خلّفته الحرب، ما هدمته وحرقته وقطعته.. إلى البحر. الحرب.. إلى.. البحر. تلك الحروف المتلاعبة بين ما كان يبدو له يابسةً ومياهاً.. وبان له البحر: ممتلئاً. ويطفح بأشياء المدينة، وبأشلائها الـ...

ثم البحر يردها إلينا بخاراً وأمطاراً.. ثم تعود و... ننظف بها، ونسقي بها الزرع... وهي...

نظر خليل بفزع إلى خضاره الملتمعة بشحوم المدينة.. وألقى بها إلى كيس النفايات. أطفأ موقدة الغاز ووقف قبالة نافذته الوحيدة...

أين نذهب بكل ما رأينا و... سمعنا و... عرفنا؟..
أين تذهب المدينة من بحرها؟

* * *

أخت ناجي التي اتصلت به لم يكن قد سمع صوتها من قبل.. أعتقد أن في الأمر خطأ أو شربكة في الخطوط أو أن أحداً سرق خط هاتف الست إيزابيل بعد أن استنتج غياباً يطول.. كان صدفة في البيت... طلع يريد أن يرى غرفة ناجي الذي طالت غيبته كثيراً وأن يرتب الغرفة، وفي رأسه أن يأخذ قميصاً من الكومة الملقاة على السرير... ويلبسه.. أو أن يأخذ كتاباً من المكتبة.

كان مرتبكاً حيراناً حين رنّ جرس الهاتف.. رآها مرّة واحدة. أخت ناجي الصغيرة، ولم يسمع صوتها.. كانت قد أتت في سيارة جديدة، لتصحب أمها وأخاها ثم خرجت وحدها عصبية ومسرعة وزائغة النظرات.

صوتها لا يشبه أن تكون ابنة الست إيزابيل... صوتها ينتمي إلى نوعٍ آخر مختلف تماماً عن أصوات النساء. شديد التماسك ومقطّع، كأنه مركب من قضبان معدنية على شكل خطوط مكسّرة ذات زوايا حادة مثبتة ببراغٍ ومفصّلات ثابتة..

بينما صوت أمها أكثر شبهاً بالأساور الرفيعة أو بالعجائن المحلاة بالسمن والسكر... واليانسون.

أحسّ خليل بخجل وارتباك كبيرين حين عرّفت عن نفسها ولا يتذكر كيف برّر لها وجوده في البيت في تلك اللحظة.. كانت تترك فراغات بين الكلمات والجمل، فراغات غير منظمة وكأنها كانت تستجمع شجاعة أو... تترك له الوقت ليفتكر ويعي ما تقول.. راحت تتكلم عن أغراض في البيت وخليل يحاول اللحاق بالأغراض في زوايا وأدراج يعرفها ويقول نعم.. كانت تطلب إليه بما يشبه أوامر رئيس لطيف أن يلف... ويضب.. ويوضب. ويصندق.. ثم قالت بأنهم يعزّونه ويعرفون معزّتهم عنده وهو يكرّر نعم.. ثم قالت ماما تسلّم عليك طبعاً. وحين سأل كيف صحتها.. تركت فراغاً طويلاً وبصوت يشبه صوت أمها هذه المرّة قالت: يا خليل... ناجي مات.

ـ ٥ ــ

في الجريدة عيد حقيقي... لا يشبه الأعياد التي اعتدناها.

فالأعياد المعلنة التي نتهيأ لها تنتهي قبل بدئها.. نظل نهيء ونتهيأ حتى نسقط في الإعياء قبل حلول لحظتها المنتظرة. في العيد تتدخل الأخلاقية لاستنفاد الفرح والبهجة لذا سريعاً يحلّ الضجر وجهد ادعاء ما انقضى قبل أن يبدأ، فيصاب المرء بإحباط شديد لكثرة ما يصطنع الاندهاش والتلقائية...

لكن العيد في الجريدة متخلّص من كل هذا وواقع قليلاً في منطقة حظر الفرح.. فالكهرباء المقطوعة قننت أضواء المكاتب

والأدراج. واشتداد القصف والقصف المضاد جعلها تبدو كخليّة كبيرة في أقصى درجات نشاطها وإنتاجيتها. التلكسات والهواتف وحركة خروج ودخول المصوّرين، بعضهم كان يعود بجروح طفيفة تـزيد من جـوّ التحفز وعنـاصر الإدهـاش والمفاجأة، توافد أصدقاء الجريدة بحجة معرفة ما يجري وإجراء بعض الاتصالات. تعاضد وتآطر في حلقة رقص ضد الوحدة وضد كل ما هو خارج الجريدة أي نفاذ من الموت الذي يقع خارجاً، بل تنظيماً له وتعاطياً معه يمنح الشعور بأنك فوق منطقة نفوذه معزول ونقي و... قديس.

القصف العشوائي ليس عشوائياً تماماً.. يعرف الجميع أن الجريدة لن تُقصف لأن لكل عشوائية نظمها وقواعدها... والعاملون لا يتصرفون على أساس أن ذلك من البديهيات المعلنة بل يلتذون بتضمن هذه القاعدة فيغفلونها ويفتعلون تصرفات تقول إن الجريدة كذلك ممكن أن يطالها القصف العشوائي ولكن.. إنهم، هم، لا يأبهون فالمهمة أكبر وأكثر جدية من أن تهتم بنفسك كفرد أو كمؤسسة... المهمة أكبر بكثير...

هكذا كان يفكر خليل الذي علق في الجريدة، في مكتب نايف، وقد داهمه القصف.. كان يتفرج على ساحة العيد وكأنه، لألم كامن في معدته، خارج الساحة. كانوا يسجلون نسبة سقوط القذائف بالدقيقة وكأنهم يبتهجون كلما ارتفع الرقم... كانت حركتهم بين المكاتب شديدة النشاط والتحبب حتى الذين بينهم عداوات وحساسيات كانوا يتبادلون التربيت على الكتف والابتسامات... كأنهم كانوا يهنئون بعضهم، فالجريدة تعمل بإنتاجيتها القصوى والجميع يستحقون أكثر من رواتبهم،

ولوجودهم في هذا المكان يستحقون أقصى التقدير لولائهم ولمنسوب الصمود في الجريدة.

ذوو الرفعة والشأن والقرار غادروا مكاتبهم الإفرادية وعمّ التواضع والإخاء وتمّ تناسي الضغائن والالتفاف حول ما يشي بأهمية الرفاقية أمام طاولة مكتب فرشت على جرائدها بعض الأرغفة والجبن وأصابع الكفتة المشوية التي تدبرها أحد عاملي قسم التحقيقات المحليّة تأكيداً على نجاحه في مهنته بتدبر الحلول السريعة للمشاكل مهما صعبت واستحالت... كان ذلك يشعرهم بالشباب، شباب كانوا يودعونه في بحر التخليات الذكية الصغيرة التي كان جزء صغير من أوهامهم ما زال يحنّ إليها... يعودون شباباً وهم يأكلون بدون كلفة ويدخنون من علب السجائر التي غدت ملكية عامة للرفاق البائسين في شعر رؤوسهم الآخذ بالترمّد وأيديهم القابضة على هباء يشبه السلطة الصغيرة لمنتدبي ملوك الأحياء....

والصغار كانوا يجدون فرصة، في رفع الكلفة هذا، للتقرّب، وشدّ الصلات... والترقّي الآتي.

كل شيء كان متوفراً في الجريدة الأكثر أماناً من أي بيت... أحياناً كانوا يسترسلون في لعبة التضحية و «الصحافية» فيجرّون زميلاً أجنبياً من فندقه المضطرب إلى عرينهم، أو يبقون من دون نوم أو حلاقة أو اغتسال مع أن الكنبات والمياه متوفرة في المكاتب إمعاناً في التحسّب، حتى بعد توقّف القصف وانفتاح الطرقات إلى البيوت، يترددون في مغادرة مكان العيد كبعض الأطفال العنيدين الطمّاعين.

كل شيء كان متوفراً حتى النساء... نساء لا علاقة لهن مهنياً بالجريدة... فقط جئن لأنهن وحيدات، ليعلقن هناك، لأنهن استشعرن جوّ العيد واستشرفنه، وعرفن أن هذا الفوران والاحتدام والفرقعة سيجعل الشباب في أقصى درجة تحفزهم الشعوري وفي أدنى درجات تطلّبهم وتردّدهم.. كن واثقات لدرجةأنهن وجدن الوقت لإحضار عطورهن وأدوات الزينة والتبرج التي كن يستعملنها سراً كي يحافظن على عيار التلقائية «والوجودية» المطلوب. كي يتذرعن باحتمالية الموت العالية ليتخلصن من رواسب دروس الأمهات الأخلاقية ولكي يظهرن سعة قلوبهن في مثل تلك الظروف لاحتضان أحزان الشباب بزوال ثوابت حياة السلم المملة.. كن يحضّرن القهوة والشاي ويقدّمن سجائرهن ويأكلن مع الجميع... ثم يتمددن بإهمال متعمّد وتنح حزين في الزوايا المعتمة التي لا يصل إليها الضوء ولا الحركة العامة. وفي اليوم التالي كن يقرأن الجرائد، وهنّ لا يقرأنها عادة، بفرح من يعرف من المهنة أكثر مما يبدو عليه، ومن ساهم من زاوية خفية لكن ثابتة بتأريخ المجريات وبتحريك دفّة الحدث العام... ثم يجلسن على المكاتب يهززن أرجلهن بثقة من اكتسب أهمية خاصة بما هي غير معمّمة.. كالجندي الباسل الذي يقف وراء مجد الجنرال المنتصر.

كان خليل خرج إلى نايف لأن غرفته انقفلت دونه كدكّان فرغ من بضاعته أو كمخزن يستعد لتغيير الديكور والتحوّل إلى استثمار آخر. كانت الغرفة منطبقة على نفسها وكأن لا مكان لخليل ليضع رجله أو ليدس إبرة نظره.. حتى أنه قفل الباب

بالمفتاح حين خرج منها وكأنه مسافر لوقت طويل مع أنه لم يكن يعلم أين تتجه خطاه المتنزهة.. حتى وصل إلى بناية الجريدة وقال أمرّ على نايف.. وبقي في الجريدة ثلاثة أيام بلياليها، حاولت خلالها «سهيلة» الأقل حلاوة والأكثر حنواً على الصامتين القليلي الاحتفال، أن تمنحه دفء رفقتها واحتضانها لوحدته من قسوة الظروف ورائحة الموت المتجوّل. لكنها إزاء معاندته وخموله المغرور راحت تمر أمامه بصينية السندويشات لاهية عنه، ولا تقترب منه إلا عند فراغ الصينية وتقول: ياه... انت نسيناك....

توهّج ما قبل انطفاء العيد حدث فعلاً.. إحدى عاملات السنترال فقدت ابنها الصغير أثناء القصف... كانت ترفعه من غرفته الخطرة الموقع فأصابته الرصاصة على باب الغرفة. اتصلت هاتفياً بزميلتها في الجريدة وقالت بأنها تنوي الانتحار.. وانتحرت بعد دقائق.. كان اسمها عزّة.. وجّ اسم عزّة ثم حكايتها في الجريدة كشهب شديد الاحتراق والتنوير وملأت صورها وكلمات المودّعين المحزونين الغاضبين من المحررين مساحات من الصفحات كانت ستكون مطفأة وغير مثيرة وبلا طعم جديد، لولا فاصل عزّة وطفلها البريئين...

لكن لكل عيد نهاية... انكشحت غيمة القصف عن المدينة واعترت الجريدة شمس العطل الحزينة.. غادرت سهيلة ورفيقاتها.. وخرج العاملون من المبنى ونشط عمال التنظيفات لكنس الغرف والمماشي من فتات الصخب الذي انقضى.. لا يعرف خليل لماذا تلكأ في مغادرة الجريدة حتّى ذلك الوقت.. كأنما أراد أن يتأكد تماماً ممّا رآه خلال الأيام الثلاثة

الماضية.. ولا تتأكد من وجود الشيء إلّا حين ترى شكل انقضائه وفواته.

ربما سيمتد العيد قليلاً في حثالته بالنسبة للآخرين.. سوف يخرجون إلى أمكنة يُسألون فيها عن كيف جرى ذلك وإذن سيستعيدون بالسرد والتذكر قليلاً من البهجة التي انقضت وسيزدادون بذلك شعوراً بفائدتهم أمام نسائهم وأهلهم والجيران، ستتسع الدائرة التي يصل إليها إشعاعهم.. ليست أشياؤهم مبتورة كأشياء خليل الوحيد.

خرج خليل من المبنى وراح يمشي باتجاه غرفته... في الطريق قليلون هم المحظوظون الذين كانوا يكنسون الزجاج... أكثر الناس كانوا خارج البيوت ينظرون إليها وهم في الشوارع.. أكثرهم كان صامتاً، واجماً ينظر بتفحّص ولكن دونما استغراب وقد رفع البعض أكفهم فوق عيونهم يدارون أشعة الشمس.. امرأة مشعّثة الشعر حافية القدمين كانت تبكي بصوت مسموع وهي تدل على بيتها في طابق مرتفع، لم يلق أحد إليها بالاً.. فقط ولد بقربها كان ينظر حيث كانت تشير.. ربما هو ابنها فكّر خليل...

تابع خليل سيره البطيء.. بوق سيارة الاسعاف كان الصوت الوحيد الذي يشق بين حين وآخر صمت الشارع حيث يمرّ... بعض الذين كانوا يتابعون مرور سيارة الاسعاف، كانت أفواههم تنفتح عمّا يشبه الابتسامة الفاغرة. كأنهم كانوا يرددون: لسنا فيها... لسنا فيها.. لسنا فيها...

لم يتوقف القصف سوى منذ.. ساعات، لذا تعجّب خليل

كثيراً حين رأى على حيطان الأبنية المتلاصقة صور الفتيان الجدد... كيف تسنّى لهم الوقت ليحضّروا الملصقات والصور ويوزّعوها على الجدران... الصور ربما ألصقت على رسوم أفيشات جاهزة مسبقاً في مكاتب الأحزاب والتنظيمات.. وطبعها وسحبها يتم في مطابع تحت الأرض، كالملاجىء، أي في أماكن آمنة. من التعرّف على الجثة إلى الملصق رأساً، وكأن لا وقت للتضييع.. تصنيع يتم سريعاً للفوز بأكثر الحيطان استراتيجية وبأكثر الزوايا انكشافاً على مرأى الشوارع...

كانت رؤوسهم الطازجة الخارجة من الحيطان ما زالت تشبه تماماً تلك التي ووريت الثرى أو هي في طريقها إليه.. لم يفعل الموت فعله بعد.. ما زال وجهه الأصلي حياً لذا فصورته تكاد تنطق، إذ لم تستوِ بعد مسافة الزمن في رفعه إلى عالم الشهداء العلوي...

في السابق الصورة كانت للتخليد أي لتشجيع الفتيان على الموت.. لمسرحة خروجهم من العالم بشكل يليق أن يتذكره الآخرون باحترام وأن تتذكره المدينة الحيّة كقصاص وتأنيب ضمير وأن تهرع للانضمام إلى الفكرة التي من أجلها ذهب وبقيت الصورة. لكن الإيقاع المتسارع صار سريعاً لدرجة أن الصورة لا تمكث بقدر ما يليق من الأيام وإذن من المشاهدين المعتبرين، إذ تأتي بعد وقت قصير صورة أخرى فوقها وفوق التي فوقها... لم هذا الإصرار على السرعة إذن وعلى احتلال الأمكنة الأهم.. تساءل خليل.. ذلك ربما لأنهم ما عادوا يلصقونها ليراها الناس المتقاعسين البليدي الأذهان المنطفئي الحميّة... بل لكي يتنافسوا فيما بينهم على من أكثر عدداً

خاصتنا أم خاصتكم؟! من أجمل وأحسن موقعاً في الشارع، فتياننا أم فتيانكم أي من أكثر نفوذاً وسيطرة على المكان فكرة شهدائنا أم فكرة شهدائكم؟ يعني بصريح العبارة من أدهى وأقوى زعيم طائفتنا أم زعيم طائفتكم وبالتالي من له المدينة أو مشروع المدينة بأسرها نحن أم أنتم؟..

مجمل الأحزاب والتنظيمات كانت، في المواسم، تحضر قوائم بأسماء شهدائها على ورق البرامج التي تشبه في إخراجها إلى حد بعيد صور الشركات السياحية ومنشورات الفنادق، وتنتشر على خارطة بيروت أو خارطة لبنان مشاعل أو قبضات مقفلة أو شقائق نعمان هي أرواح الشهداء، أو شموساً أو نجوماً تزين بها صدر الحزب أو التنظيم، مع ما يتناسب من شعر الشعراء الملتزمين تباعاً.. ثم هبطت الليرة وارتفع الدولار وصاروا يستضيعون ثمن الورق ويضحّون به لأسعار الذخيرة والسلاح الأكثر فعالية... كذلك أصبحت تكلفة الشباب باهظة إذ اضطروا لرفع أجورهم وكذلك لرفع تعويضات الشهداء، كل فريق يخاف أن يسبقه الفريق الآخر إلى تلك الزيادات فتنضرب السوق لكن الأمور استقرت على ما يشبه توحيد الأسعار وإن لم يخلُ الأمر من بعض الاستثناءات إذ راحت بعض المكاتب تدفع بالدولار لتنفخ في شهدائها القادمين بعض الشعور بالاستقرار إزاء تقلبات الحياة القاسية.

دلف خليل إلى الشارع المؤدي إلى بيته فصار ضجيج الأفكار في رأسه يخف ويخبو.

تردد قليلاً ثم تساءل... إلى أين؟... لا بد من العودة... إذ

كانت رؤية نافذته العوراء من بعيد، أقل مثاراً للفزع من الأرواح العالقة في ليمبوس الشارع.

* * *

كان خليل يمشي قليلاً في الشارع وقليلاً في الليمبوس. ومع انه كان يعرف أنه قطعاً من الأحياء، إلّا أن ذبذبات ذلك المكان كانت تنجح في مغنطة رأسه المنهك لطول السهر، إليها. ذبذبات تقوى لدرجة يشعر فيها خليل كشعور الحالم وهو يكاد يهوي من مكان عال. ثم يهوي فيطير.. ويطير خليل مجدداً من الوقوع في الشارع. حين يدق خوف كهذا رأسه. كان خليل يتعمد استعمال عقله الضابط على شكل لعبة. يروح يردد بصوت داخلي شديد النبرة، حازم، أفكاراً صغيرة متسارعة كما في التمثيليات الإذاعية... كأن يقول: هذا هراء.. هذا هراء... أوراق ملصقة على الحائط.... و.. خطوات قليلة وأصل... و.. الشمس رائعة الإشراق هذا الصباح... وقد لا يوفّق أحياناً بقفلة الجملة الأخيرة... كأن تعلق كلمة «هذا الصباح» وتروح تتكرر لوحدها دون قصد منه.. تظل تتكرر حتى تفلت تماماً من عقلة العقل وتطيح به إلى ضده...

«هذا الصباح»، الأولى تبدأ مشعّة ذهبية... «هذا الصباح» الثانية تقترب أكثر من الصباح الفعلي الذي يمر فيه خليل وتصير مضيئة فاتحة... «هذا الصباح» التاليات يدخلن صباح الشارع ثم يستغرقن في كحلي ليلي داكن كصداع خفيف... أما الأخيرات فيفقعن بين رجليه كبالون مليء بمياه فاسدة ويطرشن الصباح بلونه الحقيقي لون اللمبوس...

اللمبوس هو مكان... يقف في هذا المكان الموتى حال

مغادرتهم أجسادهم... فيه فقط يفعلون شيئاً واحداً كئيباً ومقطوعاً هو الانتظار.. في اللمبوس ينتظر الموتى أن يأتيهم الحكم... أن يظهر لهم نور أو ملاك أو إله ليحكم عليهم بالجنة أو بالنار..، لكن الانتظار الذي هنا غير الانتظار الذي هناك. الذي هناك يفتقد للمقاييس التي تعودناها ... لا ننتظر حسب الساعة أو حسب دورة الليل والنهار أو حسب الأقمار المتعاقبة أو المد والجزر إذ بهذه المقاييس نتسلى ونعبىء الانتظار.. هناك ينتظر الموتى بلا أدوات وبلا شكل للانتظار.. نحن هنا ننتظر واقفين أمام باب الفرن مثلاً ونتمثل الرغيف ونستطعمه لكن هناك لا أجساد للوقوف أو للقعود... والبؤس الحقيقي إذاك هو أن خسارة الجسد لا تكون بعد كاملة لأنه لم يمت... يكون بعد يتنفس... لو أحكمت كيساً بلاستيكياً عليه لأغشت جوانب الكيس صفحات من بخار تشبه أن يتنفس ذلك اللحم دون أن يتنفس صاحبه... الموتى في اللمبوس تعذبهم ذكرى أجسادهم المعلقة الآن على حيطان الشارع، فهم لم يستفيدوا بعد من الوقت المنتقل ولم يتعلموا تجربة الاستمرار بلا هذه الأجساد... فيما هذه الأجساد قد بدأت حياة أخرى مستقلة تماماً عن تلك التي تهدأ في القبور وتستقر وتتهيأ للاقتناع والاستسلام والهدأة الأخيرة... حياة ثانية لأجسادهم تبدأ في الصورة، فتقلق جسد القبر وتقلق روح اللمبوس وتشوش الانتظار هناك... نظرات الشارع وحركاته وبعض ضجيجه تجعل الأرواح تسترجع محطات القطارات وتسترجع هذا الشكل المذل من الانتظار إذ اليقين نهائي وقاطع بأن ما من قطار سيجيء... وشكل الانتظار هذا لا يلائم الموتى مطلقاً، وهو يعذبهم... فقط من يهنأ من تلك الأرواح هي أرواح الأطفال

الصغار جداً والرضّع الذين لم تعبأ حياتهم بما يستدعي حكم الله عليها وهم، وهنا تكمن سعادتهم ويكمن هناؤهم، لا ذاكرة قطارات لديهم، وإذن لا صور لهم، تقض قبورهم، في الشوارع...

وكان خليل وصل إلى غرفته...

* * *

بدت الغرفة وكأن سنوات انقضت عليها في فراغها... كان للغرفة هيئة شريرة... شريرة قال خليل. كأن غرفة أخرى أكلت الأولى، افترستها كما في ليلى والذئب، واتخذت هيأتها وجلست مكانها تمثل الألفة والمعرفة القديمة إذ ما من غرض تغيّر أو غيّر من مكانه... تناهى إلى سمع خليل الشكّاك أصوات متنافرة اتخذها حجّة، وقال: ما هذا؟!... أقف قليلاً في مدخل البناية، أرى ما الأمر ثم أعود... وكأنه يقول: امنح غرفتي فرصة أن تعود إلى نفسها...

ذلك كان زعيق صبية وفتيان يتقدمهم بعض الملتحين من الشبان الصغار في مظاهرة. كانت مظاهرة صباحيّة مغامرة.. كأنما خانها من وعد أن يمشي فاقتصرت على من حضر من صبية متبطلين، عطلت لعبهم المساحات التي راحت تضيق بالركام الملقى من الأبنية وبالزبالة التي مكثت في البيوت أكثر مما يجب.

الصفّان الأولان على توزعهما وارتباكهما كانا الأكثر تماسكاً.. خلفهما بقليل، الأصغر سناً، كانوا يسيرون كأن أفقياً لشدة ما كانوا ينظرون إلى جانبي الطريق، ويتطلعون إلى

الشرفات... بعضهم كان يصادف أصدقاء له فيدعوهم للالتحاق بجدية مشوبة ببعض وعود المرح وكأن مشروعاً أكثر مدعاة للهو سيقوم بعد انقضاء المظاهرة... بعضهم الآخر كان بين الحين والآخر يعقد الحاجبين ويلكز رفيقاً لاهياً عن ترديد الشعارات حين كان أحد السائرين في الصفين الأماميين يترك مكانه إلى الوسط ليرص الصفوف ويحشد الأصوات فيغضب وينتهر لكنه لا يجازف بإكمال تقدمه نحو الصفوف الخلفية... الصفوف الخلفية لم تكن من الاصطفاف في شيء... حتى الشعارات لم تكن تصلها بالمرّة... من الأولاد من كان يسير خلفياً.. منهم من كان يداعب رفيقه بخشونة لا تليق أبداً بالظرف إذ كان الواحد منهم يلبث في مكانه قليلاً... يترك المظاهرة تسير ثم يركض ليقفز على ظهر رفيقه فيوقعه أرضاً.. كانوا يخففون من مرحهم الصاخب حين تأتيهم إشارة من صفوف الوسط والإشارة تكون بانتظام جاد لتلك الصفوف، وكأنهم يستشعرون منهم اقتراب أحد المنظمين من مشاة الصفين الأولين.

والحقيقة أن المتظاهرين لم يكونوا يلقون الدعم الذي يساهم كثيراً في انتظام المظاهرات، ذلك الدعم الذي يأتي عادة من مشاهدي الشرفات، ومن أصحاب المحال الذين يقفلون أبواب محالهم ومن النسوة الواجمات على الطريق.. حتى أنه يسهل القول أن تلك المظاهرة لم تكن تعاني فقط من غياب كل دعم بل كانت تتعرض لما يشبه التخريب حين كانت تعمد أُم عن شرفة أو في دكان إلى نهر ابنها واستدعائه بعصبية لا تدارى، إلى مساعدتها في بعض الأمور...

هذه مظاهرة ضد إسرائيل قال أبو أحمد لخليل في مدخل البناية.. كيف حالك يا ابني الحمد لله على السلامة... هذه مظاهرة ضد إسرائيل.. كرر وهو ينفض التراية البيضاء عن ساعديه... بقيت أخور كالثور طيلة ثمانٍ وأربعين ساعة حين خسرنا الحرب وخطب عبد الناصر. بقي صوتي مبحوحاً وعيناي جاحظتين لمدة شهر.. واعتقدت، لا تؤاخذني، بأنني لن أسترد رجولتي أبداً... هذه مظاهرة ضد إسرائيل... لا أحد من هؤلاء الصبية وطأ الأرض التي تتعرّض للإنزال...

خرج أبو أحمد إلى رصيف الشارع ونادى صبيين من مؤخرة المظاهرة... ساعداني وخذا خمسماية ليرة... كرج وراءه الولدان فالتفت ناحية خليل وقال بما يشبه التأنيب.. حمداً لله أن العائلة في الجنوب... الشقة مثل الكوساية الفارغة... دخل الصاروخ ولفلفها. سأحاول فقط أن أعالج الباب الخارجي.. وأقفله...

استدار أبو أحمد جهة الدرج وراح يصعد منتصب القامة وهو يلاطف الولدين فاستبانت لخليل عضلات ساقيه الشديدتي البروز تحت كلسونه الأبيض... أبو أحمد لم يكن يخرج من بيته، ولو إلى الدكان القريب، إلّا بكامل أناقة زيّه الرمادي.. كان عريفاً في الدّرك الذي ما زال يسميه «الجندرمة».. أزراره وبكله وحذاؤه لم تكن تشوب لمعانها شائبة. وكذلك تماسك تسريحة شعره المدهون بالزيت. خليل لا يخطىء أبداً وقع قدميه في مدخل البناية. ذلك الإيقاع الحاسم الذي كان يرسم للتوّ في ذهن خليل ضمور الخصر واستقامة الكتفين العريضين، فيتذكر رائحة ماء الكولونيا ١١٤ القديمة الشديدة

الإيحاء بالنظافة وبياض الجلد والتي يتركها أبو أحمد دائماً وراءه في مدخل البناية.

* * *

لم تسترد الغرفة ملامحها الأولى رغم الجهد الذي بذله خليل في تنظيفها وإعادة ترتيبها بغية القبض عليها من جديد.. روح ما كأن استلبستها بعد أن تسللت ربما من النافذة المكسورة...

لكن خليل بدّل زجاجها ولمّعه، وأدار الراديو وهو يقوم بالتنظيف وغسل شراشفه ليوحي لنفسه بشيء من طمأنينة العادة.. كل ذلك لم يكن ليشعره بالاستتباب... ظلّ فيها هذا الشيء الشرير الذي أحس به خليل لحظة دخوله إليها منذ أيام... رآها تخرج من مكانها وكأن تريد اللحاق بالشارع أو بالشقق المضروبة التي لا تعود... كأن انفصمت عنه وسحبت منه ملكيتها أو كأن اختنقت روحها الطيبة تحت ركام أخواتها الذي لم يصلها، فاستفاقت روحها الشريرة التي تسرح وتمرح الآن في أبنية الشارع... كأن غلبت أرواح الشقق الشريرة على أرواح الشقق الطيبة واحتلت جميع الأمكنة.. وكأن حرب أرواح الشقق كانت تدور مع حرب المسلّحين في الطرقات.

أقلق هذا الهاجس خليل قلقاً حقيقياً... ما كان ينام ملء جفونه. حتى أنه اشترى قماشاً كحلياً داكناً.. جعل طية على طول عرضه وأخاطها بخيط متين ثم أدخل الطيّة سلكاً معدنياً لفّه من طرفيه على مسمارين عند حدّي النافذة. سحب ستارته فاختفى الشارع عن عينيه.. صار حاجزاً حقيقياً قال خليل

ووعد نفسه بنوم هانىء لكنه استفاق بعد ساعات قليلة ولم يعرف كيف يمضي الوقت حتى طلوع الصباح...

- ٦ ———

كل ما فعله خليل طيلة الشهر الفائت لم يكن سوى إغماءات متتالية، أي سوى محاولات مشوشة لكن مثابرة لنسيان مقتل ناجي ولمحاولة الهرب من عيد الخبر الأسود كأن خليل فرز جزءاً من نفسه، عزله تماماً، وساق الأجزاء الباقية لتستقوي عليه استنفرها جميعها لتتجاهله، لترجئه.. ربما لتجهّز له مكاناً.. لترسم له دوائر المرمى الفاقعة الألوان حيث لا بد سينفجر...

كأن نسيان خليل المتعمّد هذا كان يلقى استجابة من جسده الذي كان يعلم بأنه لن يطيق.. كان جسده يخضع لهذا التحضير إذ ازدادت شهية خليل في الآونة الأخيرة، وكأن هو يردّ ذلك إلى سهره الطويل وساعات أرقه بانتظار الصباح.. ولم يكن ذلك الأرق يجهده كثيراً حتى يضعف جسده لأنه أرق بارد ولطيف لا ترافقه الهواجس المزعجة أو الصور المعذبة إلا اللهم ما تعلّق منها بروح الغرفة وبحركة جرذان وقطط الشوارع الأكثر إثارة للتسلية منها للاجتهاد.. غير ذلك كان الوقت يمر مسالماً على بطئه، يقضيه خليل في النظر إلى سقف الغرفة، أو في القراءة في كتب تؤاخي الروح ولا تستفزّها، أو في شرب الشاي والاستماع إلى الراديو.

حين كانت تمطر كان خليل يدلف تحت أغطية سريره بما يشبه المتعة الحقيقية. ويخيل إليه أن الليل الماطر هو ليل

تخف خطاه وتتطاير ساعاته كنوطات الميلوديات القديمة الساذجة...

* * *

تعجّب خليل من طول زيارة نايف.. وراح يتساءل عمّا يبقيه حتى هذه الساعة المتأخرة وهو الكثير المشاغل الذي لم يزره منذ سنين..

فجأة قال نايف بعد أن فرغ الكلام مرات عديدة وكأنما قد حان وقت الاعتراضات. هل أستطيع أن أقضي الليلة عندك.. لا أريد العودة إلى البيت.. ولا أريد أن يعلم أحد بذلك..

هذا هو السبب ـ فكّر خليل ـ ما كان عليه أن يتكلم إلى هذا الحدّ كان يستطيع أن يطلب إليّ ذلك مباشرة.. إنه لا يدري بأنني اقبل الّا أحضر في ذهنه إلا حين يحتاج إليّ... ربما فكر نايف أنه ينبغي عليّ الآن أن أفرح إذ تعمّد أن يوحي لي بأنني الوحيد الذي يحوز ثقته في المسائل الشخصية...

ابتسم خليل لنايف ابتسامة عريضة يشكره فيها على ثقته وسأله ما إذا كان جائعاً. قال نايف إنه يكاد يموت جوعاً... لتوطيد جوّ الثقة بيننا، فكّر خليل... ولأنه لم يقتنع بدرجة الجوع المعلنة لم يفتح علبة جبن جديدة واكتفى بقلي ثلاث بيضات.

قام نايف يساعده لمزيد من الاحتفال بجوّ الصداقة. تركه خليل يفعل... راح نايف يسخّن أرغفة الخبز على الغاز ويقطّع البندورة والبصل.. كان يفعل ذلك وهو يحسد خليل بصوت

مرتفع على حياة العزوبية التي توفر للشاب حريّة أن يفعل ما يشاء ساعة يشاء...

لكن نايف راح وهو يأكل، مصطنعاً الخفّة، يدور حول موضوع «كلود» مقترباً بحذر من سبّب مبيته عند خليل... وكأن جوّ الإلفة هذا كان يحتّم عليه التحدث في الموضوع... يعتقد أنه واجب عليه ـ فكر خليل ـ هذا الرجل مشغول دائماً بأشياء كثيرة قليلة الأهمية، ودفعة واحدة... دائماً يبدو كمن يحمل عشر بطيخات في يد واحدة. وواتاه ما يشبه الشفقة على نايف المسترسل في التخبيص في الوحول المحيطة باعترافاته عن النساء والرجال والزواج والمؤسسة والحرية....

أراد خليل بجد أن يعفيه من كل هذا الجهد فسأله عن الجريدة.. كرر نايف دعوة خليل للعمل فيها ثم سأله عما يقرأ هذه الأيام.. إنه يميل بي الآن إلى أرضيّتي يمتدحني بإظهار إيمانه بي كمثقف كثير المطالعة يستفاد من الحديث معه عن مجال اختصاصه.. ولا بد يأسف لأنني عاطل عن العمل، وقد يعرض عليّ بعض المال، غداً صباحاً قبل أن يغادر...

وقف خليل ينظر في أرجاء الغرفة بشكل ظاهر تحضراً للنوم.. قال لنايف تنام على سريري وأنا أنام على البطانيات في الأرض وهو يعلم أن نايف سيستنكر الأمر.. قال نايف بل أنا أنام على البطانيات فلم يعارض خليل وقال حسناً كما تريد..

ستف نايف البطانيات في الأرض وفرد عليها الشرشف وراح يخلع ثيابه.. شعر خليل بالحرج حين جلس نايف قبالته بكلسونه القصير الضيق وراح يدخن..

قال نايف.. لماذا لا تحضر فراشاً من شقة صديقك فوق... ناجي.. ألست تملك مفتاح الشقة؟ شعر خليل بانقباض حاد في معدته وعرف من البرودة المفاجئة أن الدم قد انسحب من رأسه وأنه الآن شاحب كالموتى.. وتمنى لو يختفي نايف حالاً. قام من سريره.. سأطفىء الضوء قال ثم انقطعت الكهرباء قبل أن يصل إلى الزر.. تنفس خليل الصعداء لكن نايف طلب شمعة، وعلى ضوء قدّاحته وجد الشمعة على طاولة الغاز فأشعلها وألصق قاعدتها وسط منفضة السجائر...

لن ينام ـ فكّر خليل ـ وهو كذلك يريد.. أن يتكلّم..

أعرف أنه كان صديقك.. صديق حميم.. أفهم حزنك عليه ووحشتك دونه.. ولكن من منا لم يفقد شخصاً عزيزاً في هذه الحرب اللعينة.. منذ الحادثة وأنت.. لا أحد يراك.. أعني مكوثك هذا في البيت، درجة استنكافك عن الخروج.. إنني أشعر بك.. هذا لا ينفع يا خليل... لقد قضى الرجل...

لم يكن خليل يعرف أن بإمكان نايف الودود الطيب أن يكون على هذه الدرجة من العدوانية والتفاهة وبسماكة الاحساس... خيّل إليه أن نايف صار من قماشة الغرفة الشريرة، وأنه هو خليل ضيف غريب عليهما.. كأولئك الضيوف من المسـافرين الغرباء الذين كانوا قديماً يدخلون بيتاً ممنوع أن يتوجس مُنهم أصحابه لكثرة ما حشت رؤوسهم قيم الضيافة.. يقدم أهل البيت المأكل والمأوى والكلام الطيب فقط من أجل وعد يحمله أولئك المسافرون بحكايات مسلية وخرافات من بلاد بعيدة يدّعونها، تفتح سقف الليل الثقيل... لكن خليل ضيف متهم بإقامته وقلة وعوده...

لذا يتابع نايف..
- أعرف كم أن الأمر صعب.

ليس ضوء الشمعة بالخفوت الذي يدّعيه ولا بد نايف يرى شحوب وجهي.. ويزداد متعة بإحساسه بفائدته وبضرورته.. يرى نفسه كجرّاح لحظة نزف قوي..

- أعرف كم أن الأمر صعب خاصة عندما نفقد شخصاً بريئاً... المهم نعتقد أنه بريء.. ما يجعل خسارتنا صعبة هو أننا لا نكف عن التفكير ببراءته... ما دخله نقول.. لا نقبل بسهولة موت الضحية... لذا في القديم، وربما ما زالوا، في ضيعتي مثلاً، لا يقبلون موت من يعتبرونه ضحية إلا إذا أخذوا بثأره. أي إلا إذا جعلوا الآخرين يشعرون بفداحة الخسارة... لذا مثلاً لا يقتلون القاتل... يقتلون قريباً له... يغضون الطرف عن القاتل الهارب ويختارون بريئاً، ضحية كضحيتهم.

إنه يختارني لمثل هذه التحليلات المعقّدة... يحاكيني في نشاطي الذهني الذي يتصوره لي... كم هو سعيد.. وسيستغرق حتماً...

- لا يزورون قبره.. لا يرفعون من البيت ثيابه المدماة، لا يحلقون ذقونهم. لا يسيرون في الطرقات ولا يستقبلون المعزين إلا بعد ان يأخذوا بثأره... بعدها يموت الميت فيصبح الحداد عليه شرعياً...

ولكن... إلى أي درجة يكون البريء بريئاً بالفعل.. أحياناً نزرع في رأسنا أوهاماً لحاجتنا لتلك الأوهام.. لكن يا خليل اسمعني جيداً.. أنت صديق ناجي وتعرفه حق المعرفة ولكن لا

تتأكد كثيراً من كونه ضحية... من كونه لا دخل له بشيء... ألم تسأل نفسك يوماً لماذا قتلوه، أي لماذا اختاروه دون غيره؟ ألم تتساءل مثلاً لماذا كانت مشاويره كثيرة إلى هذه الدرجة بين المنطقتين... كثيرون غيره يعبرون يومياً من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا.. يقيمون في منطقة ويعملـون في المنطقة الثانية... كثيرون هم المسيحيون الذين لم يتركوا المنطقة وأكثر منهم من لم يتوقف يوماً عن المجيء إلى هنا... لماذا ناجي؟ هه؟ لماذا ناجي...

رأى خليل ناجي يرفع ياقة سترته ويتطلع إلى السماء تمطر رذاذاً خفيفاً، ثم يندم لأنه لم يأخذ المظلّة من يد الست إيزابيل.. يسرع قليلاً في خطوه، فالمسافة المفـزّعة بين الحاجزين المتقابلين طويلة نوعاً ما ولو غزر المطر سيبتل السائرون تماماً إذ لا سقف ولا حتى شجرة وارفة تقيهم زخّاته القوية.. يرى خليل السائرين يرفعون أكياسهم البلاستيكية أو صناديقهم الكرتونية إلى رؤوسهم ومنهم من بدأ بالركض.. لكن ناجي لا يخاف البلل إلى هذه الدرجة.. يحمل ناجي صبياً يتعثر بالركض وراء أمه ويوسع من خُطواته السريعة ويبتسم لها، فتعلّق على سوء الطقس.

ـ اسمعني خليل.. ناجي كان عميلاً.. أنا أعرف.. لم ينفع معه التحذير، ولا حتى التهديد.. كان يأتي كثيراً... أحياناً لم يكن يمرّ بك.. أنا أعرف.. كان ينقل معلومات مهمة أضرّت بالجماعة هنا... ثم لم يكن يقف عند حد.. يهددهم بمخطوفيهم هناك. عشرون سيقطعون إرباً إن مسستم شعرة من رأسي.. ثم كانوا يتركونه يذهب على ألا يعود... في الفترة الأخيرة، هذا لم

يثبت على أي حال، شك الجماعة في كونه هو الذي فخخ سيارة «الطريق الجديدة»، وكان لا بد من.. إزاحته.

* * * *

في اليوم التالي استيقظ خليل قرابة الظهر... كان نام نوماً عميقاً، وهادئاً كطفل. قام يحس بنشاط جميل كان افتقده منذ صباحات كثيرة.. راح يرتب غرفته فرفع البطانيات إلى سريره بعد أن سوّى الشراشف.. ثم جمع الأواني في المجلى.. فوجيء بالمياه تتدفق غزيرة من الحنفية.. جمع غسيله ونقعه في السطل الكبير وراح ينظف الحمام الذي كان نايف قلبه رأساً على عقب.. على حافة المرآة الصغيرة التي تعلو المغسلة، وجد ثلاثة آلاف ليرة ـ كما توقع ـ دسها في جيب سترة بيجامته وتابع عمله.. خرج من الحمام وسحب ستارة النافذة فطجّت الشمس على أرض الغرفة كطابة مثقوبة.

دقّ حصّين ثوم، عصر فوقهما ليمونة حامضة ثم فتح علبة فول مدمّس: سخنها قليلاً ودلقها في الصحن.. قطع رأس البندورة الأحمر.. رشّ عليه بعض الملح. فتح آخر مرطبان مخلّل الخيار.. سحب خيارة وضعها في صحن صغير.. وقال نسيت الزيتون يتوجب أن أغيّر ماءه الذي تعفّن لأني لم أستعمل الملح الخشن... قعد خليل يأكل ويرقب النافذة.. أدار الراديو وسمع الأخبار.. رفع الأطباق إلى المجلى وملأ ركوة القهوة بالماء... أقفل الحنفية وراح يتقيأ بقوة كمن يريد إخراج أمعائه من فمه...

* * *

أول مرة رأيت فيها نايف في باحة الكليّة لم أستطع أن أرفع

نظري عنه.. كان شديد الخجل، مثلي.. ومثلي يفتعل عدم الاهتمام واللامبالاة.. ما كان يميّزه بشدة هو ياقة قميصه الأبيض ذي الأكمام القصيرة المقصوصة في البيت لتلائم الفصل الذي كان ما زال حاراً في بداية الخريف. ياقة القميص كانت أصغر من الياقات الكبيرة الدارجة آنذاك... وكانت على غير ما يتوقع بالمرة، مزرّرة!! كان الشباب يفتحون قمصانهم الملونة المشجرة حتى معدهم العارية. وهو كانت ياقته البيضاء الصغيرة مزررة.. بنطلونه كان أسود واسع الساقين... كان يبدو كمن طرد لتوه من حفلة بعد أن جرده أهل المكان من نصف ثيابه وألقوه خارجاً لعدم لياقته بالمقام... مراقبتي له أخرجتني قليلاً من عزلتي وأحببته حين راح يتمرن على دور اللامستغرب وهو يراقب دون مداراة سيقان الفتيات المكشوفة ويبتسم.

بعد أن صرنا أصحاباً دعاني إلى بيته في «المصيطبة» وتغديت عنده وتعرفت إلى أهله. كانت أمه امرأة سمينة مرحة وسريعة الغضب وتسبّ وتشتم بالألفاظ الكبيرة على أنها لغة كل يوم.. كان هو يجيبها بتلك اللغة نفسها دون حرج. يشتم أمه ويصرخ صافقاً الباب وراءه تاركاً إياي، دون حرج، أغرق في ارتباك لم أكن صادفته في حياتي... جلست قبالتي هادئة تماماً، تسألني عن أهلي... ثم ما لبث نايف أن عاد يدفع أمامه كرسياً بعجلات فيه شاب مقعد يقدمه لي على أنه صديقه الحميم: نسيب...

فيما بعد صار نسيب صاحبنا.. له مواعيده المقدسة، نأخذه إلى المطعم القريب أو إلى السينما.. واحد يحمله والآخر يتكفل

أمر الكرسي.. نلعب معه الشطرنج وأحياناً نشرب القهوة ونداعب أخته الخياطة العانس... نخبرها النكات وهي تحضر لنا عرائس الجبنة المسخَّنة.. كان نايف، حين يريد أن يعاقب أمه، يستدين من نسيب.. كان نسيب ينقدنا ليرات مطوية بعناية من محفظة جلدية مهترئة الأطراف.. عدا محفظته كان كل شيء يقتنيه يبدو جديداً وكأنه اشتراه لتوّه.. بيت نايف كان صغيراً جداً، وممتلئاً دائماً بضيوف أقرباء قادمين من القرية البعيدة، لذا كان كثيراً ما ينام عند نسيب....

جاء مرة مهموماً جداً وعند سؤالي قال بحزن بليغ: ما هو مستقبل نسيب؟ شاب في مثل ذكائه... أفرض أخته ماتت ذات يوم.. ما من فتاة ترضى به. إنه مشلول تعرف ماذا أعني... ولا أية فتاة مهما كانت بشعة وعجوز.. إذا لم تعط المرأة ما يشبع نصفها السفلي فهي لن ترضى بك.... الأمور الأخرى لا تهمها.. أتعرف أن نسيب يفهم بالموسيقى؟.. إنه فنان وحسّاس.. ماذا تعتقد؟ حياته... قاسية.

قلت لنايف.. نحن نبقى لنسيب.. أنا وأنت لن نتركه... وسرعان ما عاد المرح إلى وجهه.. همّ ثقيل وأنزلته عن ظهره. قال: طبعاً يا رجل...

بعد أن أنتسب نايف للحزب خفت معاشرته للشباب. صار لا يمكث معهم طوال الوقت.. لعل سخرية حمزة النافرة هي أكثر ما كان يخشاه ولو بدا متساهلاً ودوداً...

بعد فترة صار يغيب عن المحاضرات، وعن الكلية... وبعد فترة صار يسلّم على الشباب باليد، كالرجال.. ويقنّن مزاحه

معهم. صار أكثر انتباهاً إلى لباسه، وإلى البنات وصار يسقط في امتحانات آخر السنة، وينظر بما يشبه الاحتقار إلى الناجحين... أكثر لقاءاته صارت تنحصر بالطلاب الجدد، والفتيات الجدد... ثم أطلق لحيته، وصار يمشي في المظاهرات وبعدها انتقل إلى الصف الأمامي يشبك ذراعيه بذراعي رجال أكبر منه سناً.. وكان يتأبط مجلات سميكة وكتباً كان حمزه يقسم بأنه لا يقرأ منها حرفاً... لم يعد يدعوني للذهاب إلى نسيب...

وبقيت أحب نايف... كثيراً.

* * *

ـ لماذا تقيم يا نايف في هذه المنطقة وأنت مسيحي؟

ـ لأن الولاء لا يكون للطائفة التي ولدت في عدادها.

ـ ألا يكون لنضالك طعم أقوى وفائدة أكبر في المنطقة الأخرى حيث التجهيل والتضليل والتعبئة الطائفية لا تترك موضعاً لثقب إبرة؟.

ـ هناك يقتلونني ولا أفيد بشيء.. لا تستطيع أن تقاوم درجة الإرهاب التي يمارسونها.

ـ تتكلم وكأنك ستكون لوحدك مع أنك غالباً ما تردد أن المسيحيين الذين اختاروا العيش هنا كثيرون.

ـ ليست النسبة كافية للمقاومة.

ـ لكنها تكفي لمقاومة وحش كإسرائيل

ـ إنها حرب أهلية وأنا لا أقتل أهل بلدي كما قد أقتل الإسرائيليين. أنا لا أريد إلغاءهم

ـ لكن لحزبك مواقع تشترك في القصف العشوائي

- نرد بالمثل لنسكتهم.. هنا وجودي يؤكد على الجوّ الديمقراطي الذي يستطيع حزبي فيه أن يعبّر

- هل استطاعة التعبير ضرورة؟.. والنضال السري؟

- وكأنك تريد أن تقسّم حسب المنطق الطائفي: مناضلو هنا لهنا ومناضلو هناك لهناك.. أعني إلى بلدين.

- لكن واقع ما يجري هو الذي يقول: إلى بلدين

- لا، أنا مسيحي وأبقى هنا. أسجل موقف اعتراض

- لتكتسب أهمية وتجذب دائرة الضوء وتعامل كالبطل وتعلّق صورة لضيعتك في صالون بيتك وتقف أمام الضيوف تحن إلى مكان ممنوع عليك

- لا. أنا أرفض الفرز الطائفي مهما كان السبب. أكون مع خياري العقائدي مهما كان الثمن.

- الثمن الذي دفعه أخوك الأصغر الذي ترك الجيش لكثرة ما رددت له أن على الجيش أن يذهب إلى الصرفند حيث اعتدى الإسرائيليون، فقتل مع مسلحي حزبك في الشيّاح. الثمن أن تتدلل وترتفع أسهمك وتفيد كلما قلّ المسيحيون هنا، وترتع في الفوضى كأشقياء الغابات.

- الفوضى هي التي عيشتني صغيراً في الفقر وهي التي تغتال رفاقي، وهي التي خطفت وقتلت جاري محمود لأنه مسلم...

- ولكي تقول أنا أعرف.. وأنا بريء وناجي عميل

- أنت يا خليل مريض. وهذا البلد ليس بلدين. وأنا غير مهم وناجي عميل

- نعم يا نايف أنا مريض. وهذا البلد ليس بلدين، وأنت غير مهم، وناجي...

فكّر خليل بأن حواراً وهمياً كهذا هو دليل القصور الذهني.. وبأن نايف لا بد على حق. كان نايف ضرورة لي.. نايف الذي أحبه لشدّة ما كنا نتشابه، هو الذي يأتي حين لا أعرف أني أحتاجه. يأتي ليساعدني على دفن الذي مات.

* * *

لكن من هو الذي مات؟ ينبغي على خليل أن يجيب عن هذا السؤال وأن يعرف أمراً انقضى بعد فواته.. أضعف الإيمان أن يعرف أهل الفقيد على من يحزنون، ومن سيوارون الثرى.. حتى أهل الميت ينظرون إليه بعينين شكاكتين، إذ ولا مرة تشبه الجثة صاحبها الذي مات إلى حد اليقين الكامل.. بين نوبة بكاء وأخرى تتفحصه العيون من جديد، وتلمسه النساء. لا لأنهم يستصعبون فراقه، بل لأن الجثة لا تشبه صاحبها الحي إلّا بنسبة ضعيفة تترك شقاً يروح ويرجع منه الشك.. إنهم، لشدة ما يلتبس عليهم الأمر لا يعودون يسمّونه باسمه بل يقولون الجثة.. لدرجة أن الكلام عن رجل ميت يصبح بصيغة التأنيث.. يقولون نقلت.. وصلت.. دفنت... رفعت.. وحين يلجأ أهله للحزن العلني يشيحون بعيونهم عن الميت المسجّى إلى ذاكرتهم.. يبكونه وهو يمشي ويتحرك يضحك يتكلم.. وحين تعود نظراتهم لتسقط على جثته يعودون إلى تفحصه من جديد ويعتري كلامهم حينذاك وصف الأغراض لا المحبوبين كأن يقولون: إنها لم تتغير... وأن الأمر يشبه أن يكون نوماً لا موتاً... وأن الجلد لا زال يحتفظ بليونته وصفاء لونه... وأن لا رائحة خبيثة بل ما يشبه البخور أو رائحة الزهور البرية..

كلام يذكّر بغرض كان يخص صاحبه... لكنه غرض من

الأغراض البعيدة عن روحه الأصلية.. إنها جثته بينما مفاتيحه أو ثيابه أو سيارته أو سريره تكون أغراضاً أكثر حميمية، أقوى تأثيراً في المتذكرين وأشد استحضاراً «منها»...

حتى أن في حضور الجثة هذا بين أهل الفقيد بعض العزاء لهم، وفيه تأجيل وتمهيد لاستشعار خسارته الكاملة والنهائية... فهو هنا في شكل مفرّغ ليحضر حضوراً مغشوشاً لا يكاد يلامس حضور صورة الغائب الفوتوغرافية... وهو هنا ليوقّع الحدث دون أن يثير غباره الحقيقي، دون أن يوقع ليله اللاحق الثقيل... هو هنا ليسجّله بالتاريخ العمومي.. بالشهر واليوم والساعة ولبس الحداد والصراخ، لينفّذه وينفّس انفجاره المدويّ وليؤجل عسسه البطيء الذي سيقضم ليالي حزنهم كعث خبيث ينتظر أن يحاصره النسيان ويجفف بيوضه بطيئاً.. ولا مرة حين يسترجعون ويبكون موته، ولا مرة، تحضر جثته.. هي فقط تحضر لتذكرهم مثلاً بالشكل المقبول، المدجّن للموت، كأن يسترجعون من حضر لعزائهم من تأخّر ومن كان متعجلاً.. من بكى كثيراً ومن جاء للتسلية ومن تخلّف... أي بحضور الجثة يتذكرون ما يشبه لهوهم عن الموت ونسيانهم للميت..

خليل لا يملك جثة ناجي وهو كذلك، بعد مجيء نايف، لم يعد يملك ما قبل الجثة.. عود كبير حرّك دست ذاكرته الدافىء فأحاله إلى مزيج من مواد هجينة، بفقاقيع تشبه التي تعلو طبخات الساحرات...

ماذا يهيء لموت ناجي؟ أدراجاً وخزائن يطويه فيها بعناية، يدسّ بينها أكياس الخزامى المجففة ثم يسحبها ويفلشها في

أوقات دموع حزينة تستذكر عزيزاً، شجرة أولى على حافة طريق الشيخوخة الطويل..؟ أو صحوناً وجاطات وصوان يسكب فيها موته... يبرّده حتى حين يشعر بملل أو جوع قلب يأكل صداقته التي مضت، ويتحلّى بتجربة يختزنها لعلاقات كثيرة قادمة، أو يهيء له فأساً يشقّقه بها كلما نما عن تراب القبر قيد أنملة، ليمحو سذاجة كبيرة، هبلاً ثم يقعد كحطّاب فاشل لا يعرف كيف يحيل أخشابه الميتة إلى فحم تدفىء جمراته لظى حقد على وقت ضاع في تشهّي رجل جميل وبريء وبعيد وشبيه كتوأم، كان يشوي أطفال «الطريق الجديدة» بالهكسوجين والــ ت.إن.ت..

هل أجهله إلى هذا الحد.. هل هو هذا الرجل الآخر الذي تصحو في الليل شهواته الشريرة فيخرج هكذا إلى القتل البارد ويعود إليّ في اليوم التالي مبتسماً وجميلاً وأكثر وداعة من حمل مرسوم؟ هل كان، حين يستدير القمر في سواد السماء، يخرج إلى فلوات الخراب ويعوي كذئب جائع، يخرج أنيابه الملتمعة في الظلمة باحثاً عن أحشاء طريئة دافئة أو كان ينعق كعقبان على أتربة القبور المنبوشة في نسيم الليالي الهادئة... أو كان قاتلاً كمحترفي القتل في الأفلام الأميركية... يلبس قفازين من الجلد الطري، يرفع ياقة معطفه ويغمض عيناً ويرفع حاجباً وهو يضحك من هبلنا حين يدلف خارجاً في الشوارع المقفرة.. وتحت أضراسه الناصعة حبة من الزرنيخ يقضمها حين يقع في قبضة الأعداء، وحين يعود إلى بيته، يترك رفاقه بعيداً عن الشارع ثم يتسلل إلى غرفته فيخلع ثياب القاتل المأجور، يخفيها تحت بلاطة ما ثم ينثر الثياب التي

نعرفها على سريره بفوضى ظاهرة مقصودة... ثم يفتح درجاً سرياً يخرج منه ما يشبه الراديو أو الحبر السرّي و....

هل كانت إيزابيل تعرف بكل هذا، تساعده، وتغطيه بدهاء شعرها الرمادي الملفوف كالعجائز الحكيمات... هل كانت فعلاً أمه. هل كانت فعلاً عجوزاً أم كانت بعد أن تغلق بابها بالمزلاج الداخلي تخلع الباروكة عن رأسها، وتسلخ القناع الجلدي ثم ينصرفان إلى ليالٍ حمراء، يزيدها القصف هياجاً. يضحكان كدراكولا.. ولا يتوقفان عن لعبهما الشيطاني الدموي إلا مع خيوط الفجر الأولى...

كان خليل يستمتع باسترسال أفكاره تلك لأن فيها ما يشبه اللعب، فيها أنها أقرب إلى التسلية وأنها غير متعبة وإذن غير قابلة للتصديق.... لقد انتقى ما يلائمه من الصور وقال في نفسه إنني أقصد ذلك لأنني لا أريد أن أصدق، أنتقي الخفيف الخيالي المكشوف المتطرف والتهريجي، لأنني لا أريد أن أسمع نايف.. ولأنني، على ما يبدو، لا أطيق ذلك..

عادت عينا نايف تنظران إلى خليل.. أحس بضيق في التنفس.. وقف وسط غرفته عاطلاً عن أية حركة مفيدة.. كان حنق يتكدس داخله ويرتفع كمياه موشكة على الـ... فكر، للمرة الأولى منذ وقت طويل جداً، أن يزور أحد أقربائه... حضره وجه أبيه المتوفى منذ سنين، وهو يسعل بشدة على مصطبة بيتهم في القرية.... استدار عند الباب وفكر.. آن أن أكف عن التأجيل. وقبل أن يفتح الباب أصابه إحباط كبير وهو يتساءل: ولكن... ماذا أؤجل... موت ناجي أم حقيقته... وفي الحالتين

خسارتي عظيمة جداً... لكنني ميال لأن يكون نايف صادقاً..
إنه صادق.. وأغلق الباب وراءه.

* * *

قفز خليل درجات السلّم بخفة، لكنه ما لبث أن أحس بثقل كبير وهو يدسّ المفتاح في ثقب الباب، وحين دفع المصراع سمع طقة المفصل التي كان يعرفها جيداً. ثم دخل وأغلق الباب وراءه.

لقد خسر بيت الست إيزابيل حربه، وتحوّل نهائياً إلى شقة من النوع المسكون احتلته تلك الأرواح الملعونة التي ستقيم فيه إلى الأبد.. بدت الشقة أصغر بكثير مما تعود خليل أن يراها عليه رغم أنها ازدادت فراغاً.. كانت النوافذ المغطاة بالنايلون بدل الزجاج تعيق دخول النور لكنها في الوقت نفسه تشد بملامح الشقة إلى مزيد من الاندماج والشبه بالشارع. طبقة الغبار الرمادي التي كانت تغطي أشياءها كانت تساهم كذلك في تعطيل انعكاس الضوء.

غادرت أنفاس ساكني البيت، انسحبت من هوائه الجاف، اختفت تماماً، دون أن تترك أثراً.. حتى الأشياء التي كانت لهم، التي ما يزال يستطيع خليل بجهد أن يتذكر شكل استعمالهم لها، حضورهم حولها، فرغت الآن منهم واتخذت حيادية الأشياء المشاعية ومواتها. صارت علاقتها بأصحابها في فجوة حقيقية.. كعلاقة الموجوع بضرسه المخلوع.. بعض الارتباك في البدء ثم جمود وانسحاب إلى البعيد..

لكنني لم أدخل بعد إلى غرف النوم فكّر خليل.. رائحة كريهة

كانت تنبعث حادة من المطبخ... أشياء متعفنة.. مكابيس أو مأكولات فاسدة يتوجب رميها.. وتوجه خليل إلى المطبخ.. انتفضت معدته بقوة وسد منخريه بيده.. فتح البراد ولم يتحمل لا المنظر ولا الرائحة فأغلقه بسرعة وقبل أن يخرج رأى المجلى تطوف بسائل أسود متخثر وتبقبق بفقاعات صغيرة...

أغلق باب المطبخ ووقف يلهث وعيناه تدمعان.. أمام عتبة المطبخ على الأرض كانت تكثر الصراصير الميتة المنقلبة على ظهورها.. تلك الأرواح لا تترك حياً سوى الديدان وما هو أدنى منها....

عاد خليل مسرعاً إلى الصالون حيث تخف الرائحة كثيراً.. الصناديق ما زالت قرب المدخل، لم تأت أخته لأخذ ما كانت طلبت تهيئته وتوضيبه، ربما خافت المجيء، ربما منعها زوجها أو ربما انشغلت بأمر مهم أعاقها.. وخطر لخليل أن تكون الست إيزابيل قد ماتت لأنها.. لم تتحمل...

رفع سماعة التلفون بعد أن نفخ عليها عدة مرات لطرد الغبار.. جاء صوت الزمور طويلاً وعالياً. أعادها خليل إلى مكانها، وسحب من جيب سترته محفظة جلدية، أخذ من جيبها الصغير ورقة مطوية فتحها وراح يطلب الرقم.. فوجيء لمّا سمع صوتاً في الطرف الآخر.

* * *

جلس خليل على حافة سرير ناجي بتلقائية وكأنما ناجي قريب منه، في الغرفة.. راح يحدّق أمامه ولا يرى شيئاً.. فالخبر يدخل رأس خليل ككلب.. يروح يتجول كيفما شاء ويقعي حيثما

يرى ذلك مناسباً غير ملتزم دائرة الوعي المباشر. ما لا يلتقطه خليل هو نفسه، ما يراه ويسمعه يكون بطيئاً ومتحايلاً في الرسوخ بدائرة تلقيه واستيعابه. مكث في وضعه هذا، على السرير، دقائق طويلة كان فيها نظره ملقياً على جارور الكومودينة الصغيرة الملاصقة للسرير.. عنّ له أن يتحرك قليلاً ففتح الجارور وراح يقلّب ما فيه.. كان بداخله أوراق كثيرة ومفاتيح صدئة وعلب جلدية صغيرة جميلة وفارغة، وكان هنالك بعض الصور.. بعثر خليل الصور وسحب واحدة منها.. كانت صورة قديمة بالأسود والأبيض للست إيزابيل ولنساء حولها.. كانت لم تتخط بعد الأربعين ووجهها شديد الإشراق بابتسامتها التي لم تتغيّر كثيراً... شعرها الأسود كان شديد الشبه بذلك الرمادي الذي يعرفه خليل جيداً إلا تلك الغرّة الملفوفة المتكوّمة في أعلى الجبهة التي تبدو أقرب إلى المزاح.. النساء بقربها يبدون مطمئنات كثيراً ومرتاحات في جلستهن التي خمّن خليل أنها لا بد كانت في فترة ما قبل الظهر لحسن الإضاءة في خلفيّة الصورة.. الكنبة الكبيرة التي تجلس عليها الست إيزابيل مع إحدى النساء كانت ما تزال جديدة ملتمعة الخشب لكن قماش الآرائك الصغيرة كان مختلفاً.. كن يبتسمن براحة وهدوء وامتثال للمصور ما عدا تلك الجالسة قرب الست إيزابيل التي تبدو أكثر شيطنة من الأخريات، وكأنها في اللحظة الأخيرة كتمت ضحكة كانت ستفرقع.. طال مكوثه على وجه هذه الأخيرة الأليف حتى تذكر عجوز الطابق الخامس العانس الوحيدة التي ماتت أول الأحداث والتي بكتها الست إيزابيل كثيراً وتكفلت كل أمور دفنها. كانت خياطة مشهورة على ما يذكر ولا يزورها إلا نساء قليلات في مثل عمرها يكثرن من وضع البودرة البيضاء

على وجوههن الذابلة.. أيامها كان خليل حديث العهد بالبناية.. كان انتقل إليها من بيت عمه الكثير الأطفال بعد أن وجد عملاً كمدرس في إحدى المدارس الخاصة والصغيرة، وكان إذاك في أولى سنيه الجامعية.

سحب خليل من الجارور صورة أخرى.. كانت ملونة وسميكة، من النوع الفوري التظهير. داكنة جداً وصغيرة الحجم... أضاء خليل مصباح الطاولة الصغيرة ورفع الصورة تحت الضوء... ناجي وبقربه فتاة، على كورنيش البحر، وخلفهما غروب الشمس الأحمر المطفأ. الهواء كان قوياً وكان شعر ناجي طويلاً يغطّي قسماً من وجهه الضاحك فلم يظهر غير القم المفتوح على آخره. شعر الفتاة الطويل كان في طيرانه ملفوفاً كله إلى كتفها الأيسر. كاشفاً وجهها ورقبتها. ولم تكن تضحك ولا حتى تبتسم. كانت جميلة وكانت إحدى ساقيها مرفوعة إلى درابزين الحديد الذي تتكىء عليه.. تنورتها كانت قصيرة وساقاها طويلتين وهادئتين ومضاءتين على عكس جسم ناجي الغارق في العتمة وفي ثياب داكنة. قرّب خليل رأسه أكثر من الصورة وراح ينظر في وجه الفتاة وتأكد أنها لم تكن تضحك ولا حتى تبتسم. راح يسترجع الألوان البائدة فبدت شفتاها زهريتين وعيناها شديدتي السواد.. حاجباها كثان ومقفلان فوق الأنف وتنظر في عيني خليل مباشرة. وتتفرّس في وجهه.. كأنها تقول له عن ناجي: إنه لا يطاق.. لا يطاق.. سأعود إلى بيتي.. لكن خليلاً كأنه استوقفها قليلاً فمكثت ترى ما يريد، ورأى خليل أنه فعلاً يريد شيئاً منها ولكنه لن يعثر عليه بالسرعة التي تطلبها.. ثم كأنها تمهّلت وعادت تقف لوقت أطول

وتعطيه فرصة حقيقية. قال لها خليل حسناً... يخطر لي أن أحكي لك عن نفسي الآن بعد أن حكينا عن أشياء كثيرة ومتنوعة... تحيّرني قليلاً الإلفة التي بيني وبينك. أعني أنا لم أشتهِ بعد ولا امرأة، ولم أذهب للطبيب.. لا أذكر إن كنت حكيت لك عن ابنة القائمقام في القرية. تلك الشقراء الصغيرة النظيفة جداً ذات الشعر الطويل التي كنت أحبها وأبكي حنقاً كلما رأيتها تمر مع والدتها من أمام بيتنا القريب من الساحة.. بعدما تركوا القرية لم أشته فتاة ولا امرأة.. بعض الأحيان كنت أفكر بجسد الست إيزابيل. بتفاصيله التي تحت الثياب وتتملكني رغبة أن أضمها بقوة ولكن لم يكن لعضوي أي شأن بالأمر.. أعني.. تفهمين.. كنت أتمنى أن أراها عارية فيما يشبه الحشرية أو الشوق الصغير.. كذلك كنت أطيل المكوث في البيت حين كانت خالتي تزورنا.. تخلع عن رأسها الإيشارب ومن قدميها حذاءها ذا الكعب العالي.. لكن النساء عامة لا يثرن فيّ سوى حشرية هامدة تتحول إلى ما يشبه الخوف حين الاقتراب من أجسادهن.. إن أجسادهن أعقد مما أستطيع احتماله بل وتصوره.. أبعد مما قد أستطيع الوصول إليه.. ولكن أنتِ... إنني أشتهي ساقيكِ بقوة، وأرغب بقوة أن أمرر كفّي عليهما، من الكاحل صعوداً.. ببطء كبير.. إلى فوق. أضع فمي على ركبتك المطوية وتستمر يدي إلى فخذك ويكون حاراً ويدي باردة ولا تتحركين لأنك في الصورة. ثم أبقى هكذا مدة طويلة.. طويلة جداً قبل أن أقول لك كم أنا أحبك وكم من السنين الفارغة قعدت أنتظرك وقلبي كبيضة فاسدة يخفي ما بداخله دونما جدوى.. وجسدي كمكنسة فقدت قشّها الطويل وقعدت في زاوية مهملة تراكم الغبار والدبق والقِصَر. ستنبعث

منك رائحة تشبه رائحة النساء، لتدعوني دعوة الحيوان الفظة المباركة، في الغابات الكثيفة.. ثم تمشي الرائحة وأتبعها صاغراً متتشياً نزقاً ومهتاجاً، قابضاً على كل جسدي في مساحته الضيقة الآخذة بالتكثف والصغر ودقة الإشارة... انتظم وأتسارع ويخف خطوي ورأسي الناشف. ثم تقفين...

لم يعد خليل يرى من الصورة سوى أمواج صغيرة داكنة ودائمة الاهتزاز إذ كانت عيناه ممتلئتين بالدموع لكثرة التحديق في مساحة صغيرة وقليلة الضوء. ترك الصورة وأطفأ المصباح واستلقى بالعرض على السرير، على ثياب ناجي التي ما زالت متكوّمة. شعر ببرد مفاجىء يعلو من قدميه. أخذ بيديه الاثنتين طرفي غطاء السرير وجذبهما بقوة وتغطّى بهما وبالثياب التي عليهما.. وراح يحدّق في السقف فرأى كلبُ الخبرِ المساحةَ البيضاءَ الملساء ملائمةً وخرج إلى دائرة الضوء: لشدة ما يحبني نايف رأى أن أكرهه لأنساه.. ناجي مات برصاصة قنص قبل المعبر... قالت الست إيزابيل إن الرصاصة جاءته من جهتهم.. وإنه سقط وهو ما يزال في المنطقة الشرقية... وإنهم أتوا لها به.. وإنها دفنته... وإنها ستسافر إلى السعودية.

و... سأموت يا خليل...

- ٧

بعد شهر أو يزيد على موت، على قتل ناجي بيد قناص من جهة المنطقة الشرقية من العاصمة، كان خليل، نهاراً، أكثر

خفة ومرونة مع ما يحيط به من أشياء الحياة ذلك أنه ازداد قدرة على الانسحاب والعزلة وصار أكثر سعادة إذ كان يكبر نجاحه، ويتّقن أداء ساقيه اللذين راحا يزدادان طواعية في تسلق الجبل.. الجبل العالي، على صغره، المروّس القمة التي تعلوها ثلوج خفيفة.. الجبل الغارق السفح في المروج الخضراء حيث الهواء النسيم النقي المشبع بالأوكسجين يفتح الرئتين وينقي الدم وصور الرأس، ويقنن من مطالب الجسد ويقْصِرُها على الضرورة القصوى.. ذلك الجبل الذي يشبه جبال علب الجبن الطريء، كأن وحدة خليل، شفيعته الوحيدة وأخت نهاراته التي أهمل تماماً نشاط عدّها اللامجدي... كان كلما قلّ أكله، وإذن حاجته إلى المال، كلما اجتاز المسافة صُعداً نحو القمة، كان شوق الجلوس عليها يعده بمحارم بيضاء صغيرة، سوف يلوّح بها للمدينة الماكثة تحت، والتي بفعل العلو، سوف تختفي تحت غيومها الدخانية وروائحها المتبخرة التي سوف تتخذ شكل القطن المتغيّر مع حركة الرياح الخفيفة فيرى خليل خروفاً ثم بالوناً ثم فيلاً هائلاً يمشي.. ويتسلّى...

هذا لا يعني أن خليل كف عن الناس تماماً.. كان يفسح لهم هامشاً كمدخل البيوت يراهم ويكلمهم ويحبهم منه لكنه لا يُدخلهم إلى دار الحكي والضحك والحزن، لا يُجلسهم ولا يدعوهم للأكل ولا ينيمهم قرب فراشه ولا يسليهم بذكرياته ولا يفرح ولا يغضب ولا يحزن منهم، ولا يصرف مجهوداً في أن يقول لهم عنه أو عن أي شيء.. يراهم قليلاً في مدخل عينيه ثم يغلق الباب ويعود.

لم يكن ذلك قراراً منه.. وكأن الآخرين فهموا أو كأنما

سايرته الصدفة والظروف وأخذ فرصة ما كانت نهاراته تشتاق إليه فعلاً.

لكن الليل كان شيئاً آخر... كأن انسحاب الشمس كان يسحب من خليل سعادته الصغيرة إلى المنقلب الثاني من كرتنا الأرضية الجميلة الزرقاء.

في الليل كان خليل الهانىء نهاراً يفقد القدرة على ملء الوقت... في النهار، يكون الوقت ملآنا بذاته... لا يفعل خليل شيئاً لتعبئته إذ لا يشعر بضرورة ذلك... ليلاً فقط يروح خليل يتساءل عما عساه يفعل مستغرباً أن يفرغ رأسه هكذا فجأة حتى يبحث عما قد يملأها.. ليس رأسه بالضبط، ربما جسده أو ربما الغرفة... كأنها في النهار تكون مملوءة بمياه رحمية دافئة يسبح فيها خليل ويتنفس بكل الهارمونيا الكونية التي يشعّها الضوء فيجعلها كأن من طبيعة خليل نفسها، وكأن امتداداً لجسده الرقيق، وكأن مع انسحاب الضوء ثمة ما يقلع سدادة البالوعة ويفرغ المكان من تلك المياه فيتركه ناشفاً من وقته متشوقاً وشافطاً لوقت آخر يشبه الوقت الخارجي. الوقت الذي يطالب بملئه.

لون خليل الذي كان يزداد ميلاً نحو الشحوب والبياض المصفرّ، ربما نتيجة مكوثه بعيداً عن شمس الخارج، كان يغادر لون الدم إلى لون الكلوروفيل الأخضر.. قلة حركته، مكوثه في مكان صغير واحد كان يزيد من الطابع النباتي لحياته.. في النهار أوكسجين الوقت النقي وفي الليل ثاني أوكسيد الكربون وتعكّر الفضاء بالأنفاس المضطربة واسوداد كلسها.

مرة بعد مرة صار خليل يفتح الراديو في الليل.. راديو

صغير من البلاستيك البرتقالي السريع الاتساخ، كان، في جولات التنظيف المنهجية المتكاثرة التي يقوم بها ليلاً، يأتي بقطنة كبيرة مبلولة بالسبيرتو، ويروح يمسح الراديو بعناية كبيرة، يُدخل أطراف القطن في الزوايا الصغيرة والفتحات الضيقة بواسطة عود كبريت.. وذات مرة، صدفة.. صار يستمع وهو ينظف.. استغرب الكلام الذي لم يكن يألفه من الإذاعات ثم اكتشف أنها موجة الإف.إم التي لم ينقل إليها الزر سابقاً.

كثيرة كانت تلك الإذاعات الصغيرة، كيفما أدرت إبرة الموجة كانت تأتيك أصوات أليفة تحكي.. أليفة؟ ليس تماماً لكن كان فيها شيء يطمئن خليل ويشده إلى الاستماع.. إلى استماع خاص.. لا يشدّه بمعنى التشويق أو رغبة المتابعة بل...

كان يحمل صينيته الصغيرة المعدنية، يجلس قرب الراديو ويروح لساعات طويلة ينقّي العدس أو الرز لحساء الفجر، وجبته الوحيدة. أو كان، قرب الراديو، يكرّ كنزاته الصوفية القديمة ثم يلف الخيطان المجعّدة حول كتاب سميك حتى تملس على أمل أن يعيد حياكتها حالما يخرج للتسوق ويشتري الصنارتين المناسبتين. فحكمة النساء، مدجّنات الأوقات الخارجية، تؤكد أن الحياكة، أن الغرزة التي تلي الغرزة والصف الذي يعلو الصف هي التي تتكفل بسحب خيط الأيام كما تسحب نثرات القلق من الأرواح المضطربة.

ألف خليل ناس إذاعات الإف.إم. لأنهم كانوا مثله يسهرون طيلة الليل وهذا يعني أنهم مثله لا يعملون ولا يخرجون في النهار إلا كمثل عمله وخروجه.. ومثله كانوا يتصلون ببعضهم

دون معرفة أحدهم بالآخر أي وهم على جبالهم الصغيرة المسنونة التي تشبه جبله. ناس الإف.إم. هم أناس المدينة يعيشون تحت. خارجها. في ليلها الداخلي. ناس مثله لم يعرفوا الدخول فيها ولا في نهاراتها العمومية ولا في شوارعها. يتكلمون دون قول.. يتكلمون مع المذيع الذي لا يتوقف عن الكلام الذي لا يقول شيئاً البتة... فقط يملأ الأذن بحسه الإنساني الفارغ. المفرّغ. يسلّم المذيع على الناس. الناس يسلمون عليه.. يروي لهم نكاتاً، يسمعهم أغاني تشبههم في درجة حاجتهم إلى الفراغ الكوني الذي يسود المجـرّات البعيدة، يتكلمون معه في التلفون ويتكلمون مع بعضهم عبره. يوجهون لبعضهم رسائل لطيفة ومليئة بعاطفة رقيقة وشفافة كأوراق الجيلاتين، عاطفة تعبر الليل الخارجي كذبذبة خفية لا تسمعها حتى آذان الكلاب. لا أخبار في إذاعات الإف.إم. العاطفية أبداً ولا إشارة إلى أي شيء يخص نهار المدينة.. المذيع يضحك كثيراً، يضحك بين الكلمة والجملة.. والمذيع لا يحضر ولا يقرأ بل يشتغل على التلفون مع أفراد الشبكة.. كأنهم شبكة.. شبكة من الناس التي تحكي بأسماء مستعارة مع مذيع له اسم مستعار ولو كان حقيقياً. تحكي كلاماً مستعاراً لأنها تلعب حلم الاستعارة وتنفّذه.. حلم أن تفكّ الأزرار، في الليل، وأن تخلع عنك نفسك ومدينتك ومعانيك إلى الاستعارة المطلقة. الاستعارة التي تضرب الأصل.

لا شيء يلزم المستمع في إذاعات الإف .إم . لا شيء إطلاقاً، والمذيع؛ محطّة الاتصال يصير كالكاهن المؤتمن على السر العظيم أي على رقم الهاتف. فلو جرّه المسلحون إلى قبو

وأوسعوه ضرباً وتعذيباً واقتلعوا أظافره فهو قطعاً لا يسلّم رقم الهاتف إلى أحد.. فرضية هي بالأصل غير واردة. يطلب «روني» الاتصال «بغلوريا» التي كانت حزينة البارحة وهي تعطي رأيها في موضوع «هل تؤمن بالحظ» موجهة كلامها إلى «داني»... فقط الكاهن يعرف رقم غلوريا لأنها هي أعطته إياه ليعطيه لـ «داني» لعلّه نسيه أو ضيّع دفتر الأرقام ولم يتصل. غلوريا أو فاطمة تعرف داني أو محموداً لكن ألوف المستمعين الآخرين لا يعرفون بعضهم ولا يعرفون لا غلوريا ولا داني.. لكن غلوريا وداني يصبحان بطليهما ومركز الشبكة التي سينسجونها حول وقتهم لليال كثيرة. حول مدينتهم. والكاهن يطلب غلوريا وتكون مستيقظة ويسألها هل كانت حزينة البارحة وماذا تفعل الآن؟ فتقول إنها تستمع إلى الإذاعة وبأنها تطلب اغنية تشكر فيها روني على اهتمامه وتؤكد له أنها غيمة تعبر وأن في الأيام. أو الليالي ـ ما هو مفرح وما هو محزن ـ.. وتسأله إذا ما كان انتهى من إصلاح سيارته التي كانت تشغل باله وتطلب إليه الاهتمام بصحته لأن الصحة هي أغلى ما في الوجود.. وتهدي أغنية وردة الجزائرية الأخيرة لأسرة الإذاعة وللمذيع...

أناس ولكن غير حقيقيين. أصواتهم فقط حقيقية وتلك هي متعة خليل... أصوات موجودة في الأروقة. لمتعة الأروقة وهي قطعاً لا تطلب الدخول.. أصوات حقيقية فارغة وكاذبة هي إذن الأصوات الحقيقية لمدينة كهذه.. المدينة الحقيقية، الناس الذين يشبهونني موجودون إذن، وحقيقيون ويتكلمون في إذاعات الإف. إم.. لا يشبهون جرذان الأنفاق التي تعيش حياة

ثانية تحت أرض المدن.. إنهم المدينة الحقيقية، وهؤلاء، الذين فوق هم الكذب، وإذن المدينة ما تزال، وإذن بين نايف وداني قلبي يختار دون أن يحتار، داني هو الصديق..

هكذا مدّ خليل شريط الهاتف إلى غرفته ووضع الآلة على الطاولة الصغيرة قرب سريره. مكث لـيالٍ طوالاً يفكر بالاتصال على أرقام الإذاعة التي كثيراً ما يكررها المذيع ولكنه لم يفعل.. فضّل أن يتصلوا هم به وطال انتظاره ولم يتصلوا.. كيف يعرفون أن هذا الرقم له وليس لأحد الناس الذين فوق والذين سيشتمون ويصرخون دون أن يفهموا إطلاقاً سبب إيقاظهم بعد منتصف الليل، مواطنون مستغرقون في نهار المدينة يهرقون الليل لاستعادة القوة التي سيقدمونها لها في الصباح التالي، كحمير تنقل على ظهورها مياه البحر إلى حفر على الشاطىء من أجل جزرة برتقالية جميلة عند المساء. كيف يفهمون.

ميرڤت التي كانت توجه كلامها إلى الصديق رأفت الذي اتصل ليدلي برأيه في موضوع الصدق كانت شديدة القسوة معه. وطلبت إليه ألّا يعمم تجربة شخصية وإذا كانت فتاة وكسرت قلبه فهذا لا يعني أن كل الفتيات كاذبات، بل هي تؤكد، وهذه المرة، خارج التجارب الشخصيـة بأن الشبـان هم المراوغون وبأنهم يكذبون على الفتيات لأن مصلحتهم تقضي بذلك تهرباً من الزواج، أو غواية للفتاة حتى تعطيهم ما يريدون.. ثم تأسفت على لهجتها الحادة لكنها أكدت بأنها لا تستطيع إلا أن تكون صريحة.. وأهدته أغنية ولأسرة الإذاعة.

الصديق رأفت عاود الاتصال يرد عليها.. كان صوته واطئاً

وكان بطيء الكلام ليس عن حيرة ولكن كان لصعوبة بالتنفس.. فكر خليل بأن الصديق رأفت كان يحشش وبأنه حزين جداً وراح ينصت باهتمام، راح الصديق رأفت يتكلم عن جمال الفتيات وكيف لا يتلاءم هذا الجمال مع طريقتهن في.. التأجيل والتهرّب.. ثم اللعب بالمشاعر.. وقال إنه يصدّق الصديقة ميرفت ولكنه هو.. مختلف.. لأنه كان يحب صديقته كثيراً ويصدق.. وقال إن شعرها كان طويلاً جداً وناعماً وترك للمذيع أن يختار أغنية على ذوقه ويقدّمها للمستمعين.. وأحسن المذيع اختياره لأغنية «شعرك طويل ليش قصيتيه» لكسر الحزن الذي لا يلائم جو الإذاعة لكن خليل وجد أن عينيه مغرورقتان بالدموع.. وراح يفكر بالصديق رأفت..

سأل المذيع خليل عما يريد قوله.. فقال بأنه يريد أن يكون صديقاً للصديق رأفت راح المذيع يسأل فوجد خليل نفسه يجيب بأنه يؤيد رأي الصديق رأفت، ويدلي هو الآخر برأيه في الصدق ويهدي أسرة الإذاعة مقطعاً من أغنية «حلو وكذاب» لعبد الحليم حافظ.. واستحسن خليل ذلك وعاوده الابتسام وبعد دقائق كان يعود إلى لفّ الخيوط الصوفية على الكتاب، فيما تتكتك شوربة العدس على النار الخفيفة وتعطّر الجوّ رائحة التقلية الطيبة.

كان خليل يركض في حقل قصير العشب في مكان يشبه خراج ضيعته. بمجرد أن تلمس قدمه الأرض كان يقفز، يطير أفقياً لعشرات الأمتار والحقل يمتد ولا يخلص. لم تكن ساقاه طويلتين لكنهما كانتا ترسلانه خفيفاً وبعيداً كبالون ثقيل وكان يضحك كميرفت أمين ويتطاير شعره الكستناوي اللامع الطويل

في الهواء.. رأفت كان كذلك يضحك ويطير كمثل طيرانه دون أن يستطيع اللحاق به... يضحك ويطلب إلى خليل أن يتمهّل قليلاً وألّا يسترسل في تعذيبه. خلييل، كان رأفت يناديه بموسيقى لذيذة تدعوه إلى مزيد من التدلل والقفز.. والضحك.

ثم كان خليل يستند وكفاه وراء ظهره إلى جذع شجرة سميك فيما راح رأفت يحفر بساق سنبلة خضراء قلباً أحمر داكناً وبداخله حرفا R و K يلتمعان بزيت خاص. ثم اقترب رأفت من خليل وأعاد خصلة طويلة كانت تهفهف على وجهه، إلى الوراء. نظر خليل استحياء إلى ساقيه فرأى ساقي الفتاة التي قرب ناجي في الصورة السريعة التظهير فازداد ثقة بجماله وباستعداده للحب. نزل رأفت بيده إلى عنق خليل، تحت كثافة الشعر وراح يقترب بعينيه وشفتيه ولهاثه المتعالي من وجهه. ثم انتفض رأس خليل بعنف وخبط في الشجرة، وضع يده على وجهه يتحسس الصفعة النارية ثم رأى ناجي محمر العينين ينظر إليه بغضب فظيع ثم وقف ناجي قبالته لثوان طويلة، ينظر في وجهه، قريباً جداً من وجهه. وكان خليل يرتجف بشدّة، ليس خوفاً. ثم أمسك ناجي بطرف ياقة خليل وشدّها فانفتح قميصه حتى بطنه ولم تكن هنالك أزرار تقاوم. رجع ناجي خطوة إلى الوراء ومسح شعره بيده ثم عاد فاقترب على مهل ومد يده قوية إلى حزام خليل الجلدي، وفكّه....

وجد خليل نفسه واقفاً قرب سريره منذ ـ ربما ـ دقائق.. كانت كل فتحة في جسده الصغير قد أرسلت ماءها الخاص عن آخره.. كان غارقاً في عرقه الشتائي وبنطال بيجامته ملتصق بين فخذيه.. ومخطة مائية تتابع انزلاقها على ريق فمه النازل

خيوطاً من ذقنه إلى صدر البيجامة المفكوك الذي كان يكشف كتفه وجزءاً من ساعده.. عيناه فقط كانتا ناشفتين كثيراً، لذا جلس يبكي بدموع غزيرة وبصوت عال حتى أضاءت الشمس غرفته تماماً.

- III -

١ -

كلما اشتد صوت انفجار القذائف والصواريخ كانوا يُدخلون رؤوسهم بين أكتافهم ويبسملون ويستعيذون بالله. ثم ينهرون الأطفال الذين سرعان ما كانوا يعودون إلى لهو ولو مقنّن وقليل حالما تنفذ لحظة صمت بين اشتعال وآخر... وكأن الشعور بالقهر حيال ما يجري في الخارج يرتد على من شُرّعت السلطة الوحيدة عليهم أي الأولاد فلا يعود الأهل قادرين على احتمال حيادهم أو خروجهم النزق عن الخوف الحيّ، أو عدم إدراكهم لاحتمالات الموت العالية.. يرغب الأولاد كثيراً في الحياة وفي الاحتفال بها فيتجاهلون، أو هم بين نوبة إسهال انفعالية وأخرى، ولمجرد أن تلتقي عيونهم بعيون أطفال آخرين يتفقون على أن في اجتماعهم ما يشبه العيد الذي لا يحبطه شيء أو أمر مهما عظم. يلتصقون بأمهاتهم ولكن لهنيهات قليلة ثم تتكاثر طلباتهم فيجوعون ويعطشون أكثر من العادة، وربما يفعلون ذلك لإخراج أهلهم من التشتت في الخوف، لاسترجاع أهلهم إلى الصورة المطمئنة بعيداً عن لوثة الجنون الذي يلمع سريعاً في عيون الكبار، لكي تعود أمهم تشبه تلك التي في

البيت، تسكب لهم الأكل أو تنظر إلى وجوههم قبل أن يغفوا بقليل، ولكي لا يخونهم أبوهم فيلتحق بالشارع وبالليل الخارجي.

لم ينتظر خليل طويلاً في غرفته، تناول بطانيته وصفق الباب وراءه. قطع المدخل راكضاً وقفز السلالم القليلة الدرجات بسرعة إلى سفرة السلم في الطابق الأول لأن الطلقات الرشاشة كانت تتقارب وكذلك دوي الانفجارات. وأي رصاصة متفجرة تخرق حائطه المسنود إلى الشارع صارت تعني موته المحقق.. في السابق كان يأوي إلى حمامه الصغير، يشعل شمعة يضعها على رف المرآة. يطبق غطاء المقعد ويروح يقرأ أو يتابع أحد أعماله اليدوية الكثيرة.. وكان خليل يشعر فعلاً بالأمان لأنه كان يعتقد بقوة بأنه يملك جسده ويعرفه حق المعرفة.. أو هو يتعرف إليه بشكل صحيح ويقتنيه كولد منطو وغامض وقليل اللهو ولكنه يقتنيه على أي حال. كان تشابه جسده مع أجساد الآخرين.. مع جسد ناجي على الأخص يعيد إليه الطمأنينة ويخفف من شدة قلقه. بالطبع لم يكن تشابه جسده مع أجساد الآخرين يستند إلى الشكل بل إلى التعاطي. إلى شيء من التآخي.. فالناس حين يضجرون في بيوتهم يخرجون إلى الشوارع. يعتقدون أنهم ضجرون فيخرجون للتنزه والمشي.. إنهم في الحقيقة يقلقون على تماسك أجسادهم التي لا يعرفون إلام قد تؤول، يخافون أن تفلت منهم. أن تستذئب مثلاً. أن تتبدل في عزلتها إلى ما يشبه المسوخ أو الحيوانات الشاردة المفترسة.. لذا فهم يخرجون أجسادهم للنزهات كما تخرج كلباً. يربطونها إلى أيديهم ويمشونها بين

أجساد الآخرين ليطمئنوا إلى التشابه، ليثبتوا ذاكرتهم عن أعضائهم، ليتماروا في طاعة الأجساد الأخرى المتوازنة أو المتقاطعة.. لضمان الليونة واستتباب السلطة على أجسادنا نتمشى في الشارع. نقول: انظر يا جسدي كم هي تشبهك هذه الأجساد. وكم هي مرتاحة ومتقنة كم هي لينة ومستجيبة وكم تلقى المعاملة الحسنة.. لذا لا نخرج أبداً بثياب العزلة أي بفرائنا الوحشي بل نتهندم ونسرح شعرنا لنتعاضد مع الآخرين في إظهار درجة عنايتنا بمقتنياتنا فيحق لنا أن نطلب منها الرضوخ والتشابه.

بعد مقتل ناجي ما عاد لجسد خليل من أخ أو مثيل قريب، لذا صار يخربط كثيراً ولذا تشقق سطح سداداته وغزته الأحلام المشككة وفككت رباطات تماسكه إلى التباسات كثيرة اقلها كانت أحلامه الجنسية التي كانت تهزه كعاصفة عنيفة. تضربه بفؤوسها الصغيرة الحادة فيجهد بعد استيقاظه في جمع الشتات ويعتصر ذهنه في محاولات تحليل مجهدة تساعده كثيراً لكنها لا تقوض قلقه تماماً، خاصة وأنه كان قليل الاقتناع بعلم النفس وبما في كتبه الكثيرة.. كان خليل يعرف بأن الخوف من الدم حتى الإعياء، وأن قصر الساقين وضمور القامة والشعر الكستنائي المسبسل والعينين الكبيرتين، كل هذه الأشياء لا تجعل من الرجل خنثى، أو ذكراً ضعيف الذكورة أو... شأناً.. وأن ما يعانيه من أعطال مؤقتة ما هو إلا أزمة نفسية فرضها الخارج المجنون... إنه بالتأكيد يفضل هرمونات الأنثى التي فيه بنسبتها الطبيعية إذ هي تقيه إجرام الفعل، ولذا فهي أزمة عابرة وستزول.. وهو حتماً يشتهي النساء،

وبقوة وقابليـة عظيمتين، يشتهي امرأة معينـة في الوقت الحاضر. ثم اجتهادات خليل تنتهي إلى جملة صغيرة مقطوعة يقول فيها لنفسه، دونما داع أو جدوى: «لقد مات ناجي».

ولذا لم يعد خليل، حين اشتداد القصف، يبقى وحيداً في غرفته.

نعس الأولاد كثيراً على سفرة الدرج. ثم ناموا.. أصوات الانفجارات القوية كانت تجعلهم يرمشون قليلاً ويزدادون اندساساً في صدور الأمهات وأعناق الآباء. والكبار تعبوا فراح الخوف وبدت ساذجة حكمة السلم التي تقول إن الفزع يطيّر النوم. النعاس يطيّر كل شيء: الحرب والهزات الأرضية التي تمتلك حكمتها الأكيدة. حتى العروس الوافدة حديثاً شعرت بالنعاس وتركت كل أنوثتها الكثيرة البضائع التي نزلت بها من بيتها: شعرها المفكوك وحمرتها الغامقة وأظافرها المبالغة في الطول وقميص نومها الوردي الشفاف الذي تركت له فرصة أن يبان كثيراً تحت الروب المخملي.. حتى بلطوفها الساتان الزهري ذو الدانتيل والفراء والشرائط اللامعة تركته مسنوداً على كعبه العالي قرب الحائط بعد أن أهمله الناعسون. كان بلطوفها قد أثار سخط النساء المكبوت وعلّقت إحدى الجارات هامسة بأنه طلع للتو من علبته لمناسبة القصف السعيدة ولأنه سيساعدها كثيراً على الأرض والقفز على السلالم.. ولم يكن سخط الأمهات بريئاً إذ لم يجدن في طنجرة أحزانهن تلك الليلة ما يتلاءم مع البهارات التي راحت ترشها الوافدة الجديدة على الرجال. ثم إنهن لم يصدقنها حين كانت تتلوّى وتصرخ وترسل التنهدات مصطنعة هلعاً لا يقنعهن ولكنه قد يقنعهم. أبو أحمد

الذي بقي يتردد على البيت دون عائلته كان يبدو أكثـر المعترضين على العروس واحمرت عينه منها فصار يكيل الشتائم دون هوادة لجميع المسلحين المتقاتلين خارجاً وفي جميع المناطق وكان يعلم أن العريس هو أحدهم.. كان كأنه يستفزها لتتكلم، لترد، فيتسنى له أن يطيل النظر إلى فمها وإلى فتحة القميص الوردي المضطرب عند الصدر الكبير.. لكنها لم تفعل وكأنها غير معنية بالمرّة بشتائمه.. أو كأنها فهمت عليه فأرادت أن تزيده ولهاً.

كلهم تعبوا ونعسوا لأن توقيت المعارك خرج عن عادته هذه المرة إذ ظلّ القصف قوياً رغم اقتراب الساعة من الثالثة فجراً.. قال أبو أحمد بعد أن احمرت عيناه الاثنتان هذه المرة بأن هنالك اقتحامات وأنها ليست معركة عادية. لن يهدأوا قبل أن يُحْكِم أحد الطرفين سيطرته على الشارع ثم أضاف معمماً كلامه على الجميع: قد نبقى هنا يومين أو ثلاثة.. أو أكثر.. بعد قليل سيهدأون قليلاً.. اتركوا كل شيء في مكانه اجلبوا حليباً للأطفال وخبزاً ومساند واسمعوني جيداً. لا يجازفنّ أحد منكم بالنوم في سريره.

عرف الجميع، من شبكة الاتصال الخفية، من الشيفرة التي اعتادوها مع مسلحي الشارع بأن أبا أحمد على حق. ثم سأل أحد الجيران أبا أحمد عما إذا كان يعتقد أن البناية أصيبت مباشرة، معتمداً على مزيد من حكمة الدركي المتقاعد وآملاً أن يسمع الجواب الشافي من فمه: أي أن تكون شقة أبي أحمد هي التي أصيبت لا شقته هو، إذ هي الأكثر تعرضاً للشارع كما أن قذيفة جديدة لن تزيدها خراباً عما هي عليه.. كل واحد من

الجيران كان يجد ما يبرر أمله في أن تكون شقة الجار هي المتضررة.

* * *

بعد يـومين خرج الناس من بناياتهم إلى الشارع الهادىء. كانت حركتهم بطيئة وهادئة وكأنهم يخرجون إلى نزهة ما زالوا يترددون في تعيين مكانها، وكأنـهم لا يبالون بالمرة لما وراء ظهورهم من بيوت مضروبة.. بعضهم فقط توقف للحظات قليلة أمام شرفة مبتورة كانت أكثر مدعاة للضحك منها للاستهجان. كان حائطها المطل على الشارع متداعياً وقد اختفت حجارته فيما علق البراد، مائلاً ومفتوحاً عن صحونه وخضاره، على حجر مشطور وبقيت الأوانـي المرتبة على الرفوف فوق المجلى، بما فيها بعض المكابيس، على حالها وكأنها لم تسمع حتى صوت القذيفة التي قصّت الحائط. الطنجرة على الغاز بدت جاهزة لملء الصحون وقد حان وقت الغداء. فقط مريلة صاحبة البيت لم تكن في مكانها، كانت مرفوعة كعلم أزرق صغير على سيخ بارز من أسياخ حديد زاوية الحائط.

لما رأى الناس الخارجون إلى الشارع البراميل الكبيرة المدهونة حديثاً، التي سدّت أحد الأزقة، عرفوا بأن زعيماً جديداً ولدت نجمته في الليلتين الماضيتين في هـذا الزُقـاق بالذات ولذا كان حزن من احترقت سياراتهم أقل وقعاً إذ كلما ضاق الشارع بأزقة مسدودة محظورة على العموم كلما ازداد ارتباك أصحاب السيارات في كيفية ركن سياراتهم في أمكنة قليلة أو في إمكانية بيعها سريعاً بسعر معقول.

٢ -

منذ قدوم بيت عمه الأصغر من القرية وسكنهم في بيت الست إيزابيل صار خليل أقل انعزالاً وأكثر استعداداً للاقتراب من بعض الناس.. لعل حيوية العائلة الكبيرة هي التي جعلته يطفو قليلاً فوق سوائل غرفته فيفتح الستارة ويكثر من الخروج والعودة أو من الطلوع إلى بيت العم والرجوع إلى الغرفة.

هكذا كان يعتقد، وكان حين يشك بصفاء نيّته في تفسير ما يجري له من تغيير، يعزز الأمر لزهرة ويتوقف عندها. فالحقيقة أن العائلة القادمة من قريتها البعيدة جداً كانت منهكة تماماً لما تعرضت له من عذابات وأخطار الطريق تحت قصف الطائرات الإسرائيلية واضطر أفرادها للنوم في العراء ولمشي طويل في طرقات وعرة لتجنّب الحواجز الكثيرة قبل الوصول إلى العاصمة. ذلك الوصول نفسه كان موضع إرباك كبير إذ هم كانوا يعرفون أن شوارعها غير آمنة بالمرّة وأن ما يشبه الشياطين الغريبة يسكن ليلها، وكانت على أي حال مدينة أقل تعقيداً مما توقعوا إذ بادرهم خليل بتسليمهم شقة الست إيزابيل حال وصولهم بعد أن كدّس بعض الأشياء في غرفة ناجي وطلب إليهم عدم استعمالها.

حين راحوا يدورون في الشقة، كالفزعين وينظرون في الزوايا والسقف كمن يبحث عن أشياء أو أناس لا يعرف سبباً لحضورهم كان خليل فرحاناً إذ استرجع بعض أمل في طرد الروح الشريرة من الشقة ومثلت أمام كثرتهم إمكانية كبيرة في أن تعود الشقة بيتاً، تشبه ما كانته في الماضي.

كانت زهرة تنزل قافزة على درجات السلم بشحـاطتها البلاستيكية، تدق بابه بخجل لتدعوه إلى الأكل وكان يستجيب لكل الدعوات. يجلس قبالة عمّه ويأكلون ما على الصينية الكبيرة دائماً بالشهية نفسها، لكن زهرة لم تكن تجلس معهم. تبقى على مقربة وتقفز إلى المطبخ حالما يطلب أحدهم شيئاً وكثيراً ما كانت تخطىء وترجع بما لا حاجة لهم به فيهز أبوها رأسه مصطنعاً الأسف ثم يستغرق في الضحك عليها، وحين كانت أمها تدعوها للأكل كانت تجيب بما يشبه الحنق: لا أريد. كان خليل يأسف لعدم التناسق بين صلابة وضخامة ساقيها وضمور خصرها وكان يرى أن عينيها الجميلتين لا تكفيان مطلقاً لجعل وجهها الكبير المنتفخ القسمات وجه بنت جميلة. فقط من ردفيها إلى رقبتها كانت متناسقة تماماً ومثيرة جداً بثدييها الصغيرين النافرين بقوة.

كان خليل سعيداً بشعوره بغرام زهرة به.. كان دائم التفكير بغرامها هذا، كيف تنشغل بالترتيب والتنظيف حين يكون ولا تهدأ حركتها، كيف تنقطع شهيتها وتصبح خرقاء قليلاً وكيف تفرك عينها اليمنى كلما نظر إليها أو كلّمها.. كان خليل يحب كثيراً أن تحبه زهرة.. كانت كأنها تحبه من داخله. أو كأنه هو وزهرة يحبّان خليل. كان دائم السرحان بما يفعل غرامه بها. كيف، حين لا يكون، تقع زهرة في الكسل وقلة الحيل والزفرات الطويلة، وكيف تصيخ السمع مترقبة وقع خطاه عند الباب، وكيف تلمس كأسه الفارغ أو فنجان قهوته قبل أن تُلقي به في المجلى وكيف تسهر في فراشها متخيّلة إياه، في صدفة ما، يلمس وجهها أو كتفها ويبوح لها بحبه المجنون الذي يؤرقه

وكيف تروح يداها تمران على جسدها الحرّان وقد صارتا يدي خليل.

فضاء المكان كان دائماً ملآنا بشرائط تسجيل زهرة لمطربين كان خليل يسمعهم على إذاعة الإف.إم. دون أن يستطيع تذكر أسمائهم. والمؤسف أن فوضى كثرة عائلة عمّه وما كان يعتقده حيويتهم وشكل شغلهم للمكان لم ينجح في جرّ الشقة إلى حيّز البيت أي إلى روح بيت الست إيزابيل.. فالأشياء التي كانت تملأ جوانبها كانت تتميز فقط بفائدتها المطلقة المباشرة، وكأن من غير الممكن أن تقعد في الشقة دون عملٍ ملحّ ما كالأكل أو النوم أو التغوّط أو الغسيل، وكأنه مكان للعمل لا للسكون أو الراحة أو التأمل أو.. الإقامة.. كانت الشقة تبدو كالبوسطة في عبور أشيائها وفي فراغها من الأشياء غير المفيدة أو العمليّة.. حتى نظافتها كانت من ذلك النوع الوظيفي السريع أي غير المتقن بالفعل، واللمبة الثانية أي لمبة غرفة الطعام تعطّلت لوحدها إذ كانت إضاءة لمبة الصالون كافية للرؤية، وانتقلت بعض أشياء المطبخ أو غرف النوم، كأن من نفسها، إلى الصالون لمزيد من «العملية». فهو إذن لم يعد بيتاً لأن زمنه الداخلي كان زمناً مستعجلاً.. وصولياً، لا زمناً مقيماً وهادئاً ولنفسه. لم يكن كافياً بإحساس المقيمين فيه بأنهم مؤقتين حتى ينعفوا وقته ويفرموه على هذا الشكل وهذا ما كان يستدعي أسف خليل ويزيده يقيناً في أن غرام زهرة لن يرتب عليه أية مسؤولية لأنه قطعاً غرام عابر لفتاة عابرة، ويزيده متعة تذوّق هذا الغرام وتخيّل فعله فيها.

* * *

كل الحيّز الذي كان بيت الست إيزابيل وعائلة عمّه الأصغر يشغله في رأس خليل، كان حيزاً مضروباً بالافتعال والمواربة. إلفة العائلة الكبيرة بطبيخها ونوادرها عن الأقرباء واستحضار خضرتها البائدة، غرام زهرة وغرام خليل بهذا الغرام ولذائذ تخيّله، وخروجه الآنف الذكر من بئر عزلته المفترضة، اهتمامه بالشقة وبزمنها العابر الذي لم يسترد روحها الأصلية. كل هذا كان يسقط دفعة واحدة في بحر الهراء حين كان خليل يرى يوسف. حين كان يراه.

فيوسف الأصغر من زهرة كان قليل المكوث في البيت وشديد الشغف بالمدينة كثير الخروج إليها ولو كان ذلك الخروج لا يتعدى أكثر الأحيان زاوية محل الفليبرز في نهاية الشارع. ذلك أن يوسف اللاهي بتجاربه الجديدة وبفتيان من عمره كان يكسر قلب خليل بقوة.. كمن يحمل آنية زجاجية سميكة ويخبطها في الأرض.. وكان في معدة خليل ما هو مضاد، كأن فيزيولوجياً، لرؤية يوسف الذي لو رآه يوسف القديم لوقع ومات.

كلما رأى خليل يوسف كان يردد في قلبه، أو معدته، «يا إلهي، يا إلهي»، ويصاب بما يشبه الغثيان خاصة في الفترة الأولى لقدومهم.

كان يوسف طويل القامة على نحول خصوصي. نحول يوحي بالصلابة والقوة الكامنة لا بالضعف أو الوهن، وكان لونه أسمر مكبوتاً كاسمرار الخزف الخارج من الفرن، أسمر قديماً مصقولاً كجلد عبيد الفراعنة أو كخشب الأيقونات القديمة في

صور الكتب. أصابع يده كانت دائماً كأنْ لم تلمس جسماً صلباً، كأنْ خارجة لتوّها من نقوع الخوخ اليابس. وجهه، حين كان خليل يطيل النظر قليلاً إلى وجهه، كان يترك في الحلق ما تتركه عضة السفرجل الفج، ورغم ما كان خليل يراه من مياه تتدفق من عيني يوسف إلا أنه كان سرعان ما يشعر بعطش شديد يلعب في مريئه كنحلة مجنونة. عسل يوسف كان عسلاً ساماً، وفاكهة جسده كانت زرقاء من داخلها، شهيّة، كفراغ هائل نقف على حافته ونموت شوقاً ورعباً في التشلّع على صخوره البعيدة التي يكسوها بخار المسافة.

كان يوسف جميلاً لدرجة تجعل نحاتي عصور النهضة يبدون كالبلهاء بأجسادهم البيضاء المنفوخة المعروركة كأجساد الأبقار السعيدة. صور وأحجام هي أقرب ما تكون إلى صور وأحجام الحيوانات الجميلة لأنها بكاملها خارجة من نفسها، لم يُبقِ لها النحات شيئاً تحتفظ به لنفسها، مخفياً عن العيون المشاهدة المتفرجة. إنسان بلا روح على الإطلاق كصور أبطال رفع الأثقال في المجلات الرياضية. قديس الأيقونة المصنوع بدقة مياه الذهب أو قناع المومياء الفرعونية الملوّن بالإبر يقدمان لك ما يريدان من الوجه فقط. أي باباً تدخل منه إلى الوجه الآخر الذي أنت بحاجة إليه وإلى جماله الخاص بك. يطلبان منك وقتاً أطول من التفرج، وقتاً تأخذه عيناك لتتحضرا له قبل أن ينفتحا لك.

وجه يوسف كان له قناع كهذين الوجهين.. لن تعرف بسهولة أو سرعة كم أن يوسف جميل، عليك أن ترى أولاً كم هو بارد وصلب وبعيد ومستحيل الجلب. وهو أشد فعلاً واستحالة حين

لا يكون. يفعل بك كقصف بعيد يكون انقضى حين يصل إليك الصوت، وأصاب وقتل من أصاب وقتل فيما أنت تعرف وتنقز وتتوتر كحمار حيران، كحمار يرى خليل نفسه أمام يوسف، كحمار بعيد عن أمه وعن الحقل وعن الحمير، مستوحش وخائف وجائع وغشيم وعلى زاوية عينه الكبيرة السـوداء الفارغة ذبابة تبيض.

كان خليل يكره أن يرى يوسف، ويحب أن يراه.. كثيراً. حين تدعوه زهرة للأكل عندهم كان يتحلل من مسؤولية المبادرة ويصعد بركبتين تصطكان من أن يكون يوسف أو أن لا يكون يوسف. كانت الحالة في المدينة قد صارت إلى ما يشبه الهدوء وخفّ القصف في الشارع. ذلك القصف الذي يشتهيه خليل كمن يشتهي موتاً سريعاً، لأنه كان يوقف يوسف عن الانقضاء ويثبته في مكان لوقت، ما كان مرة كافياً وما كان مرة محتملاً.

بعض ليالي أو أماسي القصف كانت تجيء. يلبث في غرفته حتى يناديه عمه أو زهرة للاحتماء بدرج البناية. يجلس في البدء بينهم كمن يجلس على خيط الصراط لكن سرعان ما يهدأ قلقه إلى ما يشبه الموات. تكون زهرة فرحة بالقصف لكن خليل لا ينجح بالفرح لفرحها، ولا يستطيع غرامها، حين يكون يوسف، أن يسحبه إليها، ويوسف لا يهدأ في مكانه الضيق. يبدو شديد الانزعاج، دائم التحفز وكأنه ينوي الخروج فجأة إلى الشارع. وحين يطرح بعض الأسئلة عمّا يجري لا يجيب خليل سوى بهمهمات مقتضبة يفهم منها يوسف أن لا مجال للاستفاضة بالشرح الآن إذ أن الأجوبة على جانب كبير من التعقيد. ومهما تجنب خليل النظر في عيني يوسف إلّا أنهما

كانتا تصلان إليه كلقاح الشجر المتطاير أو كتلك الأشواك المجهرية التي يرسلها الصبّار مع كل هبّة ريح. كان خليل يضع كفه الباردة على معدته المتقلصة ويضغط عليها باستمرار كلما ازداد دخول يوسف في صدره حتى يغدو التقلص ألماً خالصاً ويتمنى خليل أن ينتهي القصف إذا كان ثمة احتمال بأن لا يستمر إلى الأبد.

* * * *

حين يعود خليل إلى غرفته كان يسارع إلى تلك الانشغالات التي تعودها في الفترات التي تلي القصف... ينظف الغرفة ويغسل الشراشف والثياب ولكن بكمية أكبر من الحماس والوسوسة وبرضا أقل عن النتائج. حتى أصابه ما يشبه اليأس من الوصول إلى حالة الراحة والفرح اللذين كانا يصيبانه بعد التنظيف.. وشيئاً فشيئاً لم يعد يفيده كثيراً استحضار غرام زهرة به حتى عرف أنه متورط تماماً بحب يوسف وأن جسده الذابل الموصول بحبل مصل إلى جسد يوسف كان يصب نزفاً شيطانياً يملأه ويفور داخله كمياه بركانية. كان يجلس ذاهلاً فارغ الرأس لساعات طويلة. يفكر أحياناً بترك غرفته والذهاب بعيداً لكنه لا يجد مكاناً. يفكر أن عليه أن يعمل كثيراً ليعود منهكاً وينام. ويفكر ألا يلبي دعواتهم إلى الأكل أو السهرة ويعتذر بحجج سيفسرونها على أنها تخفيف عنهم ورهافة إحساس زائدة عن اللزوم، أو على أنها تهرّب من غرام زهرة، الذي لا بد قد كشفوه، بدافع الأخلاق العالية... لكن يوسف الكثير الحركة، كان أحياناً يمر عليه في غرفته ولا يمكث طويلاً لأنه كان شديد الخجل لما يتصوره عن خليل من ثقافة عالية

وخبرة في حياة المدينة.. ينهي زيارته السريعة بالإعلان عن صعوده إلى البيت وبدعوة خليل لحضور التلفزيون.. وكان خليل سرعان ما يلحق به إلى فوق. لكن أحد أصحاب يوسف كان يناديه فينزل بعد دقائق من حضور خليل، مستأذناً، ويغرق خليل في مياه حارة ويتحول إحساسه بالهر المبلول داخله إلى كراهية كثيفة لزهرة التي تكون حمرة خديها تشي بكمية فرحها الكبير به، ويصير شديد الحساسية والقرف لرائحة إبطيها الفظيعة، مؤكداً لنفسه أن ساقين بمثل هذه الضخامة ويدين بمثل احمرار وسماكة هذا الجلد الحيواني لا يمكن أن يكونا لكائن ذي روح، يراها كسمكة قديمة فاسدة بعينيها الذابلتين السميكتي الغشاء، ما تزال تبلعط فقط لإصدار مزيد من روائح الزنخة. في مساء كهذا كان خليل يطيل النظر إلى زهرة إذ لا يبقى أمامه إذّاك سوى تعذيب النفس.

وحين كان يعود إلى غرفته، كان يقف وسطها بحجم جسده القليل لكن بإحساس شديد بالثقل واللامنفعة. يلوي رأسه ثم فمه عن بكاء ناشف وقبل أن يستند إلى الكرسي أو الحائط كان يردد: يا إلهي.. إنني أموت حباً.

٣ ـ

حين كان يشتد انزعاج الأغنياء من الحواجز المتكاثرة ليلاً في الشوارع، كانوا يعمدون إلى استئجار سيارة إسعاف من إحدى المستشفيات، تقلهم إلى أماكن السهر التي داومت ربما بالطريقة نفسها على استقدام المطربين الصاعدين ذوي

المواهب المثيرة للضحك والسخرية، تلك المواهب كانت هي المفضلة من قبل الساهرين لأنها أبعد ما يكون عن الجد وعن استثارة الأشجان والدعوة إلى التنهيد والإطراق ولأنها كانت تفسح المجال، بتواضعها الكبير، لأن يمنّي كل ساهر أو ساهرة النفس بحضور يوازي حضور المطرب وأن يصبح بالتالي بطل السهرة، الأنجح على الإضحاك وإثارة الضجيج، والأشد فتكاً على حلبة الرقص.

هذا هو «حب الحياة» الذي تتكلم عنه الجرائد الغربية والعربية.. فكّر خليل وهو يجدّ السير.. أهل بلدنا يحبون الحياة على نحو يثير دهشة العلماء الذين كلما أتوا على ذكرنا تعجبوا من قدرتنا الهائلة تلك على حب الحياة.. حتى أن بعض تلك البلدان نجح في الحصول من مراسليه على أشرطة فيديو لتلك السهرات حيث ترتفع الحلبة ويرقص الجميع فوق الطاولات على أنغام أغانٍ لا علاقة لأية منها بما يستميت المطرب في توصيله إلى آذانهم...

وقد أُعجب المشاهدون العالميون بتلك السهرات أكثر بكثير من إعجابهم بمشاهد رتق فجوات البيوت وجدرانها أو بمنظر السابحين على مسافة بضع عشرات من الأمتار من خطوط التماس المشتعلة أبداً، أو بمنظر البندورة النابتة على الحواجز الرملية القديمة، يقطفها أحد الصبية النابضة عيونهم السوداء الوسيعة بحب الحياة.

راح خليل يتذكر مشاهد مذهلة من إحدى تلك السهرات التي نقلها التلفزيون ضمن خطة برامج وضعها بهدف رفع معنويات الشعب. راح يتذكرها كمن يؤنب نفسه على ثقل دمها

وعلى ادعائها الاختناق وعدم القدرة على احتمال المزيد وعلى إحساس مصطنع بعدم الانتماء إلى الناس. هؤلاء هم الناس، الشعب، ملايين الكيلو مترات من الأعصاب وحبال الأفئدة. ناس يشبهونك رغم أنفك، تهرع إليهم كلما ضربك مس الجنون والعظمة، وتتضرع إليهم ليأخذوك في حنان كثرتهم. ناس أكثر إحساساً منك يا حسّاس، لأنهم ناس حقيقيون. بشر يبكون ويخافون القصف ويحلمون بالغرام، لكن يرقصون.

يجب أن ينجح التلفزيون في رفع معنويات الشعب، وها هو يرفع معنوياتي. وأنا متوجه إلى سهرة، يجدر بي أن أكون لائقاً قليلاً ومنفتح القسمات. وراح خليل يسوي هندامه وهو يمشي ويدعو نفسه للاستغراق في مشاهد سهرة التلفزيون. لكن الشريط الذي كان يمر في رأسه كان يتوقف ليكرّ عكسياً كلما وصل إلى صورة المطربة المنفوخة القسمات المائعة الوجه بالعرق وبدهن المساحيق المتداخلة الألوان وهي تصرخ من رقبتها كأنها تلد، حتى أزاح السهرة من رأسه وهو يقول بصوت يكاد يكون مسموعاً..: هناك ناس خلقهم الله على هذا الشكل... هكذا أنا، إنسان ثقيل، ومصاب بفتق في عقلي...

كانت مبيدات، أو طاردات البعوض، تلك التي تعمل على الكهرباء حين تفيض نعمة التيار، وتلك التي تحترق مرسلة دخانها الخانق، لا تزال تنجح بنسبة كبيرة في إخراج تلك الحشرات من النوافذ المشرعة لتتجمع بطنين خافت في هواء الشوارع الفاتر المنخفض. بيت نايف كان يقع في منطقة بعيدة كل البعد عن أن تكون شعبية إذ برغم حماس نايف الذي لا يفتر لقضايا الشعب إلا أنه تحاشى بكد أكيد ولقاء أجر شديد

الغلو، تحاشى المناطق الشعبية إذ صدف أنها مناطق «سادة» كما كان يقول أي ذات حشد طائفي خالص فيما المناطق غير الشعبية ما زالت تحافظ ولو بحد أدنى على اختلاط بين المذاهب والطوائف مما يبرر لنايف نشاطه الوطني.. وفكر خليل بأبي أرتين صاحب محل الآلات الموسيقية الذي تحوّل إلى دكان للفلافل والفول بعدما نهب كذا مرة واشترى أبو أرتين محتوياته كذا مرة قبل أن يتأكد له أن البلد اختار موسيقاه، ويذهب للعيش عند أرتين في أنطلياس... وكيف كان وجهه، المحمر دوماً الموشك دوماً على الاعتذار يبعث ما يشبه الخجل أو الارتباك.. أو لعله احمرار شرب العرق. ثم فكر خليل بجارة نايف الهولندية التي كانت تطلب الحشيش بالصوت العالي من كلود، وتمازح الجميع قبل أن تصاب «بهستيريا ريتا» كما أسمتها كلود.. فريتا التي كانت كثيرة العشاق والمزاح والصنادل الملونة والتي كانت تتحمس زيادة عن اللزوم كلّما ربحت بالورق في الملجأ أو على سفرة الدرج وتروح تخطب في الشعب، باليابانية، ريتا تلك اختفت فترة لتكتشف الهولندية أنها تنام وتصحو أمام مزار للعذراء مريم أقامته في زاوية غرفة نومها... وأنها لا تتوقف عن البكاء خشوعاً أمام الصورة المضاءة بزيت الزيتون والتي ظلّت ريتا راكعة أمامها طيلة أسابيع طالبة منها الظهور ثانية لتملي عليها الرسالة التي وعدت السيدة بإملائها. لكن البكاء والصلوات لم تنفع بمحو ذنوب القديسة المقطوعة فأرسلها زوجها الشديد الجمال والأناقة إلى بيت أمه في القرية البعيدة وترك التجارة كمن يترك بئر الآثام ليتزعم تنظيماً مسلحاً موالياً لإحدى الدول القريبة مبرهناً بما لا يدحض بأن الانتماء ليس للطائفة وإنما للوطن،

وبأن على الجيران والمقرّبين أن ينسوا أمر ظهور العذراء نهائياً...

فقط الجارة الهولندية لم تبلع الحكاية... حتى بعد أن نسيها الجميع ظلت هي تُتخبط بما أسمته كلود «كريزة ريتا» ثم «هستيريا ريتا» إذ ظلت الهولندية تسأل بإلحاح عما أصاب ريتا لأنها تريد أن تفهم. وذات يوم جاءت الهولندية تودع كلود لأن فرج زوجها قرر أن يرسلها، مع ولديها إلى هولندا لأن ذلك أفضل لهم ثم لأن ذلك يخفف عن فرج المريض بالوهم، ثم لأن ذلك يفسح في المجال لسكرتيرته ليلى لترتب البيت على مزاجها ثم لأن ذلك يعطيها فرصة أن تعالج أعصابها المريضة عند اختصاصيين محترمين، كل ذلك في جملة واحدة والصغير الأشقر يمسك يدها. ثم قبلت كلود على عجل ووعدتها بأن تكتب رسائل طويلة لريتا إذ هي حصلت على العنوان.. وذهبت، تاركة كلود في مزيد من ضجرها العضوي.

رغم أن منطقة بيت نايف لم تكن شعبية بالمرّة إلا أن غيوم البعوض الصغيرة كانت تضرب وجه خليل فيروح ينفّ بقوة لإخراج ما قد يكون دخل من أنفه وعلق بخياشيمه المزكومة من الرائحة السميكة المتصاعدة من كوم الزبالة.. وكان يحاذر وهو يمشي أن يفتح عينيه جيداً ليرى أين يضع قدمه إذ كان يكره كثيراً أن يدوس صرصوراً متثاقلاً فيسمع طقشة انمعاسه تحت الحذاء رغم أصوات المولدات التي تعزّ في المداخل وعلى الشرفات.. إن درجة تآلف تلك الحشرات والجرذان والقطط الشاردة مع الناس والبيوت، تلك الدعوة المتصاعدة إلى التقارب والتآخي كانت تشبه إقبال عصر جديد ينكشف فيه

ذكاء تلك الكائنات فترى كم أن سلوك البشر غدا يشبه سلوكها، كم أنهم في طريقهم إلى نسيان عجرفتهم القديمة من التمسك بأهداب النظافة ورش المبيدات وحرق الزبالة وإخفاء أوساخهم بما يشبه تجاهل الذنوب.. كم أنهم أكثر ركوناً الآن إلى الظلمة والأماكن التحتية الرطبة.. كم أن حب الحياة الحقيقي هو مناقض لتلك العجرفة التي اخترعها الإنسان وتبنّى أوهامها بتشنج منذ مدة وجيزة ومصطنعة. صار الجرذ الجبان يمر بقرب قدم أخيه الإنسان بتؤدة ودونما ذعر أو إحساس بالنقيصة، وقد ينظر في وجهه طويلاً قبل أن يغمز لرفاقه باللحاق به إلى شوارع صار يملك حيزاً حقيقياً فيها.

الجرذ ذكي جداً، فكر خليل، فهو لكي يستطيع أن يحمل صابونة أو بيضة مثلاً يلف نفسه حولها جيداً فارداً قوائمه الأربع ثم ينقلب على ظهره فتصير هي إلى فوق محمية بكامل جسمه وعندها ينبري شريكه إلى الدور المناط به فيقوم بجره من ذنبه إلى حيث المائدة... الذكاء هو رؤية المستقبل والتخطيط له، واستعمال الأدوات... هذا كله متوفر عند الجرذ... إلا أنهم يتوالدون بطريقة مخيفة... إن الطبيعة، الموكل إليها أمر السهر على التوازن على هذه البسيطة ما تزال تقوم بعملها على أكمل وجه.. فالكائنات الذكية بدهياً، أي الناس، تقل نتيجة الحرب، وكذلك يقل نشاطها الذهني أو ذكاؤها،فتعوّض الطبيعة عدداً ونوعاً بمخلوقات أخرى.. على أي حال صار مؤكداً للناس أن هناك من يساكنهم في بيوتهم. كلهم يعرفون وصاروا أكثر تسامحاً بكثير من ذي قبل.. حتى أن الجرذان التي تمر في صالون البيت هناك، كانت تتوقف لثوان

او تروح تلعب قبالة أفراد بيت عمه إذ كانت القباقيب والأحذية بعيدة عن متناول أيديهم...

تحت تلك السماء الزنجارية المنفوخة بالرياح الخمسينية كانت امرأة تشطف حافة شرفتها المعدنية فتتساقط المياه على البراميل المملوءة بالباطون لسدّ الرصيف قبالة واجهة محل الأدوات المنزلية فتنثر رذاذها.. نفض خليل كتفيه وشعره ودلف خلف حجارة الباطون إلى مدخل البناية وهو يفكر بتلك المرأة المستوحشة التي ما زالت تعتقد أن بإمكانها شطف ومكافحة ما يذريه الشارع على شرفتها، وفي عينيها...

* * *

الأجنبي كان هناك يستحوذ على انتباه كلود لكنه هذه المرة لم يكن يستحوذ على جو السهرة بالكامل كما في المرة السابقة. فنزار الذي قرر العودة إلى المدينة بعد سنوات باريس الطوال كان غير متحمس لملء مكانه أو أنه كان يشعر بأن الحوافز ليست كافية وأن استقبال الأصدقاء لم يكن على المستوى المتوقع عاطفياً أم تراهم يتهمونه بغيابه ويستعلون عليه بملازمتهم لمدينتهم في أيامها الكالحة فيدللون أنفسهم بما تستحقه من دلال وغنج الزوجة الفاضلة الوفيّة التي لا تدير ظهرها لزوجها لمجرد أن أصابته عنّة جنسية عابرة.

أحضرت كلود دفتراً ذا حافظة جلدية وراحت تسجل عليه عناوين يمليها الأجنبي بحماس.. ستتركك كلود يا نايف، قال عبد النبي. إنها تحكم علي بالإعدام أجابه نايف.. لو لم تكن على هذا القدر من الاسمرار لسمعت ما لا يرضيك لا أنت ولا صديقك، قالت كلود، فتوقفوا عن التحرش بي...

كان عبد النبي يستعرض دهشته لإمكان أي لبناني مغادرة بيروت إذ هو «العاشق الأبدي» كما كان يسمي نفسه، لا يحلو له العيش إلّا إذا مر مرة في السنة على بيروت.

تلك العشيقة التي جعلته أعجز الرجال، لا يحسن الحب في أي منطقة من العالم. لكن كلود عاجلته لتقطع استرساله حين بدأ نشيجه على بيروت فصرخت: عبد النبي لا تحاول إقناعي بأن ما أراه تحت بنطلونك صار كالبالون المنفّس. لن أقوى على العيش مع صورة كهذه في رأسي. أن أصبح عاجزاً جنسياً، قال عبد النبي ضاحكاً، فهذا أمر، إن حصل لا قدر الله، لا يحتمل الشك أو صعوبة التصديق. سوف لن أقدر وسيكون الأمر واضحاً لكن أن أصدق أن بيروت انتهت، ماتت.. أن جاذبيتها الخارقة، أن بريقها قد خبا... كل مرة أعود لأتأكد لكن غليلي لا يشفى. أرحل أكثر حيرة وضياعاً وتشكيكاً... كلنا نحن الشباب، من أي قطر شئت ضائعون بلا نجمتنا التي كانت وما تزال قطب قلوبنا.. يا عالم افهمونا، إننا دونها كالأيتام. لكن نديم، زميل نايف في الجريدة، والذي كان يبدو الأقرب إلى الاندماج بمشاعر عبد النبي قال له.. متى ستتركنا يا عبد النبي هذه المرة؟ الآن. حالاً، أجابه عبد النبي.. صرتم غير محتملين... إذا كنتم أنتم المشككين فإن خسارتي عظيمة... لكن نايف صاح: ماذا تقول يا رجل.. قال عبد النبي.. كثيرون غادروا.. كلود مثلاً، كم هي فرحانة بالرحيل.. لكن نزار عاد، قال نايف مفتخراً بصديقه، فهز نزار راسه متنصلاً. أمر لا يصدق.. سنة بعد سنة بعد سنة... شواطئها، شوارعها، مقاهيها... سوف أقول هذه المرة ما يمكن أن يؤلمكم... أنتم لا تكتبون.. توقفتم، أعتقد، عن الكتابة عن الشعر وعن الرسم.. لا

ترسمون.. أحياناً، أعترف لكم، بعد الذي جرى ويجري في بيروت لكم أتمنى أن أكون لبنانياً... أن ما يجري قد يكون انفجار العصر، وأنتم المبدعون داخله.. ما تفعلون؟ أنا لا افهم.. ما يجري حلم فنان يتحقق.. العرب يكتبون عما يجري أكثر منكم وأنتم.. مع كل ما كان من غليان وإرهاصات، كأنكم ما زلتم تحت وقع الصدمة كأنكم لا تفهمون أو.. لا تريدون أن تفهموا.. كأن كل تلك الإرهاصات..

على مهلك قالت كلود... ما تعني كلمة «إرهاصات»، الرجل هنا ـ وأشارت إلى الأجنبي ـ يهمه كذلك أن يفهم... وبعد أن شرح لها نزار معنى إرهاصات قالت إنها كلمة بشعة وتوقفت عن الترجمة للأجنبي، وقطعته في نصف الطريق، فبدا أكثر ضياعاً وتقنيناً لابتساماته.

نجح عبد النبي في تفريغ الجو وشده إليه فتابع بحماس... من لم تكن تعترف به بيروت كان يبقى في الظلّ، يسقط، لا يأخذ فرصته... كنا نأتي إليها لنكون...

كم عمرك يا عبد النبي.. صار أكثر من خمسين؟ لا... أقلّ.. لما لا تتزوج وتنجب لك ابناً.. اختر لك امرأة من ريفكم و... لكن عبد النبي تجاهل وتابع: كافتيريا كلية الحقوق، كافتيريا كلية التربية، الدولتشي فيتا، الهورس شو، المسارح، حتى السوق العمومية... لا أستطيع أن أنسى... أنكم تغادرون وكأنكم تخونونني، تخونون جيلاً بكامله... أنا شخصياً أحس أنني أخسرهم هؤلاء الذين يغادرون.. إنكم تخنقونها برحيلكم... لستم تستحقون بيروت... لم أعد أجد إلا القلائل.... قد تكون زيارتي الأخيرة يا أصحاب... قال عبد النبي جملته الأخيرة

بدرامية بادية ثم نظر يتلقّى ردات الفعل، نايف هزّ رأسه أسفاً فيما لم يـــدار الباقون ضجرهم ونعاسهم... هل كان الأمر بهذه الهشاشة يا نايف؟ لم يعد هنا إلا القلائل... الذين... ما رأيك يا نايف... أنت معني.. امرأتك ستترك البلد.. نهائياً كما أعتقد أو لعشر سنوات... من يبقى؟ قل لي.. من لا يملك ثمن التيكيت قالت كلود. أو من يتاجر بالسلاح أو بالـ... ثم على فكرة.... لماذا لا تدفعون ثمن المقالات والمساهمات الصحفية والأدبية في مجلاتكم كما كنتم تفعلون قبل سقوط الليرة.. صرتم تقولون يكفيهم عشرون دولاراً هؤلاء الذين طالما تكبروا علينا وأفهمونا أنهم ربّ الثقافة وأن لا اعتراف بنا خارج عصاباتهم كما كنت تقول. هؤلاء اللبنانيون الذين يقرأون باللغات الأجنبية ولا يترجمون إلا في أوقات فراغهم حتى نبقى دائماً وراءهم بأزمان... أنتم الآن تشمتون يا عبد النبي.. تشغلون اللبنانيين بالقروش لإذلالهم... كل كلامك وأغانيك الحزينة ليست سوى هبلاً وشماتة... لو تحلّ عنا يا عبد النبي أنت وعشيقتك الخرا بيروت.. صار عمرك خمسين سنة اترك العشق وتزوج وخلّف وسوف تنحلّ مشكلاتك ومشكلاتنا معك..

توتر الجوّ إذ خففت كلود كثيراً من ثقل الجو ومن ضجر الحاضرين.. وازدادت حيطة الأجنبي فيما اختفت ابتساماته.

قال نايف بهدوئه المعهود حين يكلم كلود: صار يجب أن تتركي البلد بسرعة يا كلود لأنك بدأت تتصرفين كالمهسترة.. أنتِ تعرفين تماماً عبد النبي، ومنذ زمن بعيد لا يستطيع أن يرجع إلى بلده. إنه منفي لأنه ما زال معارضاً شرساً لنظام بلده الذي لا يقبل أي شكل من أشكال المعارضة...

فليكف عن المعارضة حيث لا نظام بالمرّة... حيث لا شيء بالمرة.. قاطعت كلود.. إنه لا ينام ليلة ملء جفونه إن لم يكن مادحاً الشهداء.. ووردة الدم والقبضة التي تعلو بوجه الكذا والكذا والحرية وتدمير الـ.. القيود والأطر.. يا أخي لماذا المنفى ممنوع عليّ أنا؟ ثم.. فليدمر ويفجّر ويستشهد في بلده.. والله مسخرة. ماذا ينبغي أن أفعل أنا لعبد النبي حتى يكف عن لومي وتأنيبي على طفاشي من هنا. ماذا أستطيع أن أفعل له حتى يكف ولو قليلاً عن انتحاره البطيء حزناً علينا... والله هذه وقاحة ليذهب ويتكلم إليك في الجريدة أنا لا أريد أن أستمع إليه... ما تنتظر يا عبد النبي قم واذهب... عد إلينا عندما تكون أفضل مزاجاً.

لأول مرة تترك كلود شحوبها الأبدي وذلك الضجر المزمن... كان وجهها أحمر قانياً وحبال رقبتها الصغيرة نافرة ومشدودة.. إنها المرة الأولى التي أراها تبذل مجهوداً كهذا رغم كونها المرأة الوحيدة هنا، بطلة السهر بلا منازع.. ومع هذا ساء مزاجها إلى هذه الدرجة. قال عبد النبي: حسناً يا كلود.. أنا أفهم.. أنتم تعبانين.. أعانكم الله.. ما من شعب يحتمل كل هذا. يريد أن يشفق عليّ الآن.. قالت كلود بعد أن استعادت هدوءها. ثم.. أرجو أن تكف عن التكلم إليّ الآن إذا كنت تريد أن تبقى في بيتي.. «أوكي» عبد النبي؟! يا نديم.. اذهب واسكب القليل من البنزين في خزان المولّد. الغالون قرب البراد اجلب بطريقك المزيد من الخبز. خليل.. اقلب الكاسيت. أنا ذاهبة للنوم. نايف لا تنس أن تخرج الزبالة.

تعالت القهقهات حين راح عبد النبي يغدق على الجميع

نكاته الجنسية الشهيرة. ودّع الجميع بحرارة بالغة وذهب رافضاً أن يبيت ليلته عند نايف، مدعياً بغمزة من طرف عينيه بأن هناك من ينتظره.

بعد قليل قال نديم: والله يحبون بيروت كثيراً.. ثم، قال الرجل كلاماً صحيحاً أننا لا نفعل شيئاً.. لا نكتب، لا نرسم.. إننا فعلاً، بلا مبالغة كما قال هو. لسنا نفهم ما يجري بالضبط. كيف؟ قال له نايف بما يشبه التأنيب الحزبي.

مال نزار على خليل هامساً: منذ توقفت العلاقة بينهما، وصار عبد النبي يباعد ما بين زياراته صارت كلود عدائية جداً، كأنها تكرهه لأنها لم تعد تستمتع معه.. تبدو مفاجأ يا خليل.. لا.. تصلنا أخباركم كما لو كنا هنا بينكم وأكثر.. أكثر ما يوترها كلمات مثل المنفى والتشرد والحنين إذ هي التي اجتذبتها في ريعان الصبا.. كأنها نادمة.

أخبرنا.. أخبرنا أيها الباريسي. مالك لا تتكلّم.. جعلت عبد النبي يسرق منك الأضواء، قال نايف بمرح ظاهر لتجديد السهرة مع أن الاحمرار كان بادياً في عينيه، ردّك الحنين؟

يسهرون كأنهم مسجونون مع بعض فكر خليل إذ أحس أن لدى الجميع رغبة أكيدة في الخروج وفي القَسَم على أن تكون السهرة الأخيرة.

أي حنين؟ قال نزار.. إنها بضاعة تصلح لمن هم مثل عبد النبي. وحين عاد إلى صمته كمن يقفل باب الكلام تهيؤاً للخروج، أكرمه نايف، بأن أردف متسائلاً كيف يا نزار؟ لا يصلح لنا الحنين، نحن، إن غادرنا بلادنا؟ لا... قال نزار..إن

المنفيين كمثل عبد النبي يشغّلون حزنهم كـالمعامـل وكل الشباب العرب يصلحون عمالاً.. تصير المسألة مهنة دون أن يدروا... هنالك سعادة أكيدة لكن دفينة عندهم لإحساسهم بأنهم غادروا بلدهم لكنهم حملوا قلبها معهم. ما يتركونه لا يشغل بالهم بالمرة ما تركوه هو الشكل الرديء، هو الفراغ.. أخذوا الجوهر وتركوا القشرة. لو تراهم في باريس مثلاً، على الجميع التعاطف معهم وتشغيلهم... وعلى اللبناني خاصة أن يكفّر تجاههم عن خيانتهم فلبنان كان الوعد بالثورة، كل انواع الثورات، وقد خانهم والأنكى أنك إلى جانبه هناك، ولا تتابع نضالك هنا، كأنك تتقصده.. هكذا يعتب عبد النبي، هناك كذلك من نفى نفسه يستطيع أن يعيش في بلده وأن يعمل تقريباً كل ما يريد لكنه يختار أن يكون منفياً لأنه من عمق الثقافة بحيث لا انتماء محدد له وبحيث لا تكفيه آفاق بلده الضيقة التي تحد من انطلاق شهرته.. هذا يرى أن بلاده فارغة أصلاً وهو حين يغادرها لا يحمل منها سوى بعض ذكريات البداوة المذلّة لكنه يروح يحن إليها هناك، بعيداً.. يكتب حنينه ويغنيه وتتحول المسألة مرة أخرى إلى مهنة، وإلى سعادة دفينة لأن الآنف الذكر يحقق إنسانيته على أعلى مستوياتها.

وأنت يا نزار قال نايف.. لماذا غادرت؟.

أنا غادرت لأنني لم أرض أبداً عما يحدث ولم أجد طرفاً أنخرط فيه.. ولا طرف.. لم أجد لي مكاناً فطفشت لأنني لم أعد احتمل ولأن كمية الأخطاء والمهانة سدت أنفاسي... دعك مني.. كل اللبنانيين الذين غادروا لم يجدوا مكاناً.. هنا قد نغادر بسبب انقطاع الكهرباء الدائم أو بسبب الزبالة أو فلتان

الأمن أو كساد تجارتك لكن هناك لا تكون... إما تنتظر أن تعود وإما تيأس من العودة وفي هذه الحال تكون إنساناً يائساً لا إنساناً مقيماً حيث تكون... لم تكن بلادك فارغة حتى تخترعها في الخارج ولم تكن ممنوعاً عنها حتى تحتج عليها بالنفي والحنين. الكهرباء ممكن أن تعود بثانية في رأسك والزبالة أيضاً ترفع بساعة وتجارتك تزدهر في اليوم التالي... يلزمك أسباب للاقتناع حتى تتخلى وحتى تسلك في الخارج.. حتى تجد صيغة للبقاء بعيداً ثم... تعتقد أن حمولتك الثقافية سوف تسمح لك بالعيش.. تكتب وتقبض ثم تعيش على ذوقك.. تطلع النتيجة أنه ممنوع أن تكتب أو أنه لا يبقى في رأسك شيء تكتبه.. تصبح كالمكاري في المؤسسة التي تعمل فيها.. تنقل مياه الجريدة أو نظام الدولة على بغلتك للناس، وأي ناس، وأي مياه.. مياه فاسدة.. تهرب من فساد هنا إلى الهواء الديمقراطي العالمي فتعمل ما تأنف أن تعمله هنا.. هنا تحتج وتزعل على الخطأ.. هناك تمارسه وتدخل في شبكته وكل ما يهمك هو أن تستمر بالقبض حتى لا تجبر على العودة إلى الخطأ... فضيحة...

هذه المرة نحن يجب أن نحزن على نحن، أي نحن على نزار، فكّر خليل.. ولو من قبيل المروءة. ما كان ينبغي أن تعمل في الصحافة.. هذا كل شيء، قال نديم، لو عملت تاجراً أو بواب عمارة لانتفت المشكلة إذن. يلزمك المال لتتاجر أجاب نايف.. ثم ليس لك الحق بأن تكون بواب عمارة لأن الفرنسي أحق منك بمهن بلده.. أينما كنت تعمل عربياً ولا فكاك لك من المسألة.

ولماذا عدت؟ سأله نايف الحنون مانحاً إياه فرصة عودة الابن الضال. عدت لأن كل الحياة عبارة عن مجموعة شطارات في العلاقات.. أن تلمع في العلاقات الاجتماعية.. وأنا بغل في العلاقات الاجتماعية...

* * *

لقد طردوه من المؤسسة التي كان يخدم فيها.. كل طواعيته ومرونته وثقافته التي تعب في تربيتها وفي تشذيبها حتى لم تعد تلبط لم تنفع معه... استغنوا عنه وعن شطارته وشغّلوا مكانه من هو أقل ذكاء ومثاراً للقلق، من هو أكثر طواعية وموالاة لسياسة دولة المجلّة، من هو «أحمر» منه بكثير لأنه أهنأ بالأ بكثير... ربما أحد هؤلاء المنفيين من بلادهم «الشقيقة العدوة ذات الحكم الفاسد»، الذي ينبغي إسقاطه لتستقيم أمور السعادة، ربما من عنده زوجة جميلة تشكل وردة اصطناعية في شعرها وتضحك للساهرين.. فكّر خليل، مخترقاً غيوم البعوض.

لكن البغل في العلاقات الاجتماعية عاد إلى باريس بعد شهرين من تاريخ تلك السهرة، بعد تلقّيه رسالة من صديقته الفرنسية متسامحة فيها على كل ما جرى واعدة إياه بالزواج وبالجنسية الفرنسية وبالعمل في متجر خالها الذي يكرر حبه له، بمجرد أن تطأ قدمه الحبيبة أرض مطار أورلي حيث كانت تنتظره، رغم تأخر الطائرة، ودموعها تسقي باقة الزهور البرية التي ذبلت قليلاً على ذراعها...

أما الأجنبي فقد ظهر بادي النحول على شاشات التلفزيون ذات مساء ورغم أنه حقق حلمه بأن يكون في قلب الأكشن، وفي قلب بركان العالم المتفجر حيث لا ضجر بالمرة، خاصة

وأنه ملأ الدنيا وشغل الناس بخطفه من أمام بوابة الجريدة المحروسة حيث يعمل نايف، إلا أنه لم يكن بالسعادة التي كان يحلم بها. وكان ضجره هذه المرة أكثر بداهة من خوفه من الذين يملون عليه التسجيل.

* * *

في طريق عودته من السهرة مرّ خليل من تحت شرفة المرأة التي كانت تعاند وسخ الشارع.. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.. رفع رأسه إلى حيث ما تزال أحواض الزهر تنقط ماء فوجدها وقد اعتلت كرسياً، ناشطة في تلميع الزجاج، وفي حب الحياة الذي لا يقاوم.

٤ ـ

في السهرة إياها، سمع خليل الكثير من الكلام، أكثر مما يستطيع أن يتذكر وأحس أن رأسه قد امتلأ حتى حوافه كلها، فقرر الا يستجيب لدعوات نايف المتكررة بوجوب المرور به في الجريدة لأن هناك أمراً مهماً ينبغي التكلم فيه.. لكن التكلم والكلام، خاصة ذلك النوع الذي يعرفه خليل جيداً، ذلك الذي يحزّ في الأذن كأنه يدخلها بالقوة، لم يكن خليل قادراً على سماعه، ولبث، مع أوجاع معدته المتواترة، في غرفته.. أتراها كانت مجرد حجج واهية لإثارة حزن يوسف على من يكابد اعتزال العالم فيستحق، ولو شفقة، زيارة أو سؤالاً من وقت لآخر.

إن انتفاء رغبة خليل في الكلام صار أمراً محرجاً يبدو أقرب إلى الاحتجاج أو الضجر والانصراف عن المتكلمين، وبالتالي

فمن لا تمتد يده إلى صحن الكلام فيشارك ويمالح ويقتسم الخبز هو بالضرورة مستمع كسول أو معترض متعال.

من زمان كانوا يتكلمون كثيراً وبقابلية من اكتشف لتوه سحر النطق.. كانوا كمن يجلس في مرج أخضر تحت شمس لطيفة وفي نسيم عليل وتروح الجمل تتدفق كجداول صغيرة تسقي النبات الطري فتنمو الشجرات وتزهر وتينع الثمار بلحظات قليلة. بدأوا من متعة الكلام عن وجود الله إثر قراءتهم لبعض الكتب التي وصل لقاح صفحاتها الريّانة إلى قراهم البعيدة، ثم شيئاً فشيئاً وكما تفعل المياه الغدارة صارت الجداول الصغيرة تكبر حولهم حتى غمرت سيقانهم الرقيقة فارتفعوا كل إلى تلته يكابد غربة الفهمانين وعزلتهم، لكنهم، على أي حال، استمروا بكلام أخذ يشبه الإنشاد الصولو.. ثم فجأة علت المياه الغدارة كثيراً وجاء السيل وظل عدد الناس الذين يموتون في الحرب يكبر حتى تفرق شمل المنشدين ولو لم تخف نسبة ارتفاع السيل. منهم من انخرط في العراك وتبنى كلامه الذي قيل، وكانوا قلة.. أما الباقون فمنهم من استسهل طريق الأزمة النفسية والانهيارات العصبية فمنح نفسه غفراناً، ومنهم من رأى في الاعترافات المكتوبة فضيلة الرجوع عن خطأ الكلام فشمله عفو الكتابة الصغير وتناسى الناس أخطاء بعضهم البعض فيما بقي الشهداء، هؤلاء الذين أغراهم السماع أكثر مما ينبغي، مستمرين في الاستشهاد وكأنما عن حقد يسعى للتوريط ولا يميل إلى الغفران. تناسوا أخطاء بعضهم البعض لكن كراهية عميقة سادت القلوب إذ كان كل واحد يخلص مع نفسه، فإذا صدف أن رأى أحد هؤلاء

الأصحاب، تذكر نفسه التي يحتقرها، وأيقن كم أن الصاحب يشبه تلك النفس فما وجد مناصاً من احتقار هذا الشبيه وكرهه رأفة بنفسه، وفي مجال الدفاع عن النفس كل الوسائل مشروعة جائزة، حتى ابتكار تلاوين وأفراح جديدة عن طريق القمار أو خيانة الزوجات أو الرقص على موسيقى البوب التي للأسف وفي جملة مضيعة الوقت، قد أضاعوا حقبات منها.

المدهش، فكر خليل، إنهم غيروا أوعية الكلام لكنهم لم يأنفوه تماماً، ظلّت نفوسهم تحن إليه حنينها إلى ماضيها الذي تقضي الضرورة القصوى أن يكون ماضياً على جانب كبير من البراءة.

النساء تلك المخلوقات المباركات لا يتكلمن... إنهنّ يغردن ويغنين.. لا يصنعن جملاً ذات أفكار، وإذاً فهن لا يسعين إلى صنع تواريخ حين يتكلمن. المدفع لا يقصف، الذي يقصف هي الفكرة التي سكبته..

النساء لا يحببن المواضيع. إنهن يتنططن بين الجمل الخبرية كالفراشات الخفيفات.. يقلن كلاماً مفيداً، كلاماً يشتري خبزاً ويقلي بيضاً ويغسل غسيلاً ويصلح حنفية.. يقلن الكلام الذي يضحك أو ينغّس. الكلام الذي إن خرج إلى الشارع عاد سريعاً إلى البيت.. يتكلمن ساعات طويلة دون أن يؤذين نملة. ساعات على التلفون، ولا من أوامر أو خطط، ساعات على الفرن لكن الخبز ينضج ومعه المناقيش الشهية... كلام إن طال أقصى أذيته، فهو قد يجعل إحداهن تتقاتل مع كنتها لكنه لا يشعل حرباً في شارع.. كلام ببلاش، حول

النارجيلة، كلام لا يقبض مالاً وهو حين يريد أن يقبض يكون واضحاً فيعزمك إلى سرير ذي أضواء شاحبة في السوق العمومية أو في الغرفة الزوجية فيما الزوج يرتب العالم بشكل مضجر لشدة مثابرته وإثارته للضجيج والنقع. لا يلزم النساء مالاً، ما يلزمهن هو حاجات كالأكل والشرب والنوم واللطف والفساتين والمصاغ... لذا فهن لا يرثن الكثير، ولا يتخابطن مع الأفكار الكبرى.. يشعرن بفائدتهن بالتنظيم الصغير، ذلك الذي يقتصر على بيتهن أو أعمالهن الملحقة، ولذا لا إحساس بالنقص أو عدم الفائدة لديهن ولا إحساس بضرورة الأفكار الكبيرة التي تنظم العالم. عالم النساء منظم ومقبول، وما يلزمه أحياناً يقتصر على بعض الرتوقات الصغيرة.

تجلس امرأة عمي على الأرض، وسط الصالـون، تنقر الكوسى وتتحدث مع نساء من ضيعتها عرفن الطريق إليها.. كل ما يقلنه في السياسة هو أنهن لا يفهمن في ما يكدّر النفس... يبكين حين يتذكرن أحد الميتين ويضحكن عن طرافات تحصل إبان العزاء أو الدفن.. يصلن هامسات إلى حكايا الجنس ولا يتبجحن سوى بفحولة أزواجهن وبحبهم لهن وبشرفهم الذي لا يقبـل المساومـة... يتشكين بدلال عن صحتهن المتدهورة ويسرهنّ أن يبدين شابات بعيدات عن العجز. يتكلمن عن أطيب الطبخ وعن مشاريع الأولاد التي لا يفهمن منها سوى العناوين.. كان يوسف يريد أن يدرس التي قال لها عنه ابن عمه خليل، الفوماتيك، تقول عن الأنفورماتيك، ثم تضحك واضعة يدها على فمها، فيما عمّه، رغم اعترافه المتكرر بقصوره إلا أنه كمن لا يهمل واجباً مهما صعب، يظل يريد أن يتحدث بالسياسة... يدلي بآراء يكون قد عارضها بقوة

مع جار له، ويتحمس لها حد طعن المعارض وجندلته.. حتى أنه يستدرج السامع للمعارضة أملاً بذلك... لكن دائماً ينتهي به الأمر إلى لعن السياسة والزعماء الذين أوصلونا إلى هذه الحال...

حين كانت امرأة عمي صبية تتعلم من أمها الطبيخ وتغسل وجوه أخوتها الصغار وتحلم بعبد الوهاب كان عمي المتشبّث بدكّة بنطلونه القصير، يسبق المظاهرة الصغيرة ببضعة أمتار قافزاً في الهواء محورباً حتى يبح صوته:

أخوي في بغدادِ
خلّي الرصاص ينادي
أخوي في الأردنِّ
خلّي الرصاص يغنّي
أخوي في الحجازِ
أمّم أنبوب الكازِ
أخوي في الأوراسِ...

أو: بدنا الوحدة هبرة زلط
من غير نصب ومن غير خلط.

أيام، يقول عمي ويتنهد حنيناً قبل أن يتابع: عبد الناصر يا جمال، وتحيا الأمة العربية، ونحنا أممنا القنال، وموتوا يا إقطاعية... كانت السياسة لذة...

المتعة الحقيقية في المظاهرة، فكر خليل كانت في احتلال الإسفلت.. في وقف كل حركة في الساحة الصغيرة، وبخاصة استعادة المكان الذي بالغت السيارات المتكاثرة يوماً بعد يوم

في احتلاله محتقرة المشاة حاشرة إياهم في المعابر الضيقة وبين صناديق الدكاكين... السيارات التي كانت تذهب إلى البعيد إلى النبطية وأكثر، تذهب إلى الشياح، إذ بيروت كانت يومها الشياح، سينمات الشياح والبنات الخاسرات عن رؤوسهن والناس المتبجحين الذين لم يعودوا يزورون الضيعة إلا لماماً وفي المناسبات القليلة...

كان الزائرون قليلين لدرجة أن البوسطات التي كانت تأتي من البعيد كان لها أسماء: «رابحة» و «غزالة» و «ليلى مراد»... وكان عم خليل الحردان ينتظر المظاهرة حتى يحتل الأسفلت ويوقف دوران الدواليب المغرورة، وينتقم.

كان كلما تظاهر مسّد على شاربه وامتنع عن تنفيذ أوامر أمه له بمساعدتها وتهيأ بهمّة أكبر للرجولة. فمن يتظاهر يفهم بالسياسة، ولا يفهم بالسياسة غير الرجال.

* * *

خليل لم يشتغل بالسياسة لكنه كان يتكلم قليلاً فيها في محاولة منه للفهم، وللدخول في جماعة الرجال. كانوا يعتقدون دائماً أنه أصغر سناً ويصبرون عليه. كان خليل أكثر ميلاً للأدب والقراءة المخلوطة لكن كل شيء كان يفضي أيامها بالضرورة إلى السياسة ولذا راح يسأل ويستمع ويسهر. والجماعة ـ تلك النعمة ـ كانت مبلوفة بأسئلته، كانوا يعتقدون أنها تضمر أكثر مما تُبدي بكثير، وبأنها ليست بالبراءة أو السذاجة التي تبدو عليها. وبقدر ما كان هو بحاجة إلى الجماعة، العائلة الجديدة، كانت الجماعة بحاجة إليه وإلى

أمثاله من الشبان القرويين المجتهدين في دروسهم، ذوي الشكل الذي يوحي ببياض السريرة وبالصدق.

لكن الكلام الذي بدأ، حتى مع خليل، يركب المناطيد الملونة ليذهب عالياً في السماء سرعان ما صار يسقط كذباب ميت على الطاولة إثر حادثة محمد حداد التي لم يعرها الأصحاب سوى أسف عميق عابر، ومزيد من الكلام.

كان ذلك قبل أن يبدأ المستنكفون الزعلانون سلسلة اكتشاف الأخطاء الكبيرة. محمد حداد كان شيخ طريقة في الكلام وفي التحليل، كتلة نارية من نشاط لا يهدأ لا بالليل ولا بالنهار.. في ظهيرة الحرب قال محمد حداد: يا رفاق أرونا الآن عمّا يكون من الكلام الذي قيل ويقال، ليتشبث الآن كل واحد بكلامه كما كان يتشبث بتنورة أمه. هناك معارك ضارية والعدو معروف. نزل إلى خطوط التماس في الأسواق وراح يقصف كلامه لكن أخته الصغيرة ماتت برصاص جارهم القناص فعاد محمد حداد إلى الشباب وقلّ كلامه كثيراً. وذات يوم قال لهم: أقول لكم كلاماً جديداً هذه المرة أنا ذاهب إلى الجنوب لمقاتلة إسرائيل وذهب ولم يلتفت وراءه. بعد فترة سمع خليل بأن أخاه الصغير الذي كان يعاني من آثار شلل الأطفال، فجر نفسه في بيك أب وسط دورية إسرائيلية، فيما كانت أخته تعاني من ولادة متعسرة في إحدى مستشفيات إسرائيل حيث يعمل زوجها ويقبض راتبه بالدولار. حال عودتها إلى بيت أهلها المنسوف عاجلها ابن عمه الأصولي الذي كان تقدم لخطبتها ورفضته، عاجلها بطلقة في رأسها وأرداها على مسافة بضعة أمتار من زاروب البيت، هي ووليدها.

وذات يوم جاء الياس وقال: لا نجد أثراً لمحمد حداد، هل سمع أحد منكم عنه شيئاً. قال نايف يقال إنه يعاني من السرحان.. والهبل. ومرت أشهر قبل أن يخبر نايف خليل بأن جاكلين جعجع اتصلت به من بشرّي، على عمق مئة وعشرين كلم من خط التماس، في المنطقة الشرقية. قالت إنها رأت محمد حداد يمشي على طريق الأرز في شباط، حوالى الساعة الخامسة مساء والثلج حوالى نصف متر أو أكثر. اقتربت منه وتعرفت عليه. كان شاحباً ولا يلبس ما يتلاءم مع طقس مثلج، وسائراً على قدميه طلوعاً والليل يوشك أن يقع. عرفت أنه غائب الذهن تماماً. طلبت إليه أن يبيت عندها فشكرها بتهذيب قائلاً أن عليه أن يتابع.. خافت جاكلين عليه كثيراً وأصرّت أن يعود معها آملة بأخذه في اليوم التالي إلى طرابلس حيث رفاق له، لكنه رفض دعوتها وتابع سيره..

تابع محمد حداد سيره. قال الجميع: لم يتحمل.. البعض يسقط في الطريق، هذا متوقع.. محمد حداد تابع سيره ساقطاً، في الثلج، على ارتفاع ألف وسبعماية متر عن سطح عاصمة الكلام على بعد مئة وعشرين كلم عن رفاقه وعن خط التماس، على بعد مئتين وخمسين كلم، وبالاتجاه المعاكس، لإسرائيل... لكن خليل قرر أنه لن يفهم، وأنه سيعود، ولأنه على أي حال ليس رجلاً ليمشي..

* * *

وفقد خليل دفء الجماعة قبل أن تفقد الجماعة نفسها أو تخترع جماعات جديدة. لكنه كل يوم كان يعرف أكثر فأكثر سعادة أن تكون في جماعة ولو على طرف ذنبها. أن تستمع إلى

أصواتهم ونكاتهم وكأنها خارجة منك.. أن يمر عليك أحدهم ليستحم ويغسل جواربه ويأكل وينام ويندف قطن وقتك. أن يخبرك نكات عن أمه وعن عمّاته كأنهن نساء من إحدى المقامات، وتحبهن كأمك وعمّاتك. أن يروي لك ضاحكاً ما يخجل منه وما يحلم به، أن يتمرجل عليك ويكذب لأنك تعرف ولأنك تحكي... أن يخلع أمامك أهله ليختارك... حين تترك الجماعة تقع في اليتم الحقيقي، من فقدان أهلك المختارين الذين ولدتهم أنت لأنك أصبحت رجلاً. صديقك يكون أباك النهائي وتنسى الأول، تركته في زاوية ذكريات الطفولة لتصنع أحبابك الجدد، الذين يقفون بالكلسون ليتمشطوا على مغسلتك.

أمر آخر أبعد خليل عن الأصحاب... مزاحهم معه على سيرة البنات، وكثرة استعمالهم لغرفته في أغراض الحب مما كان يثير قرفه، وحيرته وارتباكه الشديد.

لشدة حزنه على أصحابه راح خليل يشجع يوسف للانخراط في إحدى تنظيمات المنطقة، أم لشدة النقص في المواد التموينية التي لم تكن تتوفر إلا لذوي البدلات المرقطة؟.

كان خليل يشعر بالحرج كلما نفد الخبز أو الغاز من فوق. كانت امرأة عمه تتدبر طحيناً ترقه وتخبزه على صينية الألمنيوم لكن الطحين شح ونفد الغاز وراحت تشتكي إليه كمن يستحثه على تدبر الأمر، وهو العارف بأمور المدينة والحي. أيامها كان خليل يسلق خضاراً وبطاطا ويقول إن ذلك يقيه آلام المعدة.

ذات يوم رجع يوسف بربطتي خبز، ألقاهما وسط البيت

وجلس مبتسماً. سارعت أمه إليه فرحة تسأله عمن أعطاه الخبز فأجاب باقتضاب: شاب صديقي، من الحي.

الآن صرتُ رجلاً ولا يمكنني أن أتجاهل، قال يوسف لخليل. أبي لا يستطيع تدبر الأمور.. إنهم شباب طيبون ولا يستطيع الإنسان أن يعيش لوحده كأنه متهم بالعجز أو بالولدنة. أنت ما رأيك؟.

كل ما حاوله خليل من استمالة يوسف عن طريق تمثيل شخصية الحكيم الذي يعرف كل الإجابات التي تشغل بال الشغوف بالأسئلة، كل ما حاول ادعاءه لدقائق قليلة يملّي فيها نظره من وجه يوسف، استحق حسابه في هذا السؤال.

هذا خيارك الشخصي، قال خليل وهو غارق في ورطته حتى أذنيه الحمراوين. هل في الأمر سوء، أردف يوسف.. نؤمّن احتياجات البيت ونقبض راتباً آخر الشهر. المطلوب أن ألبس البدلة أتدرب يومين على السلاح وأقوم بالحراسة من وقت لآخر...

لعل الأمر لصالحه، فكر خليل، لكل جماعته وليس أمام يوسف سوى تعاستي وإفلاسي وبؤس سكوتي، وإلا فدفء الأصحاب الذين اختارهم، فليختبره ويخرج حين يعن له الرجوع فلا أحد يستطيع ردع أحد.

سأخفي الأمر عن أبي، قال يوسف. على أي حال سوف يسافر قريباً إلى الإمارات مع أبي هاني حيث سيعملان بالعمار فالراتب جيد. لن أقول لأبي ولا لأمي. لماذا، سأل خليل؟ لأن كل الناس تلعن المسلحين. يعتبرونهم زعراناً بلا تربية يقتلون

وينهبون ولكن أنا ما شأني.. تستطيع أن تبقى أنت نفسك أينما كنت... على أي حال لا مجال للتنصل. ودرسك؟ سأل خليل.. أنا لا أملك ثمن القسط.. سأدخل المعهد الذي قلت عنه السنة القادمة، أكون قد جمعت القليل من المال. السنة القادمة قد تهدأ الأمور ولا يعود هنالك حاجة للتنظيمات. وإذا استدعوك إلى معركة ما؟ سأل خليل بادي الاضطراب.. أية معركة؟! هؤلاء لا يقاتلون. ثم لا معارك الآن، وإن حصلت أترك البدلة وأعود إلى البيت. لن أخجل حين تصير القصة قصة موت أو حياة.

أنا لا أجد أنهم بلا أخلاق إنهم شبان مثلي ومثلك فقط هم فقراء. إنهم متعصبون لطوائفهم، لأفكارهم.. قال خليل... لا، أفكارهم مثل أفكار كل الناس.. بل لا أفكار معينة لهم... أما تعصبهم فما شأني به... معه حق فكر خليل.. ليأخذ فرصة أن يتشابه مع أترابه ويصنع ذكرياته السيئة، أن يهنأ بهم ما طاب له ذلك وأن يرذلهم فيما بعد ويضجر منهم ويكبر، فلا بد من ذلك.. وإلا فبماذا أعده أنا؟.

سكت خليل فقام يوسف يعدّ الشاي مرتاحاً إلى اعترافه المقنع وإلى ردة فعل خليل التي لم تكن من السلبية في شيء. وراح خليل ينظر إلى رقبة يوسف، وإلى جسده النحيل من الخلف.

ـ ٥ ـ

صار يوسف يخرج كثيراً. صار لا يعود إلا لماماً إلى البيت ولا يمكث إلّا وقتاً قصيراً لكن كافياً ليلاحظ خليل كم أن خجله

قد تراجع عن وجهه وعن حركة جسده، الذي راح يأخذ فرصته في التمدد وشغل هوائه براحة وإلفة ودونما ارتباك أو عثرة. صار يتمدد على فرشة الأرض مباعداً ما بين قدميه مغمضاً عينيه الواسعتين وغائباً عن الحاضرين منشغلاً براحته تلك وانغلاقه الفعلي عمّا حوله.. صار كلامه قليلاً حتى مع خليل، يقتصر على سلامات على طريقة الرجال الذين يعرفون كيف يشغلون الأوقات التي لهم، الأوقات التي يحق لهم فيها أن يستمتعوا بانسحابهم، الآن وقد سافر والده إلى الإمارات.

إنه يكبر، قال خليل. وهو يستغرق في زمنه الخارجي فيما أنا أنتظر من الناحية الثانية من النفق، حاضناً بيض أحلامي كدجاجة عجوز.. أنتظر حتى يعرف ويملّ ويعود لنكون أكثر اقتراباً ولنجلس كأرملتين تتبادلان حزناً بائتاً كعلك قديم وتصطك أسناننا الاصطناعية على ذكريات صغيرة مضت وسجلنا عليها بؤس اعتراضاتنا.

كان خليل، لشدة شوقه لرؤية يوسف، يحاول أن يرافقه في مغامرته تلك. ينتقي محطات في الرحلة ويراه. يراه ماشياً ويراه واقفاً ويراه جالساً يحتسي الشاي معهم مطرقاً في حذائه العسكري الضخم.. يراه يلعب الفليبرز ويحمل المناقيش الساخنة ويغسل الكؤوس ويسمع مزاحاً ثقيلاً ولا يبالي. يراه يتطلع إلى أفخاذهم القوية المكسوة بالشعر تحت الكلاسين الملونة وهم يقلّبون أسلحتهم متضاحكين على سيرة البنات.

كل ذلك شديد الإغراء فكيف أستطيع المنافسة. ويروح خليل يحقد عليهم، هؤلاء الذين تلقفوا يوسف لاستعماله وابتزازه،

هؤلاء الجبناء الذين يرسلونه إلى حيث يخافون: خذ السيارة يا يوسف، وهو بعد لا يحسن القيادة، وأذهب إلى الفرن..

لأنه الأصغر والأحدث في الشلة، يذهب يوسف. على الطريق المكتظ بالبشر والسيارات يعرف يوسف، كما يعرف الجميع أن «واحدة» هي بالتأكيد مفخخة وسوف تنفجر، وكلما عظم هلع الشارع اللاهث ارتفع ضجيجه ولم يستطع يوسف بالتالي أن يسمع تكتكة ساعة تفجير الصاعق. يمرّ يوسف على الرصيف حيث السيارات مشكوكة كأسنان المشط. ينتقي واحدة ويقول إنها «هي» ويسرع في خطاه ليتجاوزها. لا تنفجر. واحدة أخرى. لا. تطير السيارات التي يتجاوزها يوسف كما تطير الأشجار على جانبي الطريق حين تكون راكباً سيارة مسرعة. لكن طرقات قلبه تزداد عنفاً ليقينه بجهله وبلا جدوى حدسه.. الآن أية واحدة هي المفخخة قبل أن تصل إليها ولا يخطر لك أبداً أنها قد تنفجر وراءك وبعد أن تتجاوزها.. دائماً هي بانتظارك أن تصل وحينها يصير السير بلا اتجاه مطلقاً كأنك تسير جانبياً أو إلى فوق أو إلى تحت أو إلى الوراء.. لا فرق مطلقاً إذ هي حيث لا يمكن أن تغرف، ويكون الفرن وسط فوضى من الأشياء قد تشبه الفوضى الكونية الأولى قبل أن ينظمها الخالق في الانفجار الأول - «اليوم» الكبير.

واليوم الكبير يحدث ليعيد إلى الأشياء والاتجاهات نظامها المدروس، حالما يسمع يوسف، والآخرون، صوت الانفجار المقدّس آتياً من مكان بعيد، هو من البعد ما يكفي، يرسلون زفرات عميقة مصحوبة بابتسامات ارتياح وفرح يشبه أن يهنىء الناس بعضهم البعض على السلامة. لقد انفجرت في

الشارع الآخر ونحن بخير.. جميعنا هنا بخير.. الحمد لله فهو الرحمن الكريم الذي لا نعرف سبباً محدداً لشكره على سلامتنا، سوى نعمه التي لا تحد. يروح الشارع يحتفل. البائع يخفض أسعاره قليلاً ويهاود.. الشاري يشتري كمية أكبر لأنه الآن أكثر يقيناً من أنه سوف يأكل ما اشتراه الليلة وأن الأغذية سوف تختلط بدمه عن طريق جهازه الهضمي لا عن طريق المزج المباشر. حتى أن الجو يصبح من الصفاء بحيث لا يطيق هؤلاء المرتبكون على من قد يمر من أحبابهم أو أولادهم في الشارع حيث انفجرت. هؤلاء يرحلون بسرعة، كأنما يخجلون بمشاعر القلق التي تنتابهم والتي لا تتناسب مع تطاير الجو وفرحته بيوم آخر ببلاش وعلى حساب الخالق. يشعرون بثقلهم وقلة ذوقهم كمحزون في عزّ الزّفة فينسحبون بسرعة وصمت للتأكد والاطمئنان، ولن يكون في مغادرتهم جيرة المكان أي فراغ عاطفي أو استفقاد إذ أن أكثرهم لن يلقى إلا الفرح والهنا، بلقائه من خرجوا أحياء، أو بمن صدف أن لم يمروا حينها من هناك. فقط قلّة، قلّة قليلة، لا تزعج النسب العامة كثيراً، سوف يكون لليلها طعم مرّ، شديد المرارة.

سائق سيارة يقف مشدوهاً على الرصيف. ينظر دولاب سيارته الفارغ من الهواء، على الجنط، ويبتسم كصوفي.. يفكر كيف يفكر. كان منذ ثوان يكفر بالمحرمات ويتصبب عرقاً من الغضب على حظه العاثر. حظه أنه وجد دولاب سيارته مثقوباً وهو كان على موعد مهم لعقد صفقة مهمة، أين، في الشارع المتفجر إياه.. وبالتحديد حيث قالوا إنها انفجرت. حظي العاثر أكسبني حياتي فكر أن يقول.. لو سارت الأمور كما ينبغي لمت،

فكر أن يقول. لو كان يوماً هنياً ميسراً لاشتعلت بالهيكسوجين، فكر أن يقول. لو لم تتغضّب علي والدتي بعد صلاة الصبح لأني ضربت زوجتي لكان لحمي الآن يطير ويزقزق كعصافير الدوري.. فكر أن يقول، سائق السيارة ذات الدولاب المثقوب.

عاد يوسف من الفرن. وصل إلى البيت وفي يده ربطتي خبز وبعض الكعك هدية.. قلت هم يرسلونه ليعود قصاصاً لي. لما عاد أيقنت تكراراً عمق البئر الذي أصرخ منه: يا يوسف. كلما فرحت بعودته واشرأب قلبي لنجاته كل مساء، قعدت في الليل أحطب في وجهه واتقد بنار حزني وصرخت يا الله ونذرت النذورات وقلت: الأولياء الشفعاء موجودون حتى ولو لم يكن الله موجوداً وصممت ألا أتركه يخرج في اليوم التالي وقلت سوف أهديه أغنية على الإف. إم. باسم فتاة ونمت ملفوفاً في فراشي كحيّة باردة.

في الصباح التالي كان خليل يرى يوسف خارجاً بخطى مسرعة، وضاحكاً. منذ صار له جماعته ازداد يأس خليل إذ صار يوسف يضحك كثيراً وبصوت عال. يضحك كثيراً وبصوت عال.

لكن حرب المدن تحره الضحك.. تكره هذا الضحك كثيراً. بالأمس لم تكن المتفجرتان موضوعتين في الشارع. أصلاً لم تكن واحدة.. البارحة اثنتان والاثنتان انفجرتا في صالتي سينما. واحدة في سينما بيروت في المزرعة والثانية في سينما الحمرا في شارع الحمرا. الصالتان كانتا تعرضان فيلمين هزليين. يا للصدف. لاليست مصادفة.. الحرب مسألة جدية.

الناس تموت في الطرقات وهناك من يذهب، يدفع فلوساً ووقتاً فارغاً ليضحك. ممنوع الضحك هكذا. ممنوع أن تتفق جماعة ما، داخل مكان محدد على الضحك. تضحك لوحدك، تجهش بالضحك، تفرقع مع رفيقك. يبقى نشاطاً فردياً ينفّس عن الناس ليشحنهم مجدداً. لكن أن يتحول الضحك نشاطاً جماعياً فهذا مخل بقانون الجماعة المحاربة. يريدون أن ينفجروا ضحكاً؟ فلينفجروا!.

الضحك جميل، يزوزق الحياة.. لطشة هنا لطشة هناك.. لكن أن يخطر للمدينة المحاربة أن تقعد على سجادة من الضحك.. نسحب البساط. فالضحك لا يلائم الحس الوطني.

الحس الوطني لا يلائمه إلا الحزن العميق. المأساة. الموت. الحس الوطني يعني الموت. الموت. تسير وإياه جنباً إلى جنب، تحادثه، تلاعبه بالورق، تكوي ثيابه، تطعمه من صحنك. تحبه، الموت.

هذا ما رآه خليل في معرض القاعة الزجاجيـة لوزارة السياحة، بركة ذات طوابق متعددة في أعلاها نافورة ترسل سائلاً أحمر يفيض على الطبقات التحتية ويتدفق. لم يفهم.. اقترب مدققاً. دم. بركة بنافورة تفيض وتحدث صوتاً من الدم. أغمي عليه.

ما به، سأل الناس المجتمعين.. أعطوه ماء ليشرب. ماء. أغمي عليه مرة أخرى. لن يشرب. كان الدم يطير من جسده إلى آلاف من الشفّاطات القوية ولم يكن جسده يريد أن يستفيق.

عاد لا يأكل مطلقاً وعادت آلام المعدة تبرحه في الليل. وقال أحسن.. أتألم من معدتي لا من يوسف.

الموت لا يقبل المزاح والضحك. والحس الوطني يتألم إذا ابتعد عن الموت، والتاريخ لا يصنعه سوى الموت وهو شديد الكره والاحتقار للضحك.

أستاذا تاريخ عرفهما خليل وهو يتذكرهما جيداً والاثنان كانا لا يضحكان وكانا مغرمين بالحس الوطني وبالموت.

الأول كان اسمه الأستاذ «مفيد». علّمه في التكميلي الأول. استقدموه إلى قريتهم النائية ضمن خطة وضعتها الدولة لتطوير التعليم الرسمي ونشره بجدارة على كافة مناطق الوطن. كان أصلعَ ضعيفاً جداً ويلبس نظارات طبية ذات إطار ذهبي ويدخن «أوكي». كان شديد الترتيب على قلّة. يتذكر خليل الأستاذ مفيد دائماً بوجنتين غائرتين إذ كان يمتص سيجارته بقوة، فالأوكي لا تسحب بسهولة وتغور وجنتاه لثوان طويلة.. كان قاسياً جداً ولا يتردد في استعمال العصا، وكان كثير السخرية من الفاشلين لكنه يقنن ضحك الأولاد الشاطرين عليهم بابتسامة صغيرة سريعة، وذات مغزى. كان الأستاذ مفيد مغرماً بالمغزى. خذوا المغزى، كان يقول لهم وهو يتمشى بجلال كبير بين صفوف الطبقات هازاً بمسطرته السميكة الطويلة.

كلّما كان الأستاذ مفيد يتحمّس قليلاً في الصف، وهو غالباً ما يتحمس قليلاً، كانت تقف شعور الرؤوس، وكان خليل ينتظر حلول وقت النوم لكي يبكي في فراشه، حسرة على السلم النيء

الرخو الذي يجثم بكل ثقله على قلب الوطن. فالأستاذ مفيد كان يستفيض في شرح بطولة الصوريين، وأهل الساحل من أجدادنا الفينيقيين، ويعود كثيراً إلى حكايات استبسال قرطاجة وقائدها البطل الشهيد، وهو ينظر بازدراء إلى الرؤوس الصغيرة الملتهبة التي تنسى وجنتيه الغائرتين، غارقة في دخان الأوكي المتصاعد من المعابد المكتظة المشتعلة بأهل المدن على طول الساحل الأزرق الأشمّ.

كان خليل طوال طريق العودة إلى البيت يبقى ساهماً متفكراً. كيف أعبّر، كيف أقول لوطني كم أنا أحبه، وما من حرب ضارية بعدو غاشم قوي لأموت مستشهداً كأهل صور الذين أغلقوا مدينتهم بوجه الفاتح الكبير. دخلوا معابدهم جذلين مهللين و... أحرقوا أنفسهم لكي يبقى رمادهم مستقلاً حراً. كان خليل يراهم يموتون مشتعلين كشموس عظيمة. ثم يتمددون بلحمهم الأبيض المضيء كالملائكة.. وكان يبكي حباً بالوطن، وحزناً على حظه العاثر.

لو كنت ولدك الوحيد، أعني بلا أخواتي، هل توافقين على إرسالي مع الجنود لأموت دفاعاً عن الوطن؟ سأل خليل يوماً أمه. ضد من، قالت أمه وهي تلقي بماء الجلي إلى الفسحة الترابية أمام البيت. ضد العدو الذي يريد أن يأخذ استقلالنا منا أجاب خليل، أي عدو كان. لا.. قالت ضاحكة وهي تصف الأواني الملتمعة في الشمس على الحجارة الكبيرة.. أربطك من رجلك بحديد السرير. ولكن هكذا يدكّ العدو أسوارنا ويحرق معابدنا ومكتباتنا ويمثل بجثثنا وسوف يقتلونني على أي حال. لا، قالت الأم، يقتلون الرجال وأنا أقول لقائدهم أنك بنت صغيرة

من بناتي وحين يراك يصدّق ويذهب. أنا أعيش ويموت الوطن ذلًا؟ قال خليل. الله لا يرد الوطن ولا ميّة وطن، ريتك تقبرني.. غمرته. نفر منها. وضحكت بصوت عال...

بكى بكاءً مراً ليلتها خليل.. وصار يخجل بأمه الجاهلة الخائنة، صار يخجل بها كثيراً حين تمر بباب المدرسة، في طريقها إلى السوق، وتسأل عنه أو تناديه وتقبله أمام الصبية في الملعب. أين أمي من نساء قرطاجة اللواتي أذبن مصاغهن وحليهّن وطناجر المطبخ لصنع السلاح، قصصن شعورهن الطويلة اللماعة ليجدلنها حبالاً للأسطول الوطني الذي يدافع عن شرف الوطن... على أي حال لا مصاغ عندها، وليس شعرها غزيراً، إنه مسبسل مثل شعري ولا يجدل مرسة غسيل. وهي تضحك كثيراً... يا لعاري.. صار خليل يكره أمه قليلاً، ويكره الضحك كثيراً ويتفوق في التاريخ.

في الثانوي الأول جاء الأستاذ «مقبل». كان مربعاً سميناً بكرش شديد البروز والاستدارة، وكذلك بنظارتين سميكتين ولكن بإطار معدني أبيض. كان جاداً إلى درجة الدراما العنيفة التي كانت تنفجر في غرفة الصف لمجرد أن تلوح ضحكة أو مجرد ابتسامة، حتى السخرية الخفيفة لم يكن مسموحاً بها، ولا هو كان يلجأ إليها بالمرّة إذ لم يكن عنده شطّار وأغبياء، فالشرح كان يستنفد الوقت بكامله، كان هناك فقط الجدّيون والسفلة. والدراما العنيفة كانت هي الغالبة على طابع حصصه إذ كان يصرّ بشكل هجاسي على لفظ القاف مقعرة ومن أسفل الحلق ولم يكن الصبية يفهمون سبباً لكل هذا التشدد مما كان غالباً ما يثير الضحك المكبوت فترتفع الستارة عن مقبل

التراجيدي الذي يروح في صراخ واحمرار وتشنج وقصاص وشتم للأقدار حتى توقظه الحياة اليومية الدنيا إلى الواقع التعس برنين الجرس الطويل، فيقطع مقطعه الطويل ويخرج بمحفظته الجلدية الثخينة متأففاً قبل أن يلقي نظرة لوم أخيرة على الجيل الصاعد.

كان خليل يتعذب كثيراً لعذاب مقبل الذي لا يعرف دواء له سوى لفظ القاف كما ينبغي وسوى الجدية التي تلامس اليأس من الحياة أو العناد الذي لن يحلحل رباطاته المشدودة إلا إذا فرقعت الحدود سريعاً إلى الوطن الحقيقي، إلى سوريا الكبرى.. حينها فقط سنبتسم غبطة، وقد نضحك عالياً وكثيراً. كان خليل يفكر كثيراً فيما عساه يعمل من أجل أن يخفف عذابات الأستاذ مقبل، ومن أجل أن تمر الحصة بسلام، صار يخجل من أصحابه ويتدارى منهم مخافة أن يراه الأستاذ بصحبة سفلة. وقد بكى ذات مساء فرحاً وفخراً أو احتجاجاً على ظلم الأيام، حين ربّت الأستاذ مقبل على كتفه عابساً بعينين حنونتين... أنت شيء آخر يا خليل سوف يكون لك شأن، تذكر كلامي.

حين يتذكر كلامه يفكر أن الجد قد قتله لا أحد أجنحة الحزب المتكاثرة التي عنّ لدراماه أن تنزعم إحداها.. ما قتله هو نظاراته السميكة التي لم يعد في ذاكرة خليل غيرها من كل جسد الأستاذ الضخم المضاد للضحك.

وبين أن يكون التاريخ شحذاً قوياً للمخيلة في التكميلي الأول، أو أن يكون لفظاً سليماً للغة مقعّرة في الثانوي الأول،

قعد خليل، الخالص علومه، يضحك مع الحس الوطني إذ كان يوسف قد عاد ولم يمت.

- ٦ ———————————————

حين يتأخر يوسف، يروح خليل ينتظر.

صار يوسف يتأخر كما كان يتأخر ناجي. وصار ينتظر يوسف كما كان ينتظر ناجي. بل صار غالباً ما يخطر له أن يوسف قد يموت كما مات ناجي. فيأخذ بالدوران في غرفته مفتشاً عن مادة لتضييع الوقت والسلوان وطرد الأفكار.

صار يقرأ. عاد يقرأ.. عاد يغري نفسه بالانجذاب والغياب في الصفحات، ونسيان العالم كله والوقت كله في القراءة الجميلة.

راح يضع سلّم الصفحات، يستّفها درجة درجة ويصعد إلى النافذة العالية الصغيرة الشبيهة بنوافذ ديكورات المسرح، والمدهونة حديثاً، الريانة الزهر والاخضرار، الهفهافة الستارة، حيث يتكىء الكاتب مبتسماً بشفقة وحنان للمرتقي التعبان القلق، يطعمه ورقاً حليبياً ويسقيه الحروف الدافئة، ثم يروح يعبث بشعره المشعث بتؤدة، بتؤدة، حتى يدخل إلى قلب القراءة كالداخل إلى النوم الجميل فتصعد النافذة عالياً وتتطاير حمولة القارىء من كل الخردة الأرضية، يتخفف من جسده ومن ذكرياته ويسبح في هواء رحمي والكاتب كالميترناجور أو معلم السباحة ذي الضمير. يعطيه زنده اللينة القوية فيضع خليل رأسه عليها وتتداخل ذرات جسده مع حركة الموج، يستغرق خليل في القراءة وتخف حمولة الوقت كثيراً.

ما الذي لا يفعله الكاتب ليحملك إلى السعادة. ما الذي يوفره من عذابات حتى تهنأ بالطيران وبالسلوان. يترك حبوب قلبه بين يديك ويغيب. يقول لك أنت حر وأنا بعيد عنك لا أضغط عليك، لا بعينيّ، وما أدراك ما تفعل النظرة بالإنسان، ولا بصوتي، والصوت مندوب الروح المباشر... فقط أستميت في جهادي لأكتب أفضل ما أراه وأحسه وأتصوره بعيداً عنك ولا أجعلك تحس بأي من آلامي. أعطيك زبدة روحي التي لا أعطيها لامرأتي أو لأمي. أنت وضميرك. كيف يطاوع الإنسان ضميره بأن يغلق كتاباً أو يقفز صفحة أو حتى يشرد عما يقرأ. ثم، ما الذي ينوب الكاتب من كل هذا؟ لا ينوبه سوى سعادة أناس لا يعرفهم ولا يعرف متى يقرأونه أو يذكرونه.. أكثر من هذا فهو يضع احتمال ألا يعجبهم بالمرّة. أن يشتموه ويبصقوا عليه ويضحكوا من اقتناعه بأنه المرسل المنتظر لخلاص الإنسانية إذ في كل كتابة ادعاء من هذا النوع... يا لعذاباتهم التي لا تحد كان يفكر أحياناً خليل... لكنه حين يقرأ لا يفكر. تتداخل ذرات جسده مع حركة الموج ورأسه ملقى على زند الكاتب اللينة القوية.. وتروح الساعات. تروح الساعات وتظل تروح إلى أن تتوقف عن رواحها، ويقع خليل عن السلم العالية لأي سبب تافه، كان يشعر بحاجة للتبول أو كأن تنقطع الكهرباء، أو كأن يسمع في مدخل البناية وقع خطى، مجرد وقع خطى.

يقع خليل عن سلم القراءة العالية فتهجم عليه الأفكار كما يهجم السلاّخون على بقرة وقعت، وكانت هاربة. هل أنا تركت له الحبل على غاربه حقاً، له أن يختار ما يشاء ومن يشاء وله أن يندم ويعود؟.

كل هذا كان كذباً يدفعه خليل إلى أسفل كفلينة ضخمة في طشت ماء. الحقيقة أنني أجرب فيه.. أجرب فيه كيفية العودة إلى كنف الجماعة، أجرب فيه ما أقصر عن اختباره بنفسي لأنني جبان. أدفعه لأرى النتيجة وأنا كامن كلص خلف جدار. أجرب فيه لأنسحب وأقرف ولا أضطر للخروج والعمل الدنيء مقابل المال. صار رجلي الذي يؤمن للبيت ما كان يتوجب عليّ أنا نفسي تأمينه.. صار يؤمن من الحاجيات ما يفيض عن فوق، إلى غرفتي وبطني.. صار حجتي التي أتلطى وراءها حتى لا أتنازل عن أخلاقي العالية وأضطر لبيع أغراض من بيت الست إيزابيل وهو الهاجس الذي لا ينفك يطاردني ولا أقوى على تنفيذه.

ماذا أريد من يوسف؟ سأل خليل نفسه. ماذا تريد يا خليل من يوسف. أجب نفسك بجواب واحد واضح وسترتاح. لكن، ولا إجابة كانت واضحة، ولا إجابة واضحة كانت مقنعة ولا إجابة واضحة مقنعة كانت مريحة.

إنني أطوق يوسف كما طوقته زليخة.

أسير أمامه، وفي كل الاتجاهات. أحفر وأغطي بالعشب اليابس حتى يقع، وكلما أحسست أنه يقترب من حفري، أيقنت أنه سيقع بعيداً عني فركضت إلى حفر أخرى.

كل ذلك الشقاء لأن يوسف جميل ولأنني زوجة جنس آخر. أدفعه لكل ما هو كريه وفاسد ومسموم وأروح ألطم وأجمع نسائي. أجمع نسائي وألطم مشيرة إليه وهن لا يرينه ولا يتقطع سوى يديّ، وتبقى برتقالات شهوتي كاملة ومستديرة وحمراء.

مئات المرات. آلاف المرات أجمع نسائي ليرين فلا يرين ولا يعرفن ولا أقطع سوى يديَّ. كلما لامست طرف ثوبه شققته من دبر. شققته آلاف المرات من دبر لكنه لم يرني ولم يستدر ولم ينشق له ثوب.

شققت ثوبي. شققت ثوبي وصرخت انظروا إلى الفاسق. انظروا إلى ما يفعل بي يوسف. شققت جسدي وصرخت انظروا. شققت قلبي وصرخت انظروا فما نظر أحد ولا سمع. حتى يوسف ما نظر ولا سمع. حتى جسدي ما نظر وما سمع، فتفتت، حتى قلبي ما نظر وما سمع فتشظّى.

وأنا زوجة جنس آخر، كأنني في هبلي، أنتظر أن يأتي يوسف ذات يوم لخطبتي. يقرع الباب وهو في أبهى أثوابه ويطلبني.. وأنا أحمر خجلاً وأتلكأ قليلاً قبل أن أهزّ رأسي بالموافقة..

.

كان الأجدر أن أدرس المسرح، فكر خليل وهو يسرح شعره أمام مرآة المغسلة في الحمّام، المسرح أكثر لياقة بفواجعي الكثيرة.

سأتدبر عملاً.

* * *

في طريقه إلى الجريدة رأى خليل زهرة. تبعها وتأكد أنها زهرة. تسير إلى جانب شاب طويل القامة. أسرع خليل في مشيته وانتقل إلى الرصيف المقابل حتى يرى وجهه دون أن يرياه. كان وجه زهرة يشبه وجه مريم فخر الدين في صباها. وهي ترمش بعينيها وتبتسم لاوية رقبتها الثخينة. الشاب كان

يتكلم ضاحكاً ويلكزها قليلاً بكوعه فترفع هي كتفها غنجاً. ثم تتلكأ أمام إحدى الواجهات فيقترب برأسه من رأسها وكأنه يسرّ شيئاً في أذنها فتنفر وتنظر إليه نظرة تأنيب وعتاب ثم تسرع في خطاها قليلاً...

لا بد أنه أحد أصحاب يوسف ذلك الشاب الطويل القامة، والسياسة قد دخلت البيت الآن من أبوابه العريضة والضيقة... أنظروا زهرة! انظروا أوهامي بأن البنت مغرمة بي حتى أذنيها.. ربما كانت مغرمة ويئست. الفتيات ييأسن بسرعة ويغرمن بآخر بسرعة. أعجبت بي أول قدومها إلى العاصمة ثم تعرفت بالمدينة وصارت تنتقي ما يلائمها. هي أيضاً كبرت واتسعت آفاقها.

إنهما يشبهان خنزيرين صغيرين بحب الشباب الذي يغطي وجهيهما الأحمرين الرافخين.. إنهما لا بد يتكلمان عن الإنسان وسط هذا الزحام. وعن المجتمع، وعن المشاعر والجمال وعن القلوب الزهرية التي ترفرف بأجنحة من سكاكر. خنزيران، بالروائح السرية البشعة التي يفرزها جسداهما المستنفران، يسيران وسط أكوام الزبالة، في الأبخرة الكريهة والغبار والتراب. في ضجيج موتورات الكهرباء وهواء المازوت المسلوق، وفي رأسيهما أنهما على شاطىء جزيرة نائية تغرق ارجلهما بالرمل الرطب والهواء العليل يتلاعب بخصلات شعرهما والشمس بين رأسيهما تغيب على شكل قلب أرجواني يرسل موسيقى خافتة.

ضحك خليل وهو يفكر أن يقول لهما أن كل هذا الجمر

المتلظي تطفئه لحظة صغيرة في جزءين صغيرين من جسديهما المقرفين...

حتى زهرة لا تحبني قال خليل لنفسه، وهو يقترب من منعطف شارع الجريدة.

تأخر خليل عن الموعد الذي حدده له نايف. كأنه يريد ولا يريد. نايف لم يكن وراء مكتبه. مرّ أحد المصورين سلّم على خليل وقال له إن نايف في الاجتماع ودله أين ينتظر: في ردهة كبيرة مواجهة لباب مكتب رئيس التحرير، حيث الاجتماع.

قعد خليل على كنبة جلدية كبيرة وراح ينظر في لوحة كبيرة على الجدار المقابل. كان فيها عصفور كبير أزرق يطير مائلاً فوق سهل أصفر وهّاج. رمز للحرية. بجانب الكنبة نبتة كبيرة خضراء مكسوة بالغبار. إنه زمن حروب ولا وقت للاهتمام بالنبات. ترابها أيضاً كان ناشفاً فحمل خليل كوباً من على الطاولة الصغيرة أمامه وسكب ما بداخله على جذع النبتة. ثم راح خليل ينظر إلى حذائه المتسخ. فكّر أن يمسحه بمحرمة ورقية كانت في جيبه إلا أنه قرر أن الأمر غير مهم وأنهم لا ينتبهون لمثل هذه الأمور.. وهم إن انتبهوا لن يعتبروا أن في الأمر قلة احترام لهم بل سيعتقدون أنني امرؤ مشغول، كثير المجيء والرواح ولا أعير انتباهاً لمثل هذه التفاصيل التافهة التي لا تمت إلى الثورية أو النضالية أو الحداثة في شيء... لا بل إن حذاء ممسوحاً بعناية شديدة، حذاءً لامعاً وهاجاً قد يضرّ كثيراً بصاحبه إذ هو يعطي انطباعاً قوياً عن شخصية رجعية خبيثة. أو عن نوايا خيانة طبقية أو عن طموحات فاشستية عنيفة أو عن سادية جنسية كامنة أو....

خرج نايف من الباب تبعه بضعة رجال توقفوا عند العتبة. وقف خليل لكن نايف لم يلحظ وجوده.. استمر الحديث بينهم خافتاً ثم خرجوا إلى الردهة. رأى نايف خليل فسلّم عليه بنظرة معاتبة ثم شده من يده إلى حيث الجماعة وعرّفهم به وعرف خليل بهم بتهذيب كبير. كانوا أربعة وسمع خليل ألقاب ثلاثة منهم. أما الرابع فقد اقتصر تقديمه على «الأستاذ» دون أن يلحقه نايف بوظيفة لا داخل الجريدة ولا خارجها. رئيس التحرير رحب بخليل كأنه يعرفه من زمان. أو كأنه أحد أقاربه الكبار السن والمنزلة، بحنان ربما يشبه التشجيع، وكان يرسل نكاتاً متلاحقة وسريعة ويضحك عالياً مستحثاً الآخرين على الضحك. الأستاذ كان يبتسم ولا يتكلم. نايف، كان يضحك سريعاً ثم يعود سريعاً إلى جدية لم يسبق لخليل أن رآها عليه.. لكنه كان يبدو سعيداً.

خليل شاب ممتاز قال رئيس التحرير.. يجب أن أراك يا خليل.. حالما يتسع وقتك، قال نايف.

تذكر خليل أنه رأى صورة الأستاذ في الجرائد فابتسم له. انفتح باب لم يكن خليل قد رآه، ظهر منه شاب أشقر تنحى عن عتبته ثم خرج رجل أسمر ذو شاربين غليظين. قال الرجل بعد أن سلم على الآخرين: توفي الرجل في المستشفى. اعملوا حسابكم لعدد الغد. قال نايف عابساً: الله لا يرده والعقبى لكل رموز إسرائيل. سأتأخر إذن للحاق بكم، قال رئيس التحرير، سنجلس قليلاً أنا والأخ، مشيراً إلى الرجل ذي الشاربين الكثين. ثم، ملتفتاً إلى خليل: خليل تستطيع أن تبدأ معنا منذ اللحظة... أكتب سلسلة مقالات ثم نجتمع.. ما رأيك بمادة

كثيفة عن كل هؤلاء وقد قتل منهم حتى الآن عدد كبير؟ تحقيق واسع عن حياتهم، ثرائهم، تاريخهم الأسود، وعن كيفية تنفيذ العقوبة بهم، هاه؟ يهز خليل رأسه ثم يردف، كأن غصباً عنه، لكن... أنا أتساءل: إذا كان باستطاعة الجنوبيين دخول إسرائيل عبر ما يسمى بالجدارات الطيبة فلماذا لا تتم الاغتيالات بين صفوف الزعماء المتطرفين داخل إسرائيل نفسها؟ نظروا إليه بدهشة خفيفة وغرق خليل في خجل وندم مميتين.. ضحك رئيس التحرير: على مهلك علينا.. هذه ثورية الجيل الجديد التي تشعرنا بالتقدم في العمر.. أكتب تحقيقك. يا أخي أكتب ما شئت وسنرى، قال رئيس التحرير كأنه يودّع خليل. لكن الأخ يستوقف نايف الذي كان يهم بالانصراف، حنقاً مني يريد نايف الانصراف، فكر خليل، ويطلب إليه اللحاق برئيس التحرير إلى مكتبه ثم يقول: يا نايف.. احضر خليل معك إلى السهرة الليلة...

يتفرق الجميع. ينظر نايف إلى خليل بدهشة تشوبها السخرية أو يشوبها الاعجاب.

كلهم فهموني غلط.. فكر خليل.

* * *

لم يفهم خليل لماذا طرح سؤاله الأبله.. كان لا بد يريد أن يبدو ذكياً لكن الجماعة فهموا أنه يتهمهم بالتخاذل كأنه يقول لهم: تفرحون لمقتل الرمز، يا لخزيكم.. لماذا لا تهجمون على الأصل.. وهذا يعني هبلاً مدقعاً لا علاج له ويعني أن العمل في الجريدة، أي عمل، صار في خبر كان. ثم فكر قد يعتقدون كذلك أني حانق ومتضايق بشدّة لمقتل الرجل وهذا هراء محض ومسخرة.. أنا مسخرة.. وقعد خليل يفكر بقصده الحقيقي،

الخفي من وراء طرح ذلك السؤال الغبي. ولم يجد جواباً سوى إحساسه بأن عليه أن يقول أي شيء وألا يبقى صامتاً.. سيتدبر عملاً آخر.

لذا لم يصدق خليل أنهم دعوه فعلاً للسهرة معهم إلا حين وصل مع نايف إلى منزل رئيس التحرير الذي سلّم على الاثنين بالحرارة نفسها، وأجلسهما على مقربة منه. لا يبدو عليه أنه يرذلني فكر خليل. إنه رجل متسامح طيب القلب أو هو يريد أن يلعب دور المتفهم لجيل الشباب أحد هؤلاء العاطفين على جهلنا، والذين تتسع قلوبهم لأخطائنا الكثيرة لأنها جزء من المستقبل الذي نحمله، وحتى لا يقال أنه متخلف وأنه صاحب مؤسسة يشبه أصحاب المؤسسات. كان البيت كبيراً، ذا أثاث ضخم يشبه بيوت المغتربين العائدين حديثاً تراودهم زعامة محلية رأوا أنهم صاروا يستحقونها، مع أن رئيس التحرير، وحسب قول نايف، كان كثيراً ما يأتي على ذكر أصله المتواضع مفتخراً بأنه تعلم الصحافة بدءاً من أدنى درجاتها حتى صار أحد أربابها القلائل. وحين تقول الصحافة اللبنانية فأنت تعني معلمة ومؤسسة الصحافة في الشرق العربي كله.. هكذا كان يقول نايف الذي كان خليل يعرف أنه لا يحب رئيس التحرير كثيراً، ربما لأنه كان يفكر بأنه أكثر جدارة منه لاستلام رئاسة التحرير لكنه أشرف من أن يتوسل الطرق التي يتوسلها هؤلاء للوصول إلى مكاتبهم الفخمة.

الصالون كان يعج بالساهرين، والساهرات أيضاً.. ومع أن الضحك كان مفرقعاً عالياً ومتواصلاً إلا أن النساء كن يبدين أقل سعادة وحماساً ربما لأن الكلام كان يجري بعيداً عن تأثير

أنوثتهن التي أكلت طوال بعد الظهر لتبرز وتتألق وتؤثر. وربما لأنهن من العمر في مرحلة صار فيها ضياع الوقت أمراً لا يغفر بسهولة، وحين لا يكن قطب السهرة يكون الوقت ضائعاً ومهدوراً رغم تعودهن المفترض على هذا الأمر.

زوجة رئيس التحرير كانت مرحة كثيرة الحركة تخدم الجميع بابتسامة عريضة وكأنها تريد أن تتخذ لها مكاناً بالقوة. تقاطع هذا وتسأل ذاك بصوت عال وتعلق وتضحك ثم ترفع الوردة الكبيرة المشكوكة في شعرها بغنج فاقع التصنع. كانت تتحرك بنشاط زائد عن اللزوم وكأنها تريد أن تبدو أكثر شباباً من الأخريات أو كأنها تتهمهن بعدم مساندة الأزواج. هي كانت تقوم بما هو أكثر من واجبها لدعم زوجها ولإنجاح السهرة. فكلما نجحت السهرة نجحت الحياة وهكذا تأخذ نصيبها من المشاركة في ما أنعم الله به على الأسرة مؤكدة بأنها لو لم تكن على هذا القدر من قوة الشخصية والذكاء والتفاني لما وصل زوجها إلى ما هو عليه، وموحية للمهمين من الضيوف بأن الرجل السعيد في بيته يمكن الاتكال عليه في أصعب المهمات ويمكن مساعدته في كل ما يطلبه.. على أي حال لا بد أن تكون قد سمعت أو قرأت في المجلات بأن حملة الانتخابات الرئاسية الأميركية تقوم في أهم وأخطر مرحلة منها على معطيات زوجة المرشح وعلى حياته الأسرية التي تعود في أكبر جزء منها إلى من ستكون الأميركية الأولى التي سوف تشمل بعطفها وتفهمها وتفانيها الأسرة الأميركية كلها...

أكثر من هذا فكر خليل.. إنها تريد أن تقنع نفسها بأن الغصة التي تداهمها على حين غرة، في بعض ليالي الحنين

الساذج، على أحلامها القديمة بعيشة التقشف الثوري والنضال ما هي إلا وهم خالص، وبأنها قطعاً كانت ستكون امرأة تعيسة شقية دائمة التشكي والندم على ما قطعته على نفسها من وعود.

لكن زوجة رئيس التحرير، بعد الكأس الثالثة، صارت أقل ضبطاً لصورتها وصار يفلت منها ما يشبه العدائية المكبوتة لزوجها. فقد تجاهلت كثيراً طلبه منها بأن تأتيه بكأس نظيفة.. ثم عارضت كلامه بغضب لم يكن مبرراً وراحت تضحك بعصبية، ساخرة من الرجال ومن الحياة الزوجية حين عاد من المطبخ شاكياً بأنه لم يجد ماء للشرب. ولأنها خشيت من انفجارها في وجهه حين طلب المزيد من الثلج راحت تسحب الكلام باتجاه النكات التي كانت قد خبت قليلاً بالقياس إلى أول السهرة.

عاد الجو مفرقعاً بالضحك حتى الأستاذ خرج نهائياً عن وقاره: تصوروا قال وهو يسعل.. تصوروا بعد الانفجار الذي أطاح بصاحبنا اليوم.. تصوروا أنتم تعرفون أن برنامج التقنين الجديد لا يعطي التيار لأكثر من ساعتين في الأربع والعشرين ساعة.. ثم راح في نوبة سعال فتعالت تعليقات النساء المستاءة من انقطاع الكهرباء وراحت كل واحدة تروي ملاحمها اليومية إلى أن أسكتتهم زوجة رئيس التحرير مستحثة الأستاذ على المتابعة فتابع... الانفجار أحدث فجوة كبيرة وتفجرت القساطل وتوفرت مياه الشرب ومياه المجارير... وحين تجمع الناس.. تصوروا، كان موعد إعادة التيار إلى المنطقة قد حان... وعلى النظام، عاد التيار والأسلاك متدلية في أرض

الشارع.. والماء.. لكم أن تتصوروا.. والناس مجمّعون كيوم الحشر... والـ....

كان الضحك يهطل كمطر كثيف وكانت رجلا خليل منقوعتين في الكهرباء وجارتنا في الطابق الأول، قالت امرأة وهي تمسح الكحل المحلول كآثار لكمة حول عينيها، جارتنا كانت ناشرة سجادتها في الشمس.. وهي تمر بباب البلكون لاحظت أن السجادة تتحرك إلى تحت! اعتقدت الهواء. ركضت إلى البلكون. كان الحرامي يشد بالسجادة من الشارع وهي متعلقة بها تشد وتصرخ.. هو يشد إلى أسفل ويقول أتركي يا بنت الكلب وهي تشد إلى أعلى وتصرخ. وطبعاً لم يجرؤ أحد على الخروج إليها بعد أن رأوا البندقية في كتفه.. ضحك. ظلت جارتنا حانقة تسب وتشتم طيلة أيام إلى أن جاءتها حماتها، التي أهدتها السجادة، وقالت لها وهي تصرخ: يا حمارة، لماذا لم تتشبثي أكثر..

كان الضحك يشد إلى تحت وكان خليل جارتنا التي في الطابق الأول يضحك من حماته التي انفجرت كبالون من شدة الضحك.

ثم انتهت السهرة. ومال الأستاذ على خليل وقال له اترك منطقة سكنك، أنت تسكن وسط زعران عكاريت.

مالت زوجة رئيس التحرير على خليل وقالت له: انبسطنا فيك مع أنك قليل الكلام.

مال الأخ على خليل وقال بصوت ناعم: أريد أن أراك.

مال نايف على خليل وقال بنعس بادي: تلفن لي غداً.

* * *

الضحك.. فكر خليل وهو يعد الشاي في غرفته...

هذا أكثر مكان، أكثر بقعة، يضحك فيها الناس في العالم. في عز القصف العشوائي يضحك الأولاد ويضحك الموظفون لأنها أيام عطلة... يكثرون من المآكل الطيبة.. يحضرون لسهراتهم أجمل شرائط الفيديو لأنهم سيسهرون كثيراً ولا عمل أو مدرسة في الغد الباكر.

الجارات يضحكن لبعضهن إذ ستزداد فرص التلاقي وستزداد فرص الكلام الذي لن ينفد عن الحالة والصحة والأرق والظلم والمشاكل الزوجية وشيطنة الأولاد.

الدكنجي سيضحك لأن العمليات التموينية سوف تنشط لدرجة أن رفوفه قد تفرغ بأجزاء كبيرة منها.

صاحب الفرن القريب سيضحك لأن الناس ستشتري أكثر من حاجتها بكثير فيبيع في يوم واحد طحين أسبوع بكامله ويجلس هانئاً في بيته دون أن يضطر لدفع أجر عماله لكامل الأسبوع.

صاحب المطعم سيضحك لأن الناس سوف تقاوم الإحساس بالركود بمزيد من الخروج وبمزيد من التبذير حباً بالحياة ولأن الموت يطرق الأبواب كل يوم.

صاحب محطة البنزين سيضحك لأن سلطته تغدو كسلطة البطاركة القدماء وسوف تسعى الجموع إلى استعطافه وتقبيل لحيته الجليلة. وقد يؤدي هذا به أو بولده إلى الزعامة.

المصرفي سيضحك لأن التحويلات سوف تتدفق من

الخارج عطفاً على الأهل والأحباب وحين يقفل على دولار فاتر يفتح على فائدته المتعاظمة كموج «جافا» على دولار كبركان «كاراكاتاوا»....

والشاعر سيضحك لأنه سيحزن أكثر، ولأن أحد أفراد عائلته أو طائفته سوف يستشهد مما سيعطيه ميكروفون الجموع التي تأتي صاغرة بعدما تركته طويلاً، متضرعة أن ينعي وأن يغرد بصوته الفجائعي الفريد ويستعيد سلطة القول الحكيم باسم العشيرة والقبيلة والفخذ...

ومراسل الوكالات الأجنبية سيضحك لأنه سيقدم مادة دسمة تفوق بالتأكيد دسامة راتبه الضحل.

والصحافي سيضحك لأن أعداد جريدته ستطير بكاملها قبل الحادية عشرة ظهراً، حتى صحف الدرجة الرابعة. ومصورو الصحف سيقهقهون لأن صورهم الرهيبة ستذكّر ذوي القرارات بمكانة الصورة حين تتصدر أهم الصفحات.

والملاّك سيضحك لأن القصف سيهجّر جحافل جديدة ويزيد الضغط على المدينة المكتظة ويرفع من الإجارات والخلوات إلى الحد الذي يرضي خياله المتحفز فتصير شققه كالدرر المكنونة، وهي إن أصيبت صلّحها مؤجرها، فيضحك إذ ذاك البناؤون والنجارون والدهانون والسمكريون وأصحاب المفروشات.. والأطباء... الشعب بكامله يضحك. حتى أمهات الموتى يضحكن لأن وفوداً جديدة ستلتحق بأبنائهن فوق، فتؤنسهم، وتخف وحشة الأمهات.

بلد يضحك.. بلد لا يكف عن الضحك لأن سلطة الحروب

العليا تعكر صفو هنائه. شعب حي يعارض السلطة... لا يعترض على المجارير المفتوحة التي تغرق البلد. لا يعترض على القصف أو الموت أو التحقير أو انعدام الكهرباء أو الماء أو الطحين لأنه يريد مزيداً من التوريط لسلطة الحرب، يريد مزيداً من الاحتقار والاتهام فيسكت من أجل مزيد من الضحك. من أجل أن تضحك الملائكة المرفرفة في سمائها المشرقة الضاحكة.

بلد يضحك ويلعب معتقداً أن سلطته لا تضحك ولا تلعب، وأنه يخدعها.

بلد غريب

السلطات تضحك ضحكها.. لكل سلطة ضحكها.. تماماً كما في البلدان التي تمنع الكحول. تمنع استيرادها واستهلاكها.. لكنها البلدان التي تسكر باستمرار. البلدان التي لا تصحو. السلطات تشرب في قصورها ومنتدياتها وبيوتها وشققها، وتمنع الشرب عن الشارع. والشارع يصنع كحوله على يده أو هو يشم الغراء أو مياه موتورات الطيارات أو الايتير. يتسمم أو يعمى أو يموت لكنه يشرب. أكثر من يشرب. هكذا نحن: ممنوع الضحك إذن، لكل ضحكه الخاص ونكون أكثر شعوب العالم ضحكاً.

المسلحون وأكثرهم هؤلاء المتميزون بنزقهموقوة قلوبهم،أي هؤلاء الذين سيستشهدون، هم الأكثر ولعاً بالضحك... الفرق التي لها طابع انتحاري داخل التنظيمات والأحزاب هي الأكثر ضحكاً. انظروا أسماءها.. فرقة التيوس. قوات العنكوش. قوات الفنكوش. قوات أبو جوجو... أحد المكتئبين انتبه للأمر.. رأى

انه مغروم وحزين وأنه لا يضحك. سدّ الشارع أمام فرنه الصغير. باع محتويات الفرن. سمّى نفسه أبو الكوليرا. اشترى بضعة كيلوات من الديناميت وراح أمام بيت الخادمة التي يحبها يولع أصبع ديناميت ويرميه في البورة القريبة ويصرخ انزلي يا منتهى أو أفجّر الدنيا فيصرخ الجيران متلقفين زجاجهم.. انزلي يا منتهى. بعدها صار يضحك كثيراً. يلتقي عنده الشباب يتكلمون بسعر الأسلحة الخفيفة وبالسياسة. وصار يروي النكات. قال لهم مرة نكتة من تأليفه: قال: هناك امرأة أنجبت ثلاثة توائم فسمتهم كفرفالوس ولبعة وعين المير.. وقال أن لبعة شقراء مثل القمر، مثل زوجته منتهى أم العيال. وأنه في إحدى المعارك أراد إنقاذ أحد رجاله الجرحى فحمله من ساقيه مسافة كيلومترات في الليل ولما أراد أن ينزله عن كتفه وجد أنه يحمل نصفه السفلي فقط...

مهرجان عارم من الضحك. مدنية مستلقية على ظهرها تبعط بأيديها وأرجلها كصرصار ضخم تحت نكتة عملاقة. ضحك لا يعطيه القدر فرصة أخذ النفس، فرصة سحب القليل من الأوكسجين.. ضحك بدم أزرق يسودّ من الضحك.. يموت من الضحك.

وأنت يا خليل، الذي تشرب شايك بارداً،

لماذا لا تضحك؟...

- ٧ -

في الصباح الباكر، عند الفجر، تهدأ الأرواح الشريرة. في القرى كانوا يقولون إن الشياطين والجنيات يختفون مع خيوط النور الأولى، في المدن يهدأ هسيس الحشرات ودبيبها، يسكت

السكارى وتخف آلام المرضى وينام العشاق والأزواج المخدوعون وفي سهول الحروب تنطفىء النيران إلا من دخان شاحب يعطي لأنين المنازعين والجرحى الذين يشربون القطرات الأخيرة تحت الندى الرومانسي، شيئاً من الرهبة أو ما يشبه الندم.

كان ذلك من زمان.. عندما كان القادة المختلفون على أية أرض أو حدود أو فكرة يتواعدون في السهول البعيدة عمن لا يريد المحاربة، يتقارعون حتى ينتصر من يكتب الله له النصر فيعمل الخاسرون وشعوبهم حساباتهم، يدفعون الجزية ويقدمون الطاعة والخضوع لكن بعد دفن الموتى وإجلاء الجرحى وتنحي أو انتحار القادة المسؤولين.. ثم تبدأ الترجمات وتندمج الثقافات والأديان وتنشأ الحضارات وتعلو مداميكها... فغالباً ما يجد التاريخ لبني آدم صرفة.. عندنا ممنوع كل هذا فالحرب ليست من الفوضى في شيء. ما هو ممنوع، يكون ممنوعاً بإحكام.

لذا ظلت حرب الشارع مستعرة حتى الظهر أو بعده بقليل.

* * * *

هدأت أصوات القذائف. طلع سكان البناية كل إلى بيته. نزل خليل إلى غرفته وتمدد على سريره يخفف من خدر ساقيه. راح يطويهما ويمدهما بسرعة ليسهل جريان الدم. ارتفع لغط في الشارع وأصوات كان أصحابها يتنادون متداعبين.

قام إلى النافذة وأحكم سد منافذ الضوء بالستارة. أزاح برجله شظايا الزجاج عن الأرض باتجاه النافذة وقرر أن ينام.

سأنام طويلاً وعميقاً وحين أستفيق يكون قد عاد، فكّر خليل. ثم سمع طرقاً قوياً على الباب و «أستاذ خليل.. أستاذ خليل افتح». ولما فتح خليل الباب كان مدخل البناية مظلماً.

* * *

كانت الجثة ترتج داخل البطانية الرمادية. لا بد أنها تبدو سوداء من داخل، فكر خليل وهو لا يرفع نظره عن الحمالة. لو كان يستطيع الرؤية لاعتقد أنه داخل بئر..

ليس من داع لكل هذه العجلة وهذه الزمامير، لكن سائقي سيارات الإسعاف صاروا معتادين وقلما يفكرون بحمولتهم أو باتجاه سيرهم أكان معهم جرحى أو موتى أو كانوا ذاهبين إلى المستشفى أو خارجين منها. ثم ما الذي يجبرهم على تحمّل ازدحام السير ومعهم الأعلام البيضاء والزمامير المحذرة.

كانا يتعازمان على السيكارة بشيء من المبالغة ثم يعزمان بتحفظ على خليل. كلّما المركز عدة مرات وراح السائق يمازح الفتاة التي على الجهاز. سأل رفيق السائق خليل عن علاقته بالشاب فأجاب خليل بأنه جار له.. ثم قال: أنا جار أهله وسكت. توقفت سيارة الإسعاف على حاجز مسلح، قال السائق: جثة يا حبيب القلب. ثم سأله، تريد أن تفتش قال الشاب لا وهو ينظر بعدائية وشكّ إلى خليل. قال السائق: جارهم، يقوم بالواجب. قال الشاب أمشِ. يعطيكم العافية. قال رفيق السائق: كم عمره؟. لا أدري بالضبط قال خليل حوالي العشرين.

لو لم يكن آدمياً لأوقفنا وفتشنا، قال السائق بعد فترة صمت وربما لأنه ضجر. أحياناً يهرّبون أسلحة وذخائر بسيارات الإسعاف، قال رفيقه معلقاً، ويدّعون أنها جثث.. لم يحدث هذا

في سيارات مستشفى الجامعة، ولا في سيارات الصليب الأحمر. أنا أعرف قال السائق. ثم فرمل بقوة ونزل صارخاً على رفيق له شاتماً إياه لأنه لم يفِ بوعده ولم يمر عليهم بربطة خبز وعدهم بها. الرباطات الجلدية منعت الجثة من الانزلاق. فكر خليل ثم قال في نفسه: إنني مثلهم أسميه الجثة. اعتذر السائق من خليل وخبط باب السيارة المعطوب عدة خبطات قوية حتى أقفل.

تعالى صراخ زهرة وأمها من البلكون. نزل خليل من الباب الخلفي لسيارة الاسعاف فوجد يده داخل يد رجل مسن كان يعرف وجهه منذ زمن بعيد. نحن جاهزون قال الرجل، فتذكر خليل أنه أحد الأقرباء لكنه نسي اسمه لشدة ما غير العجز ملامحه.

قال خليل للرجل مشيراً إلى سيارة الإسعاف: إنه بالداخل قال الرجل رأيي أن نمشي الآن. هنا الوضع.. كما تعرف.

لم يفهم خليل ما يحاول أحد الشبان أن يهمس به في أذنه، لكنّ الشاب كان يكرر: الأستاذ مستاء جداً. مستاء جداً وهو يسلّم عليك ويقول إنه لم يكن يعلم وسوف يراك.. لكنه مستاء ويرجو أن تتم الأمور بسرعة لأن الأحوال ليست على ما يرام، يقول إن الشباب مهتاجون لأن الشاب.. أعني قريبك قتل أشد اثنين من رجاله. وكانا أخوين. ويرجو ألا يلتئم الناس هنا بحجة، أي بسبب الدفن وسوء الأمور.. وهذا الصراخ.. والأستاذ يسلّم عليك.

لم يعرف خليل إلى أين تحركت السيارة الصفراء التي

حملته. ولاحظ أن الوقت قد أمسى حين توقفت المرأتان كأن فجأة عن الصراخ. كأنني كنت غائباً كل هذا الوقت، فكر خليل، ثم تساءل إن كان خرج إلى الجبانة أم أنه بقي هنا، من ساعتها أي من حوالى الظهر.

فتش عن الرجل المسن قريبهم فلم يجده.

* * *

صباح اليوم التالي كانت امرأة عمه في مدخل البناية تحمل صرراً وأكياساً كبيرة من النايلون. زهرة كانت تستعجل أخويها الصغيرين وفي الباب كان الرجل المسن قريبهم ينتظر. اقترب وسلم على خليل وكان خليل يفكر أنه منذ أشهر طويلة جداً، منذ قدومهم إلى البيت الذي فوق لم يسبق أن رأى امرأة عمه في مدخل البناية.. إنها المرة الأولى.. اشتد بكاؤها وهي تشد على ساعد خليل واشتد بكاء زهرة.

طلعوا في السيارة الصفراء منشغلين بمتاعهم ولم ينظروا إليه من النوافذ الزجاجية. وبعد أن سارت السيارة أمتاراً تذكر خليل أن اسم الرجل أبو قاسم ورآه أقل شيخوخة بكثير يدخل دارهم وفي يده صينية حلوى بلفافة ورقية خضراء من النبطية.

- ٨ -

لم يكن الزمن طويلاً لكن خليل كان يقنع نفسه بأنه زمن كاف لاستعادة ما حصل وتصديقه. فلقد رأى الجثة. لم يرها. رآها ملفوفة داخل حرام رمادي، تهتز بقوة على الحمالة. تمنعها رباطات جلدية من الانزلاق. لكن هذا لم يكن كافياً بالمرّة.

أمه كذلك لم ترَ الجثة. لكن الناس، كل الناس الذين تعرفهم سوف يساعدونها على رؤيتها حتى لمسها باليد. سوف تلبس

ثياباً سوداء وترى أناساً يؤكدون لها ما حدث ويكررون تأكيدهم. سوف تلبس لها النساء ثياباً سوداء، وسوف يقبلنها ويجلسن بقربها مستحثات إياها على المزيد من البكاء. وفي ساعة معينة من النهار، وعلى مدى أيام سوف تسير برفقتهن إلى الحسينية. تجلس هناك وبجانبها ابنتها ويتحلقن حولها. تقوم واحدة تعرف بنشاطها بتوزيع المحارم الورقية على الموجودات قبل أن يبدأ أي شيء، سوف توزع ثلاث أو أربع محارم على كل واحدة لأن الميت شاب انقصف. سوف تصعد امرأة يعرفنها جميعهن على صدر يعلو درجتين أو أكثر وتجلس متنحنحة تجلو صوتها الجميل لتقرأ التعزية في سيرة سادة الشهداء. سوف تقرأ وتغني فتقبل الباقيات على سفرة البكاء وتطلع الدموع غزيرة وتفيض. كلهن سيبكين على الميت وعلى من مات لهن قبله. يقشرن أعينهن على الصوت الحزين المتأوه ويتعازمن كما على فاكهة لذيذة لأنهن يعرفن أن على الميت أن يموت ويدفن وأن ما يدفنه ليس التراب بل ماء العيون. سوف يتساندن ويتساعدن للاصطفاف خلف صوت القارئة الجميل كالصيصان وراء الدجاجة.. يسير صوت القارئة صوب الموت مغادراً الذين ماتوا ملوحاً لهم مبتعداً عنهم. تسير النادبات كالصيصان في خط البكاء الطويل وراء أمهن الموت ليبكين موتاً واحداً يتكرر. يوزع الصوت الموت على الناس ليبكوا حتى يعود ويستجمعه في موت سيد الشهداء.. فحين يتوحد به يبدو موتاً صغيراً وقليلاً وسوف يصير إلى نسيان كنسيان الجزئيات والتفاصيل حين تلتحق بقطب جاذبيتها.

يا للنساء، فكر خليل المستوحش في غرفته وهو يئن

حسداً.. إن كل الحكمة معطاة لهن. حكمة هذه الحياة وموتها وحكمة ما هو أبعد منها... إنهن يحاكين العالم برسائل سرية تجعل أي ملك غير ملكهن هباء.. يبكين الميت فيدفننه لأنهن يعرفن التراب وكل حقول جاذبيته ودوران أفلاكه والأفلاك المحيطة وإلا فكيف يتوقف حيضهن بتواقيت الأجرام السماوية والأقمار على دورة ثابتة تتكرر منذ ملايين السنين، كما يتكرر جزر المياه ومدها وكما يتكرر ليل السماء وضوؤها وبذار الأرض وحصادها..

إنهن يدجن الموت بالسليقة. ينزلنه عن مطيته يجلسنه قربهن باستحياء لكن بثقة القادر. يطعمنه، يشربنه القهوة ويتسايرن معه حتى يصير كأنه من أهل البيت ولا يتوانين أن يحكين له مشاكلهن الصغيرة كجارة اليفة تنقي العدس معك على الصدر النحاسي.

وهو حين يعصى يطاردنه ولا يتهربن منه. أمه ستسكت قليلاً بالنهار مراعاة منها للرجال القائلين بأنه شهيد يلصقون صوره على أعمدة الكهرباء لأنه مات وهو يقاتل العدو... أي عدو هذا؟! غير مهم بالمرة لأنهم لن يفقهوا بأمور سياسة المدينة المعقدة. يرونه كفارس قديم ينازل عدواً ويموت في ساحة الوغى ويقتنعون بأنه شهيد، ويقتنعون براتب آخر الشهر يحملونه لأمه. أمه تسكت في النهار مراعاة لمن حكم الله عليهم بالقصور وبقلة الحكمة. وما أن ينام أولادها الصغار ويعتم الليل حسب ما تريد تقوم إلى مطاردتها العنيدة. تروح تصرخ قبل أن تصل إلى القبر بكثير. تراه قبل أن تصل لأنها تعرف الطريق إليه جيداً. تظل تروح تصرخ وتبكي وتعفّر ترابه حتى

يصل بها الأمر، أو به، أي بالموت، لأن يتحادثا في أمور البيت، كجارة أليفة، تجلس معك إلى الصدر النحاسي إياه. تقول إن الدجاجة لم تبض وإنها أضاعت المقص وتقاتلت مع سلفتها وبأن عريساً تقدم البارحة لطلب زهرة وبأنها استلمت نقوداً من الخليج سوف تشتري بها زيتاً لأن القلّة صارت على آخرها.

وأنا كمن يسرقون منه موتاه قال خليل بتحسر على نفسه.. أو كمن يسرقون منه قتلاه ويتركونه على طرف الصحراء، قبل القتل بلحظات... إني كمن يربي قتلاه بدموع العين.. ينقش صورتهم نقطة نقطة ودائماً قبل أن تستوي الرغبة، قبل أن يلوح ما يشبه موسم اليناع أو دائماً قبل أن تتضح رغبة خليل الدفينة الكامنة بقتلهم يقتلونهم ويسرقون جثثهم ويتركون له نقصان البكاء وغياب ملكة الدفن ليذكّرونه دائماً بأنه ليس رجلاً ليستوهم وليس امرأة ليصدق.

يتعالى حسد خليل ويشتد... ويحتار فيما عساه يعمل ليرى موتاه ويدفنهم. ما ينفعه أن يتمدد على سريره الضيق منتظراً فهو يعرف أن الوقت لا يمر على هذا الشكل، لا يمر إذا تمددت تنتظر وتنظر إليه في فراغه. للوقت معدة يجب أن تمتلىء حتى يستطيع السير كأي حصان أو سلحفاة، فبم يملأ خليل معدة الوقت؟.

لم ير خليل جثة ناجي لكنه اخترع له جثة ورآها وذهبت. ابتعدت عنه وذهبت لكن كيف له أن يرى جثة يوسف الذي استشرس في معركة الشارع حتى قتل فيمن قتلهم، اثنين أخوين من أشد رجال الأستاذ بأساً فلحقه رفاقهما وقتلوه في

سيارة الإسعاف، في طريقه إلى المستشفى وهو لم يكن إلا جريحاً مصاباً في كتفه ورجله. لشدة ما استشرس في المعركة. لشدة ما قتل من أعدائه، من أعداء حزبه من أعداء عقيدته... وخليل يكرر لنفسه أن هذا ما حدث وأن يوسف لم يُقتل على حين غرة، فيما هو سهران مع الشباب أصحابه أو في نوبة حراسته على الكرسي في الشارع، أمام المبنى القريب حيث مركزهم. وأنهم لم يفاجئوه لدرجة لم تسمح له برمي سلاحه وحذائه العسكري والصعود إلى البيت بعد أن وجد أن المسألة هي أكثر من مسألة قنينة غاز وأجر آخر الشهر والسنة الصغيرة التي يصرفها موفراً قسط جامعته للسنة التالية وإن الأمر فيه من الجدّ ما يجعلها قضية حياة أو موت. ليس الأمر كذلك... كان يقاتل. لقد سبقني يوسف إلى أبعد مما رسمت له من أفخاخ. إلى أبعد بكثير. لقد اندمج يوسف وأكثر. من كان يوسف الذي قتل؟ وعرف خليل أنه يلزمه الكثير من الوقت والحيرة للعثور على جثة الذي قتل في سيارة الإسعاف لكن حدساً قوياً كان يؤكد له تكراراً أن البطانية الرمادية التي تبدو كالبئر من داخلها إنما كانت بئراً حقيقية وأن يوسف كان داخلها ولم يخرج منها وأنه هو خليل ليس سوى إخوة يوسف الاثني عشر.. إنه أخوة يوسف الألف الذين ألقوا يوسف في البئر.. وإن يوسف لم يخرج من بئر أخوته.

حسناً قال خليل قاعداً في سريره.. أنا الذي حفرت له كل الحفر حتى تلك التي سبقني إليها ورميته فيها وأخطأت وقعدت أنتظره ولا أنتظره يعود. فشلت كثيراً قبل أن أنجح، أنا الذي فتحت باب سيارة الإسعاف الخلفي وأمطرت جسده رصاصاً

كثيراً ترك فيه فجوات حمراء محروقة الحواشي مفتوحة مخرّمة الأطراف فاغرة كأن على عطش عظيم. أنا من قتل يوسف وخرج حراً من مغنطة جسده السام. انا الحر الآن منه سأقول اني قاتله وأضع اعترافي كبطيخة كبيرة. آكل موته لقمة لقمة حتى تخلص البطيخة. آكل قتله حبة حبة ليخلص. أبكي ندمي وخطيئتي العظيمة وعشقي المقصوف. أبكيه طويلاً وبنشيج عميق وبالمرارة المستوجبة...

لكن البكاء لم يكن يجيء...

* * *

- IV -

١ -

ليس الوقت مطيّة تأكل لتمشي.

الوقت زلابية. قطع صغيرة مبعثرة وخاوية حتى من هشاشتها.

في مدينة، كتلك التي لنا، تكون حياتك كخشبة اللحم. ووقتك، تقف على المجلى تشمّر عن ساعديك وتروح تفرمه قطعاً صغيرة وتأكل. قطعاً صغيرة جداً تتضاءل كلما تجمعت.. كلما تقدمت في الفرم تقدمت القطع الصغيرة في الانقضاء. لا يشد وقتك ويعطيه جوهره أو محتواه سوى القصف. القصف يعيد توزيع التواقيت على المدينة كإمساكيات شهر رمضان. قبل القصف - خلال القصف - خلال القصف الطويل - بعد القصف - قبل القصف. كل أنواع القصف.

كل شيء مفروم إلى قطع صغيرة من الهباء إلا أبان القصف. على الراديو لا تسمع سوى شذرات الكلام والأغاني.. الأغاني الطويلة مثل أغاني أم كلثوم لا تسمع - بدون قصف - سوى مقاطع صغيرة جداً منها لأن الكل يكونون مسرعين. حين يشتد القصف قد تسمع تلك الأغاني بكاملها إذ ينشغل مقدمو

الفترات الحية بأنفسهم وبأمنهم وبسماع الأخبار هنا وهناك فيتركون مطوّلات الأنغام على غواربها.. معدّو البرامج السريعة لا يستطيعون في غالبيتهم الوصول إلى مراكز البث الإذاعية والفترات الحية يصبح من المستحيل تنفيذها، كتلك التي تغطي نشاطاً فنياً أو اجتماعياً أو تنبري لمقابلة طريفة مع فنان.. حينها تكبر قطع الوقت وتستدير وتسمع ما ينبغي أن تفرد له وقت السماع.

القصف السعيد يرد إليك الوقت الأصلي، ويعيد التماسك الأول إلى المدينة. الموت هو غراء المدينة الوحيد، وهو الذي يستجمع شظاياها الصغيرة الكثيرة، يشدّها إليه كبرادة ممغنطة.

الموت هو ذكر المدينة الوحيد، حين تستغرق في غواياتها وألعابها يلوي ساعدها ويشدها في نتعة واحدة إليه فتركن وتهدأ وتنتظم أنفاسها.

إنه يعطيها طعمها الحقيقي الذي تتناساه حين يرتفع القصف. الموت هو أبو المدينة الذي يذكرها دائماً بوجوب الامتناع عن الوقوف إلى النافذة.. ينتهرها راداً إياها عن أحلام تراودها باللعب خارج الحظيرة، وبالتكلم إلى الغرباء، وبشهوة التشبه بالعالم البعيد الذي يرسل إليها صوره الفاحشة في المجلات، والكتب الخليعة والتلفزيون.

حين يشتد القصف يجلس الموت وراء مكتبه. ينظف نظارتيه جيداً قبل أن يلتقط المسطرة الطويلة والقلم ليهندس المدينة كما يليق بمهندس عظيم، فلا يخرج إلى شوارعها إلا

ذوي العلاقة: المتقاتلون ومنظمو القتل. أما من لا عمل له فيتلطّى في أقبيته، في أماكنه الطبيعية فلا تختلط الأمور، ولا تسير النعجة إلى جانب الذئب، وهي إحدى كوارث الطبيعة وشواذاتها المرّة ولا يكون مكان للالتباس كأن تتساءل إذا ما كان بائع الأحذية أحد تجار الدم، أو الأدوات الكهربائية المنهوبة. حتى اللصوص الصغار ينضبطون ويلتزمون حياتهم العائلية.

الموت سيد الوضوح والدقة لكنه لشدة دقته ووضوحه يتعالى عن المدينة كجوهر ويتعذب كلّما اضطر إلى الحلول بمظاهر له وأشكال. يتعذب عذاب المعنى في التجسد والحلول في مبانيه القاصرة عنه دوماً، الضيقة أبداً على كتفيه اللامتناهيين.

يتعذب السيد الموت حتى حين تتكلم عنه زوجة رئيس التنظيم. إنها تساند زوجها العسكري بمؤهلاتها المدنية الأهلية لاستتباب السلطة ولمزيد من مصداقيتها. إن عسكر زوجي يقتل لأنه دائماً مضطر للقتل فيما أنا أنزع مصاغي وأتبتّل للحرب لأرقى بالموت إلى أسمى مظاهره، إلى الشهادة.

إنهم يفقدون أحشاءهم وأعضاءهم على الأسفلت، في الحرّ وفي المطر لأنهم حسّاسون ولأن عندهم كرامة الأذكياء، لأنهم يعرفون أنه من الأفضل لهم أن يرقوا إلى جوهر الشهادة من أن يموتوا هكذا سهوا، خطأ ودون خلود، إنهم يشعرون بي، يعرفون أن الرئيس لا يقربني مرة في السنة لشدة ما هو مشغول بهمهم، لا يرى أولاده. وأنا هنا أحرق وقتي وصباي وأهمل والديّ وبيتي من أجلهم، من أجل الجرحى والأيتام

والمعوقين. أنظروا معوقينا، ضحية العدو، الذين ردهم إلينا الإله الموت ليشهدوا على براءتنا، لنفرح بهم وبإعاقاتهم الخالدة، ولنبصق ما في ضمائرنا الضعيفة من سموم القلق. معوقونا الجميلون يتعكزون على عصيهم وأيـديهم ممدودة يتلمسون الحيطان إلى شفاعاتنا، وشاطرون بتقشيش الكراسي اكثر منكم ويجلسوننـا عليها لنـرتاح منكم. إنهم يلعبـون بأعضائهم المبتورة وعيونهم المقلوعة ليشعرونا بسعادة وراحة الضمير، وليستحثونا على المضي في الطريق الصواب. إنهم يسيرون على كراسيهم المتحركة بجذل البجع يدفعون مقاتلي تنظيمنا بالزغاريد وقرع الطبول. يتركون أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم ليتبعوا التنظيم السائر على وجه الماء.

سنفتح شهية المجتمع على شكل تقشعر له الأبدان. سننظم صفوفاً للخياطة والتفصيل. مشاغل للحياكة والتطريز، أسواقاً لبيع المحاشي واليخـاني والمكابيس والمـربيات. سنعبىء أكياس الرمل برمل كليّهم وننظّف محيطات الحواجز ونغسل صور الشهداء بأمصال جرحانا ونلمّع زجاج المراكز الحزبية بماء مآقيهم وننقع الرصاص بلبن الرضّع ليجلو ويلمع في الضوء الشحيح.

سننظم الحياة، كل الحياة الحقيرة الفانية الوسخة هذه، الحياة التي لا تستحق أن تموت برصاصة طائشة بل برصاصة محكمة من أجل التنظيم، سننظمها على شاكلة التنظيم الخالد بالموت، وسنلخصها للحائرين المرتبكين، سنلخّصها كثيراً...

يتعذب الموت كثيراً لكنه لا يتوقف أو يستسلم لزوجة رئيس التنظيم.

دم.. كان خليل يتقيأ دماً أحمر ولا يستطيع مسك أمعائه ولا مسك زوجة رئيس التنظيم التي راحت تنهي خطابها راقصة على أدراج البركة ذات النافورة التي تفيض دماً، صارخة لاطمة وهي تجس رأسه الملتهب بالحرارة.

ثم جلست زوجة رئيس التنظيم وراء ماكينة سنجر ذات هدير وكلما استغرقت في عملية الدرز كانت تكثر وراءها صفوف الفتيات الصغيرات وراء ماكيناتهن. ثم دخل يوسف إلى مقدمة المكان العارية إلا من مرآة كبيرة، وراح يمشي بخطوات خفيفة فارداً يديه، طاعجاً خصره على طريقة عارضات الأزياء. وتوقف هدير الماكينات فالتحقت الخياطات الصغيرات بزوجة رئيس التنظيم والتففن حولها وفي يد كل واحدة قطعة صغيرة جداً من قماش أبيض. ثم ابتعدن وتحلقن حول النافورة الحمراء تاركات فراغاً صغيراً إلى حيث زوجة رئيس التنظيم ثم رحن ينشدن بأصوات ملائكية رفيعة جداً كأصوات رضع يبكون.

ثم وقفت زوجة رئيس التنظيم ومشت باتجاه يوسف فوضعت يدها حول خصره النحيل وراحت ترفع قميصه القطني إلى فوق حتى سحبته من رأسه واستدارت ونفضت ما بيدها فظهر جناحان أبيضان كبيران مفرودان معلقان بخيطان حريرية كثيرة. استدار يوسف فراحت زوجة رئيس التنظيم تمرر الخيطان الحريرية البيضاء من الفجوات التي أحدثها الرصاص في صدره من أجل أن تثبت الجناحين. بعد ذلك عانقته بقوة ثم شبكت يدها في يده وراحا يتقدمان بخطى مقطّعة إلى البركة فتعالت أصوات الفتيات وصعد يوسف أدراج البركة حتى وصل إلى نافورتها فجلس على النافورة مرفرفاً

بجناحيه الأبيضين حتى صار السائل الأحمر ينوفر من قمة راسه دون أن يتلوّن جناحاه.

* * *

جلست الرائحة الكبيرة أمام طشت نحاسي ثم ابتعدت قليلاً، حمله قسم صغير منها إلى مياه دافئة كان يعرف شبيهاً لها ويحبه وراحت تحمّمه وهي تغني وتضحك عالياً.

كانت عيون أخواته مثبتة إليه، ضاحكة ومشدودة إلى عضوه الصغير ذي الشكل الجديد على العائلة.. كانت البسملة تحيط به كالبخار الدافىء المتصاعد من يديها ومن بطنه المكوّرة تحت الصرة النافرة. مسدّت رأسه بزيت له رائحة البخور ثم نقطت من ثديها الكبير حليباً أبيض في عينيه. إحدى أخواته كانت تصفق كلما لمست جلده المائي فيما الأخريات يدفئن رجليه الكرويتين بأيد تروح وتجيء إلى المدفأة، ويتضاحكن. هل كان الثلج يتساقط خلف النافذة أم أن الحليب في عينيه كان يحيل كل شيء إلى بياض؟ ثيابه البيضاء كانت تنتقل من حضنها المقعّر الدافىء، إلى أيدي الفتيات كبقايا قديس صعد لتوه، وعلى غنائها المتقطع كن يلملمن ماء جسده وخيطان أقمشته وأربطته وشعر رأسه ليدفنّها في عناية بعيداً عن حسد الغرباء.

بعد أن سقطت الصرّة صار يقف في الطشت قليلاً فتعود هي وتجلسه بالبسملة وردّ الستارة. وكن يتحلقن حوله محاذرات أن توقعه ضحكاتهن في الماء. كن يرددن المناشف البيضاء عليه كمن يكفّن رغبته الفرعونية بالذهب ومائه،

ويتناقلن زيوت دلك جسده الطاهر ككاهنات صغيرات. ثم ترفعه أمام جوعهن إليه إلى ثديها الكبير الذي ينقط حليبه الدافىء على وجهه قبل أن يصل إلى فمه فيرفع قبضته المكورة ويروح يخبط ويخبط طالباً المزيد من الرائحة لحمّام شهوته السعيدة.

بعد أن صار يمشي ويلبط ماء الطشت طالباً خروجهن كوليّ عهد سيء الطباع تضاءلت الرائحة إلى درجة صار صوت مطالبته بها أكثر خشونة. كان الثلج يتساقط خلف الستارة ومناشفه ملقاة على كرسي خشبي صغير قرب الطشت الفائر برغوته البيضاء حين راح يصرخ بما يشبه البكاء فوقع صوته في الماء. فجأة غادر سوبرانو الرائحة الأولى دون أن يدري، كأن سهواً. وأدرك ما يشبه الفزع في عيونهن. احمرت وجنتا الصغيرة وراحت الأخريات في ضحك مكتوم. طردتهن كالفراشات من الغرفة وقالت: «صح صرت رجلاً وستستحم لوحدك».

وضعت يدها على فمها ضاحكة وقالت: تكلّم بعد، أسمعني صوتك. ثم خرجت بثدييها اللذين اختفيا لحظتها تماماً، وردت الباب على ضياعهما.

حين وقع صوته وانكسرت موجته العالية كزجاج المصباح كانت دهشته أكبر من أن تترك له فرصة أن يعرف ما الذي خسره الآن، إلى الأبد. صار صوته ثخيناً كجرح ثخين وسقطت أوراقه الخضراء في لحظة لتتركه جزءاً كبيراً بنياً ناشفاً، سوف يحمله على مدّ اللغة إلى برزخ الانطفاءات المتتالية.

صوته الذي وقع كأن في خصيتيه الخفيفتين، قال له، من

تحت بأن له جنساً وبأن له عمراً وبأن جنسه وعمره قد بدآ الرحلة خارجاً، تحت الثلج المنهمر، حتى لو ظل طيلة عمره واقفاً في رغوة الطشت. تلك النبرة العالية التي ضاعت إلى الأبد، ضيعت معها تلك السعادة الغامرة بأن تكون خارج الجنس، وهي تركت خليل قبل أنْ يعرف على أي وتر سوف يعزف ليعوض تلك الخسارة.

جلس خليل على الكرسي، فوق مناشفه، وراح يحكي نفسه بصوته الجديد فلم يسمع شكواه، ولم يستطع الالتحاق بنفسه، بجنسه، في صوته. كلما تكلّم كانت شكواه تخاف، تنفر منه وتبتعد إلى الخارج، خارج المملكة التي يعرفها والتي سوف تموت النساء فيها. وبعد الآن لن يتكلم بصوت بل بلغة.. وعليه أن يعرف لغة من.

كل صوتي سوف يكون خارج لغتي، وسوف تتقشر عنه وتنخلع كما انخلعت الآن ولن أستطيع أبداً، ولا في أي يوم اكان مثلجاً أم مشمساً أن أعرف من أنا لأني لن أستطيع ولا في أي يوم أكان مثلجاً أم مشمساً أن أعرف من كنت وأن اتذكره كما ينبغي التذكر.

التفاحة الصغيرة التي علقت في حنجرته دون أن يقضم منها سوف تحيل كل الألوان، من الآن فصاعداً إلى تنويعات حمراء.

* * *

كان خليل مريضاً جداً ولا يتوقف عن التقيؤ ماء مشوباً دائماً بحبال قصيرة صغيرة حمراء.

لا أحد يدق الآن بابه لذا يتمدد جسد خليل أحياناً ليملأ

الغرفة المظلمة، وأحياناً يتقلّص حتى يكاد يرميه من بالوعة المرحاض ويشدّ عليه السيفون. أحياناً كان جسده يقترب حتى يكاد يدخل بكامله في معدته ويبتلعه كحية، وأحياناً كان يبتعد ويرخو ويتبدد حتى يكاد يتسرب من ثقب الباب ومفاصل النافذة وأفواه الحنفيات والبالوعات. لكنه كان عطشاناً دائماً، يبلع كميات كبيرة من المياه التي لا تلبث أن تفرّ كأنها ترى ما يخيفها داخل أحشائه التي تعود لتوها إلى حالة القطن.

كان كذلك شديد التعرّق، مصرّاً ألا يفتح النافذة في هذا الطقس الحار. ويظل جلده يرشح ولو خفيفاً فيخلع كل ثيابه ويجلس نصف مستلق على كرسيه ويروح يتأمل جسده الضعيف لوقت طويل.

للسلحفاة درع وللسمكة حراشف وللقنفذ أشواك وللأخطبوط ممصات وحبر وللخروف قرون وللهرة أظافر وللكلب أنياب فكيف لا يكون للإنسان في جسده ما يحميه. إنه عار ومكشوف لدرجة أنه يموت من الهواء. قلّ الشعر الذي كان يغطيه حتى اختفى وصار يمشي على قائمتيه الخلفيتين فازداد انكشاف جسده وتعرضه، فيما ازدادت الأشياء المحيطة به خطورة وأذية، فكيف لأي كان تلك الشجاعة الهائلة بفتح بابه والخروج إلى ما بعد الحيطان.. بل كيف يجازف بفتح نافذته وهو يعرف أن البراري تموج سماؤها بالنحل والدبابير والعصافير ذات المناقير المعقوفة. إن هشاشة جسده تجعله دون سائر المخلوقات يموت سهواً وعن غير قصد من أعدائه وإلا فما من حيوان آخر يقضي إلا لأسباب واضحة وأهداف.

إنهم يستمدون شجاعتهم من وضوحهم، قال خليل وهو

يسمع لغط الأولاد اللاعبين في الشارع، المتراكضين في مدخل البناية. وإلا فكيف يفسّر تأجج شهوته حين يرى في الجرائد جثث الرجال القتلى المكشوفي الجذع دائماً. إنه يشعر بذلك الاضطراب الذي ينزل مباشرة من رئتيه إلى نصفه السفلي كلما رأى في الجريدة جثة مكشوفة الصدر والخصر والورك والرقبة والسواعد، ذلك أن أجسادهم الثابتة العارية تلك تؤكد له بما لا يرقى إليه شك بأنهم رجال، وبأن اشتعال ذكورتهم الحاد هو الذي أدى بهم إلى القتل. إنهم ذكور إلى درجة تجعل جسد خليل الشديد الشحوب والسكون إلا من تورّد زهرته الفقيرة البشعة التي ما انتظمت يوماً لغة بينه وبينها، والتي سرقت من خليل صوته الأولي ولم تعطه صوتاً آخر، ولم تتبناه. وبقي كأنه ابن الغسّالة.

كذب.

كلما أتاه وجه يوسف صار جسده كله فماً. يعرف الآن بأنه حاكي الحكاية وأنه الزبون الذي يسمع، بأن الزيت الذي في الطنجرة، يبقبق ويدخن منتظراً أن يسحب خليل أوهامه الماضية ومداورته الماضية ومواربته وخوفه ويأكلها لأنها نضجت أكثر مما ينبغي.

والنساء، النساء اللواتي يشبهن أمي ويشبهن أخواتي، ويشبهن صوتي الأول؟ هل متن؟ هل أمطروهن بالرصاص في سيارة الاسعاف وقتلن كمثل قتل يوسف؟ هل أنا أعرف ما أعرفه؟ هل أوقن منه؟

ستمشي امرأة أمامه ولا سيقان، سيتحرك جذعها ولا ثديان، ستسأله عن بيت أحد الجيران وتنظر في عينيه فلا يرى

شفتيها، ستمد يدها رافعة شعرها عن رقبتها النحيلة المتعرقة فلا يرى، ولا يرى عروقاً خفيفة تحت يدين صغيرتين تدعكان فخذين مستديرين بالكريم المرطب فيما الحنفية ما تزال تنقط فوق بخار المغطس.. لا يرى صرّة تغور كمقبرة صغيرة في سهل من الطحين المتطاير الممتد، مستديراً كحقول روسيا في كتاب الخرائط.

كل هذا حزين ويثير البكاء لولا أن جسد يوسف المرفرف بالجناحين الأبيضين ما زال ينزّ سوائل جيلاتينية تتكوم كالأدراج يصعد عليها خليل مترنحاً، يصعد كأن مشفوطاً من رأسه الفائر، يصعد كأن مشفوطاً من فمه المعطل عن أي بوح أو تقبيل يصعد إلى عناق يطير ثم ينهمر لتوه كرذاذ خفيف فوق محيط هائج فلا يصل.. يصعد خليل من جسده إلى جسد يوسف الماثل فوق كقديس صعب ومراوغ، والنافورة لهب من كل مسامه العالية، تستدير كهالة من نار حوله كلّه.

يعيد خليل التأمل في جسده الذي لا يعجبه، في ساقيه الضعيفتين الخشبيتين في صدره المقعّر كمقلاة مكسورة اليد، في ساعديه النازلين على جانبي الكرسي كمكنستين بلا قش، جسده الممصوص المفتّق الذي يشبه الفزاعة المزروعة في حقل قاحل أجرد، فزاعة لا تخيف سوى غربان عينيه الساهيتين.

مسكين يا خليل. مسكين سريرك ومسكين جسدك المتدلّي كرقاص ساعة مزنجر ومعطّل.. مسكين مرضك ومسكين قيؤك ومسكين خجلك بنفسك.. مسكينة حربك.

مسكين يا خليل العليل.. يا خليل الذليل. يا خليل القليل.

٢ -

لم يعد جسد خليل يسير معه إلى أي مكان.

صار يحرن ويدق أظلافه في الأرض كبغل عنيد، لذا أخذ يشغله بدل أن يشتغل معه.

كان خليل يقضي وقته بالسهيان، بالنوم، بالنظر إلى الحائط، بسماع الراديو، بالقراءة. الآن صارت بشاعة جسده وآلام معدته تأكلان وقته، ذلك الوقت الذي كانت مهمته إخراج خليل من جسده، تخفيفه منه، حمله إلى الحلم والحائط والراديو والكتاب. ذلك الوقت كان متعة خليل الكبيرة لأنه كان ينقضي بعيداً عنه، كان مشغولاً بفراغه المبارك وبهشاشته وبمطواعيته الكبيرة.

الآن، يفتح خليل كتاباً ويبدأ تسلق سلم الصفحات فيقوم الكاتب، قبل أن يصل خليل إلى حافة النافذة، يقوم بدفع السلم من طرفه الأعلى فيقع ويقع عنه خليل.. وهو حين يكرر المحاولة بشيء من التحدي يتلقى تهديداً واضحاً من الكاتب بمعالجة الموقف بالزيت المغلي للدفاع عن قلعته الحصينة. فيغلق خليل الكتاب خائفاً صاغراً.

وهو حين يفتح الراديو ويبدأ قليلاً قليلاً بالنفاذ من جدران غرفته تروح معدته تشده من أذنه كخالة قاسية، تطفىء الراديو، وتجلسه وسط الغرفة، على البلاط البارد.

أحياناً كان يهم بالخروج لكن خوفه كان يرده عن الباب في اللحظات الأخيرة فهو يعرف أن ما من دروع واقية تحفظ جسده

البشع الذي لا يملك سواه وأن درجة سرعة عطبه عالية جداً وشديدة الاحتمال. وبالنهاية مهما كان جسده بشعاً وكريهاً فهو حافظة روحه... روحه التي يتمسك بها.. وروحه لا تعني شيئاً آخر سوى حياته... وهو وإن كان لا يتمسك بها بقوة إلا أنه أكثر جبناً من فقدها، أكثر جبناً من أن يتألم، ذلك أن كل الذين يموتون، يتألمون ألماً شديداً، لا شك.

أحياناً كان ينصت بشغف لوقع الخطى في مدخل البناية. يسدّد أذنه نحو الباب ويروح ينظر من طرف عينيه متوقعاً طرقاً يسحبه بقدرة قادر إلى فتح الباب، وبقدرة قادر يطل وجه حبيب. ثم عرف أن لا وجه حبيب لديه ليطل فصار يكتفي بطلّة وجه أليف. لكنه بقي مكتوم النفس جامداً في مكانه حين أتى نايف ودق بابه عدة مرات. سمع صوته في المدخل يسأل أحد الأولاد إن كان يرى خليل داخلاً أو خارجاً. سأله منذ متى لم يرني ثم طلب إلى الولد أن يبلغني، حين يراني، بزيارة صديقي نايف المحتاج إلي رؤيتي لأمر ضروري. دائماً أمور نايف ضرورية.

لماذا لم يفتح خليل لنايف؟ كان يسمع طرق الباب ومحادثته القلقة مع الصبي وهو يشعر بسعادة غامرة، وكان صوت نايف يأتيه كريماً بالإلفة التي كان يتحرق إليها. لكنه لم يفتح.. ربما أراد اختبار إصرار نايف على رؤيته، على السؤال عنه، على حبه.

لكن نايف أتى مرة ثانية. ومرة ثانية لم يفتح خليل الباب لكن هذه الزيارة الثانية لم تفرح خليل فالطرقات لم تكن لجوجة ما يكفي. وحين رفع خليل طرف ستارة النافذة رأى نايف.. كان

وجهه يُبدي شيئاً من الانزعاج. لم يظهر عليه القلق أو الحزن. طلع بسيارته وراح دون أن يسأل عن صبي الزيارة الأولى. لماذا لا يفترض أني ميت هنا، في هذه الغرفة، وبأن على أحد ما أن يفتح عليّ الباب ليدفنني. ربما بحث أنفه عن رائحة كريهة. ولمّا لم يجدها لم يخلع الباب. وذهب. إنه يأتي لأنه ضجر الآن بعد أن سافرت كلود ويريد ممن هو فاضي الأشغال أن يصيخ السمع لدراما علاقة الرجال بالنساء وهو بالطبع لا يجد غيري.

كان ينبغي على نايف أن يخلع الباب ويدخل بالقوة ويغمرني إلى قلبه ويربّت على رأسي، وأبكي فرحاً بحبه.

بعد أسبوع عاد نايف للمرة الثالثة. قام خليل وفتح الباب لأنه كان يعرف بأن نايف لن يخلعه ولن يطرق بقوة ولن يسأل الولد حتى ولو التقى به في مدخل البناية. قام فتح الباب وقال لنايف بعد أن جلس متثاقلاً.. قال لي الولد أنك سألت عني.. كنت في الضيعة. طبعاً، قال نايف، توقعت ذلك.... ماذا تفعل بالمياه. مياه الجريدة نفدت. يشترون سيتارنات مياه. البيت غير معقول. صرت أقرف من النوم فيه والكردية لم تعد تأتي. الأكراد صاروا أغنى سكان بيروت. إنهم يشغلون السيريلانكيات عندهم. أنت ماذا تفعل؟ أتدبر أمري قال خليل الذي لم يستحم منذ وقت طويل والذي افترض أن لحيته الطويلة الشائكة سوف يعزو نايف أمرها إلى حداد مبالغ فيه.

أنت لا شك تستعين بمياه الشقة فوق، قال نايف. فضّل خليل ألا يجيب وأن ينفض من رأسه صور الشقة التي فوق

والتي راحت تبعث إلى ذهن خليل بشرائح محطمة من الصور السريعة.

ماذا يريد نايف؟

على فكرة، قال نايف، لقد أوصاني الأستاذ بالسلام عليك.. قال إن لك شخصية فريدة. استرسلت بالكلام عن السنين الماضية فطلب إليّ أن تجتمعا لكنني أجلت الموضوع بسبب الحساسية مما حصل.

ماذا يريد نايف؟

هل تريد أن تستحم يا نايف؟

لا، قال نايف. أشرب فنجان قهوة.

لم يجد خليل بناً على الرف حين غلت مياه الركوة الصغيرة. خرج نايف وعاد بكيس صغير وصنع القهوة بنفسه..

سكب لنفسه فنجاناً ونسي أن يسكب واحداً لخليل ثم راح يعلّق على الفوضى المستجدة على الغرفة مستغرباً ومبالغاً في استغرابه. كنت شديد الترتيب يا رجل.. كنا نحاذر كثيراً حين نكون عندك. هكذا أفضل.. ربما هو دليل ضجرك من العيش وحيداً، بلا نساء، أعني بلا امرأة. لكن إياك أن تفكر بالزواج. إنه مغطس رهيب يا رجل... كل الناس يعانون.. فقط هناك من لا يريد الاعتراف بذلك يكابر. والمشاكل لا حصر لها. مجرد أن تشعر بأن كائناً ما مفروضاً عليك. هكذا أول ردة فعل هي الكراهية. الكراهية العميقة الكامنة التي يلزمها الكثير من الوقت والتواضع ومن البلف. لكن هذا محال لمن عنده رأس يفكر.. مستحيل مهما فعلت. جحيم محقق.

ماذا يريد نايف؟

كل الناس، حتّى هؤلاء الذين يبدون على درجة عالية من التماسك والانسجام أو من التواطؤ المتبادل. عندما رأيت الأستاذ وزوجته فهمت أن درجة التفاهم ليست سوى انكشاف متبادل. الاثنان يعرفان بعضهما جيداً. الأوراق كلها على الطاولة. ماذا تريد وماذا أريد دون كذب أو غش أو مواربة أو أوهام. هو ذكي ووصولي وهي ذكية ومستفيدة. متفقان. كانا متفقين. كل هذا البناء المتقن الذي أكل سنوات طويلة لتمتينه وتجميله انهار أو يكاد. كل ذلك بسبب سفر أخته التي أخذت أمها بيدها وأجلستها في الصالون أمام كنتها، زوجته، ولم تنس أن تلقي بالصرّة الصغيرة في الممشى، وسافرت. قامت قيامة زوجة الأستاذ لأن هذا العامل الطارىء لم يكن وارداً في الحسابات بالمرة، وراحت تهز أساس البنيان بكامله وهو غير مهيء الآن لمثل هذه الفظاعات.. والوقت الآن موسم والشغل في عزه... الشباب الذين انتشروا في حيّكم أوحوا له بالحل أعني الشقة الفاضية فوق. قالوا نأخذها مركزاً لنا، مستودع أسلحة أو ما شابه. ففكّر هو بأن يحل مشكلته أعني أن يسكن فيها أمه الحاجة، بعيداً عن زوجته. جاء إلي. أجبته بأني لا أعرف شيئاً عن المسألة - على فكرة الجماعة لن يرجعوا بالتأكيد. عليك أن تنزل الأغراض ذات الفائدة إلى هنا وإلا فسوف ينظفونها من كل شيء، أحسن تنظيف، كما تعلم. من سيقول لهم لا. سجاد، فضيات أثاث.. أي شيء تنزله تكسبه اسمع مني.

هذا إذن ما يريده نايف. عرض الشقة على الأستاذ لمزيد من العلاقات الاجتماعية الناجحة، لمزيد من التحسب في هذا الزمن الرديء. وهو يمنحني ما يمكن أن أستفيد به، أفرّغ

الشقة من محتوياتها فيدخلون إلى شقة فارغة وأنا أستفيد وهو يستفيد والشباب يستفيدون وزوجة الأستاذ تستفيد وأمه تستفيد وتعم الغبطة والفائدة. وإلا.. فمن يستطيع أن يقول لهم لا.. من يستطيع أن يقف بوجههم؟

يا للوضوح.. فكر خليل.. ولكن.. ماذا أفعل بنايف صديقي، بصديقي نايف، الذي هو نايف، الذي هو صديقي.

* * *

كان اسمه مصطفى لكن خليل كان دائماً يدعوه بينه وبين نفسه العريس لأن صورته كانت دوماً تقترن بصورة العروس ساكنة الدور الرابع، ذات القبقاب العالي ذي الدانتيلاً.

قال مصطفى لخليل: لا أدري ما ينبغي عمله.. الرائحة لا تطاق. إنها تملأ المكان. ذهب أحمد إلى ابنها لم يجده في أي مكان. زوجته قالت إنه مسافر وإن المكان هنا ممنوع عليهم وطلبت أن نتدبر الأمر... زمن غريب يا رجل. يجب أن تصعد معي. أنا لست مجبراً يا أخي هل نتّصل بالصليب الأحمر الطقس حر وهذا لا يجوز.

كانت الحاجة مضطجعة على جنبها جاحظة العينين فاتحة فمها علي آخره. بطنها كان شديد الانتفاخ وأطرافها متباعدة. كانت حافية القدمين وبقربها فردتا شحاطتها البيضاء متباعدتان. كان غطاء رأسها الأبيض يلامس رقبتها المشقوقة على بقعة من سواد شمعي يغطيه ذباب كثيف. سريرها كان مرتباً وشراشفه ناصعة البياض، وعلى وسادتها العالية

نظاراتها المكبّرة ذات الإطار البنّي ومصحف قديم سميك الصفحات.

فقط الرائحة الشديدة كانت تضرب هدوء المكان.

٣ -

تلك هي أجمل العلاقات بين البشر. على يمينه امرأة خمسينية ذات عجيزة لينة دافئة وكبيرة كانت تترجرج وهي تلامس ورك خليل وأعلى فخذه كلما اهتزت مقاعد سيارة الأجرة البالية الجلد والرفّاصات. وعلى يساره كهل يحمل ملفاً بلاستيكياً شفافاً فيه كدسة أوراق ومعاملات مصرفية. إنه أحد عملاء الشركات الخاصة الذين يتحولون إليها بعد وصولهم إلى سن التقاعد في وظيفة الدولة. كان له يدان طريتان رغم بقع النمش البني الخفيف على ظاهرهما. كان، كل بضعة دقائق يخرج ورقة من الملف، يتفحصها بنظارتيه ثم يعيدها بحرص وترتيب إلى مكانها ويعيد النظارتين إلى جيب قميصه الأبيض.

إنناعلى قدر كبير من الصداقة أنا وركاب السيارة الأربعة. نستأنس بأصوات بعضنا ودفء بعضنا بخفة متناهية، لا يعكرها أو يثقلها أية تبعات لأننا جميعنا نعلم كم أن لقاءنا عابر وسريع وبالصدفة المحض. لن يلزم أحدنا الآخر بذكرياته أو بأفكاره.. فقط نتحادث بعض الوقت كعصافير أخوة سرعان ما سيطيرون من عشهم، ولا يكون الوقت كافياً لنتوجس شراً ببعضنا أو لنؤذي بعضنا.

نزل راكب كان يجلس بقرب السائق فترحرح الآخر في

جلسته وقال بأن على الإنسان ان يحفظ لسانه هذه الأيام لأن الدنيا ملآنة بالمخبرين السريين وأن كل ما قاله الراكب الذي غادر لتوه هو من قبيل الدس واختلاق الإشاعات. مخبرين سريين لمن؟ لأية دولة؟ تساءل خليل وعنّ له أن يضحك عالياً لطرافة الأخ، إذ الدول كلها هنا وليست بحاجة لمن ينوب عنها ويحمل إليها الأخبار، كل الدول بكامل أجهزتها تتمشى مع بعضها ومعنا. «معنا» كلمة فيها ادعاء فكر خليل. نحن أيضاً: تلك الدول. تلك الدول كلها. الموجودة في الخرائط وتلك التي تفكر بالانوجاد. بل قد يكون أحد دعائم انوجادها المقبل أن تكون هنا.. مثل الباسك مثلاً أو سكان أرمينيا السوفياتية، أو الأيرلنديين الثائرين..

لماذا؟ سألت المرأة؟ اعتقد أن ما قاله صحيح فانقطاع الكهرباء المستمر هذا ـ والبنزين، قاطعها السائق ـ ليس أمراً نظيفاً. الفيول موجود لماذا ننتظر البواخر. صرنا رجلاً على اليابسة ورجلاً في البحر. باستمرار هناك باخرة تحمل شيئاً ما، في طريقها إلينا، ونتتبع أخبار البحار. معه حق الرجل، احتياطي الفيول موجود لكن الزعماء يضيّقون على بعضهم، يضغطون على بعضهم بالشعب. ورأى خليل المرأة تحمل راديو ترانزستور صغيراً كيفما انتقلت عجيزتها الكبيرة في البيت وتروح تستفيد من كلمات مثل = احتياطي = و = يضغطون = ويخيل إليها أن = يضغطون = هي أقرب إلى أن يكون الشعب كالهبر المسلوق المضغوط في حرّ وعتمة طنجرة الضغط التي كثيراً ما تستعملها هذه الأيام لندرة الغاز. وأن زعيماً معيناً يفتح طنجرة الزعيم الآخر ويدلق الشعب الذي

بداخلها في طنجرته هو، ويروح يضغط من جديد وهكذا... وهكذا مع هذا الشعب القاسي كالنعال والذي لا يريد أن ينضج.

أجابها الراكب الأمامي. أرأيت؟ هذا هو المقصود: التفرقة. التفرقة بين الناس وزرع الشكوك والشائعات حتى يعودوا ويتقاتلوا. قال السائق؟ على الشعب نبذ التفرقة. على الشعب أن يتفق ويغيّر زعماءه. صارت التفرقة الآن بين الشعب وزعمائه، فكر خليل بمرح.

سكتت المرأة وهي تهز برأسها تبرماً ودونما اقتناع ونظرت إلى خليل بابتسامة ساخرة تقول ما معناه: أنظر هذا الحمار، هذا الراكب الكريه... تعال نتفق على احتقار هبله، فوافق خليل بنظرة تواطؤ، وبابتسامة مماثلة، ثم استدار ناحية الكهل على يساره فوجده ينظر في ساعته ثم يتطاول برقبته ليرى مدى احتقان الشارع بالسيارات التي كانت تسير بخطى السلاحف. تذكر خليل موعده مع الطبيب وخاف أن يفوته الموعد الذي قد يخلصه من آلام معدته المتطرفة. ورأت المرأة أنها قد تصل قبلهم سيراً على قدميها فنزلت.

خرج السائق بصعوبة من صفوف السيارات وأخذ طريقاً في الشوارع الخلفية كي ينجو من عرقلة السير الخانقة، فارتاح الجميع في مقاعدهم. لكن السائق وجد أن الأذكياء مثله كثر فراح يلف ويلف ويشتم ويلف حتى وصل إلى حاجز من براميل، كأن بالصدفة، فتوقف أمام أحد المسلحين. أسرع المسلح وفتح باب السيارة وقال انزلوا. نزل السائق وحاول أن

يشرح، لكن المسلّح قال له كذاب وهو يسدد رشاشه إلى صدر السائق، لو كنت سائق سيارة عمومية لعلمت أن هذه الطريق مسدودة ولعرفت من يسكنها، لأن حذاء من يسكنها برقبة كل أهلك، ولأن كل محاولات النيل من هذا الحذاء، أو حتى رشقه بالورود سوف تفشل. انزلوا. قال السائق، إنه ابن المحلة وإن إخراج قيده يثبت ذلك، لكنه غلط بالمفرق. هجم المسلح على خليل لكنه سرعان ما اقتنع بأنه ذاهب إلى الطبيب لشدة ما كان وجهه شاحباً ولأن خليل أعطاه هويته مرفقة ببطاقة الطبيب الشهير حيث دوّن الموعد. الرجل الكهل قال له: يا ابني سليمة اتركنا نذهب إلى أشغالنا. أشغالكم؟ قال المسلّح.. أنا أتيت بك إلى هنا؟ أختكم على أخت أشغالكم، وضرب الملف بيده فطارت أوراقه وتناثرت على الأرض. وحين استدار الرجل صوب الأوراق، لبطه المسلّح على مؤخرته قائلاً: لمّ أشغالك الآن. ثم عاد للسائق يدفعه من كتفه: لماذا كنت مسرعاً يا حيوان. الأسبوع الماضي نفدنا من محاولة اغتيال ألا تحسبون أن للعالم أعصاباً. امش من هنا. بسرعة.

رجع السائق بالسيارة إلى الخلف ثم عاد وسلك الطريق العام. نزل الرجل الكهل وهو ما زال يرتب الأوراق داخل الحافظة البلاستيكية. قال السائق إنه غلط بالمفرق ثم قال إن المسلح خاف من محاولة اغتيال وأن معه حق.

نزل خليل وراح يمشي في الشارع.

حين قرصته أخته الصغرى لأنه نام في فراشها، فتح فمه على آخره، وأخرج لسانه على آخره وأخذ يجعر بالبكاء ويهنأ برطوبة الدموع الغزيرة التي تبلل وجهه فيجعر بالبكاء ثانية..

تكر حنجرته بما يشبه صوت الحصى الصغيرة ثم تطلع بصفّارة طويلة عالية تفتح رئتيه حتى قعرهما وتملأ رأسه بحرارة لذيذة. يأخذ نفساً عميقاً ويعود إلى صراخ يظل يعلو قدر ما تعلو شفقته على نفسه الباكية حتى تأتي أمه تدسّ في فمه سكراً وتدسّ رأسه في صدرها فيشهق شهقتين صغيرتين وهو ينظر مكان القرصة ليتذكرها وليذكّر فمه ثانيةً بطعم السكر اللذيذ.

تبدأ كل أمراض البالغ حين يتوقف عن الإجهاش بالبكاء، أي حين يبدأ قهره وإخفاؤه كمواد ممنوعة، فكر خليل. لذا، فإن أجساد المسلحين هي الأجساد الأكثر صحة ونظافة. صحيح أنهم لا يصرخون بالبكاء لكنهم يقصفون ويطلقون الرصاص ويخْرجون غضبهم من أجسادهم على أجمل وجه. بمجرد أن يشعر بأي إزعاج يطلع إلى التلة ويعبىء مدفعه، وبكل وضوح: «بوم». هذا أجمل من البكاء. لعله بكاء البالغين. إنهم أصيلون في بكائهم إلى درجة تفريغ جسدهم حتى من الحياة. يتعرضون للموت بمجرد أن لا يعجبهم سير الأشياء.

ولاحظ خليل أن جدران الشارع خالية من صور القتلى الشهداء. وكل ما تبقى عليها مجرد نتف. نتف من خطوط ونتف من صور قديمة مزقتها الأمطار وأيدي الصبية. إذن سوف تنظف من تلقاء نفسها، ذات يوم، جدران شوارع مدينتنا. لقد سارت العجلة كما ينبغي الآن، انتظمت حركتها بدقة عالية جداً. كانت صور الشهداء للمفاخرة والمزايدة وبخاصة للمضاربة وتشليح جماعة لشهداء من جماعة أخرى.. أي ما يشبه تنافس الشركات الكبرى على الموظفين ذوي القيمة. الآن لم يعد

هنالك ما يلزمهم القيام بكل هذه المجهودات، خاصة المصاريف المادية. إنهم يتلقفون أنصارهم ومسلحيهم وشهداءهم من فروج أمهاتهم. بمجرد أن تولد من هذه الطائفة فهذا يعني أنك لها وأن لا خيار لك، لأن الطائفة الأخرى ستردّك أصلاً إن حاولت وكنت من هواة الاختراقات وتسجيل الاعتراضات.

سوف تنظف نفسها بنفسها، جدران مدينتنا، كقطة ذكية ذات أصل، فكر خليل، ثم تساءل في أية ساعة يعود الرجل الكهل إلى بيته، ومن تراه ينتظره هناك؟ ودلف من فتحة بوابة الحديد إلى داخل البناية الضخمة، حيث عيادة الطبيب.

- ٤ ————————

دخلت الممرضة مسرعة. سحبت بعض الفيش من الحائط ودفعت السرير الذي إلى جانب سريره إلى الممر وغابت. دخل ممرض قوي البنية وقال لخليل. اجلس على الكرسي نحن محتاجون الآن لجميع الأسرة، الجرحى ممددون في أرض الممرات، وأخرج السرير. استبشر خليل خيراً إذ يؤجلون العملية إلى بعد غد.

مذ وصل خليل المستشفى اختفت آلام القرحة التي وجد الطبيب أنها صارت من الخطورة بمكان يستوجب إجراء عملية جراحية عاجلة. وحين لاحظ ارتباك خليل وارتجاف أطرافه أكد له أن لا خطر على حياته الآن شرط أن يدخل المستشفى صباح اليوم التالي، أو الذي يليه.

هل هذا مفعول الأدوية والحقن أم أنه الخوف الذي يطيّر الألم.

عند المساء أعادوا له سريره. وعادوا يتكلمون بصوت منخفض فالفوضى التي استشرت في الطابق الأرضي لم تكن سوى طارىء عابر وخفيف لدرجة أن أحداً من نزلاء الطوابق العليا لم ينتبه لما حدث.

* * *

لم يكن خليل يعرف أن جنّة المدينة الحقيقية هي في مستشفياتها.

كل شيء في الداخل مهيأ بدقة عجيبة. فالمستشفى هو أكثر الأمكنة عزلة عن الخارج حتى الإضاءة لا تعترف بضوء النهار الخارجي. وتبقى اللمبات الغازية مضاءة طيلة الوقت. والمستشفى تصنع حتى هواءها الخاص لتقطع مع ذاكرة الهواء العمومي. هواء مشبع بالمطهرات والروائح الخاصة الباردة المحايدة التي تنفثها المحركات المضبوطة. في الداخل مناخ مستقل ودرجة من الحرارة التي لا تتغيّر، لطيفة حتى لا تثقل الأغطية على أجساد التعبانين.

مكان شديد البياض دون أن يبهر. شديد البياض لإحكام طوق المجاز والتورية. البياض الذي يغسل الدماغ عن أي صور لما قد تبعثه مجارير المستشفى ونفاياتها إلى الخارج من دم وبول وقيح واربطة تحمل جلوداً يابسة وأعضاء مبتورة.. بياض يفتتح أبيض جديداً طازجاً ولد لتوه في العين وفي المخيلة.

إن درجة اهتمامهم لعزلنا أوحت لهم باستقدام ممرضات

تايلانديات أو فيليبينيات لا يعرفن من العربية سوى جملاً مفيدة قصيرة، يقرقرنها، هي من التكسير بحيث ينجحن في جعل المرضى ينسون لغتهم فلا تثير لديهم أية حساسية قد تثيرها لهجة يعرفونها تذكرهم أو تجعلهم يتوجسون شراً ممن يشرف على راحتهم.

تكرج الممرضات القصيرات الباسمات دوماً على أحذية مطاطية تخنق وقع الخطى ويخرجن كقريبات نعرفهن منذ الطفولة. ينظرن برأفة من قدم من بلاد بعيدة من أجل ذلك. وهنّ كذلك يوزِّعن صواني الأكل بنظرة من عيونهن الصغيرة المشقوقة، تقول بأن عتباً أكيداً سيقاصص من لا يأكل ما في صحنه.

كل ما في المستشفى يرد نزلاءه إلى طفولتهم التي خسروها كثيراً عندما غابت عنهم كل أشكال الوصاية والرعاية. إنهم يؤقتون بزمن آخر مختلف تماماً لأن له انتظامه الدقيق. فالنهار يعود إلى علاقته الأولى مع الضوء. وجبات الطعام ومواعيد الحقن والأمصال والحبوب الملونة تعيد إلى الأجساد دورة نهار آخر لا يعترف بذلك الذي يعبث في الخارج، تعيد إليها اعترافاً قديماً بحقها في التمدد والالتحام.

تمر حزم الممرضات وتتفرق على الغرف كدفق يضخه قلب كبير صحيح ومعافى. ولا حاجة حتى لأن تطلب منهن أي شيء. حتى الكلام. فنظام الإشارات يجعل موجات التواصل تلامس توارد الأفكار.. كأنهن يعرفن كم أن المرضى يكرهون أصواتهن. تدخل الممرضة بورقة وتكتب. تقلب الجسد التعبان المستكين بعريه كأم قديمة عرفت أسرار حكمته الصغيرة.

تقرّب الشحاطة من قدميه الشاحبتين فيتكىء الرجل على كتفها وتتبع خطوه حتى الطاولة أو الكرسي. ترفع الشراشف بسرعة وتضع أخرى نظيفة وتعود إليه. تمازحه بكلام مفرَّغ ولا يدخل إلا إلى الأطراف التي تمتصه كإسفنجة باردة. تغسل وجهه وتنشف يديه ولا تتلكأ. تمدده في فراشه وتغطيه وتشعره بأنها تتذكر جيداً مواضع الألم. تقول له متى يمرّ الطبيب، ومتى تعود. وتقرّب من يده الزر الذي يستدعيها والذي ينبغي ألا يستعمله للهو.

هنا الاعتراف الكامل، دونما لغة، الإذعان الكامل، لتعب تداويك منه ولا نتعسف برفضه أو بإملاء توضيبه وإخفائه. وهنا الوقت البدائي الذي هو لجسدك لا ضده.

على هذه الجزيرة البيضاء العائمة، يشعر خليل أنه فوق المدينة. إنه يشرف عليها من بعيد فلا يرى، إذا حدّق، سوى ما يراه راكب الطائرة من مدينة يمرّ فوقها في رحلة طويلة. لا يسمع في هناء سريره الدافىء النظيف السابح بالمطهرات سوى صوت حنون رقيق كإضاءة النيون المنخفضة ليلاً، يتردد في الممرات بتكرار آلي يستدعي أطباء بأسمائهم ويشكر. صوت يتذبذب مع الإضاءة الموسلين ويطوف فوق الأسرة الهادئة كفراشة محسوبة الخفقات.

كان خليل يعتقد، فيما مضى، أن المستشفيات هي أوعية للآلام. لكنه يعرف الآن، أن الآلام ليست موجودة هنا بالمرة. الأنين الخافت الذي يسمعه من وقت لآخر يخرج من الأجساد كنبتات فطر صغيرة سرعان ما تنفصل وتقع في الأوعية

المعدنية الصغيرة. يغادر الألم بيت الجسد كلص يفرّ واضعاً يده على وجهه. لا يراه أحد سوى الحبة الصغيرة أو الحقنة التي تحملها الممرضة لدفعه خارجاً وركله في هواء الخارج. ألم مدجن وخارجي وصغير ومعروف لدرجة أنه يقدّم أسباب القضاءُ عليه بسهولة بالغة. ألم محاصر ومسكين وتكاد تشفق عليه كولد عاق.

حتى الذين يموتون لا يحدث ألمهم ضجيجاً. يموتون دون ألم. فقط في صباح اليوم التالي تكون أسرتهم فارغة منهم وشديدة الترتيب والنظافة. يغادرونها كأنهم ذهبوا مع أبخرة الإيتير ومع نقاط أكياس المصل التي تنكمش جدرانها على الفراغ. كأنهم يلفظون أرواحاً هي أشبه بالمطهرات السريعة التبخر فلا يتركون ما يؤثر في غبطة المكان وفراغه وبياضه.

دخلت الممرضة الفيليبينية التي قالت له أن اسمها كاتي: إذا كنت ما زلت صاحياً فأنا بحاجة إليك. هل تأتي معي قليلاً أرجوك. ما بالك، لا تخف.

تبعها خليل في الممر رأى رجلاً يمشي حاملاً بيده كيس مصله إلى الردهة حيث بعض المقاعد الجلدية. فتحت باب غرفة ذات سرير واحد ودخلت ثم التفتت إليه تدعوه للحاق بها، دخل خليل. كانت غرفة ذات سرير واحد، واسعة ومضاءة بألوان التلفزيون المنعكسة داخلها. على كنبة كبيرة كان شاب شديد النحول جالساً واضعاً يديه على أذنيه ومتكئاً على ركبتيه يهزهما بحركة عصبية. قالت كاتي لخليل.. أرجوك قل له إننا لم نجد طبيبه في هذه الساعة. وإن الأدوية التي أعطيناه إياها هي

كل ما بوسعنا فعله. قل له إننا لسنا مهيئين لمعالجة ناس في وضعه. إنه مهتاج ولا يريد أن يفهمني. إنه يهدد وليس في وسعي أن افعل له شيئاً. يجب الا يعود إلى الخروج من غرفته. قال الشاب بالإنكليزية إنه يفهم كل ما تقول لكن عليها أن تفهم أن وضعه لا يحتمل وأنه متألم وتعبان جداً وبأن الحل الوحيد هو إيجاد الطبيب ولو كان في المريخ.

خاف خليل من الشاب. التفت إلى الممرضة فرجته أن يبقى قليلاً بجانب الشاب إذا كان يستطيع ذلك. رفض الشاب بقاء خليل وخرجت الممرضة.

راح خليل ينظر إلى التلفزيون. قام الشاب وأطفأه ثم التف على نفسه يئن بقوة. قام إلى المفسلة وتقيأ. اقترب خليل. فتح الحنفية وغسل فم الشاب وأعطاه محارم ورقية فلم يلتقطها. سحب المنشفة فأخذها منه الشاب وعاد يجلس على السرير. لماذا لا تبكي بصوت مرتفع؟ قال له خليل وهو يغلق الباب جيداً نظر إليه الشاب طويلاً، كأنه لا يراه ثم قال: يجب أن أخرج من هنا. يجب أن أخرج من هنا. هل يمكن أن يكون مجنوناً فكر خليل باستهجان كبير، هل أحد يطلب الخروج من هنا؟. ثم قال له: لماذا لا تخرج؟ قال الشاب: أنت لا تفهم شيئاً. قال خليل: بلى أنا أعرف أنك مدمن على المخدرات وأن الطبيب أوصى بعدم السماح لك بالخروج حتى من غرفتك لأنك أنت الذي طلبت منه هذا. آخ، أخذ يصرخ الشاب. آخ إني اتألم كثيراً. إنه يخرج منك أجابه خليل. الألم يخرج منك. قال الشاب كأنه لم يسمع: يجب أن يعطوني شيئاً لأنام.كيف أتيتُ إلى هنا، إنهم لا يدرون ما بي.

فكر خليل أن الحق مع الشاب وأن مكانه بالتأكيد ليس هنا. فتح باب الغرفة وخرج فسمع الشاب يقول وراءه: أين تذهب؟.. مشى في الممر. فتح باب الغرفة المجاورة فوجدها فارغة، تقدم وفتح باب الغرفة الملاصقة فوجدها فارغة كذلك. في صف الغرف المواجهة كان هناك كهل يغط في نوم عميق والوسادة فوق رأسه، وتلفزيون غرفته يوشّ. أطفأ التلفزيون والضوء وأغلق الباب. مشى إلى نهاية ممر الدرجة الأولى وأغلق باب الممر الزجاجي الذي كان مفتوحاً على آخره ومطوي الدرفات. عاد إلى غرفة الشاب دخلها وأوصد الباب وراءه. كان الشاب يجلس على السرير ورأسه في بطنه وساعداه على رأسه بقوة. جلس خليل على الكنبة مستقيم الظهر بمواجهة الشاب وقال: معي قرحة عميقة ومعدتي تؤلمني. نظر الشاب في عيني خليل كأنه مدهوش لما يسمع أو لحضور خليل بمواجهته ورأسه مرفوعة كرأس ديك. قال خليل: ما اسمك؟ قال الشاب: عيسى. قال خليل معدتي تؤلمني كثيراً يا عيسى وأشار بسبابته إلى معدته ثم أعاد يديه إلى ركبتيه. فتح خليل فمه على آخره وراح يبكي بصوت مرتفع يشبه العواء الطويل. راحت دموعه تنهمر من ذقنه إلى الأرض بين رجليه. آخ، كانت تُصدر حنجرته ثم يروح صدره يهتز باختلاجات قوية ويجهش عالياً. فتح عيسى فمه على آخره وراح يبكي بصوت مرتفع متقطع متهدج ما لبث أن استطال وانتظم كبكاء يحتج على قرصة قوية تركت أثراً أزرق. وراحت مخطة زلالية تتدلى عن شفته العليا.

حين دخلت ممرضة الصباح وجدتهما نائمين جنباً إلى جنب على السرير وقد اتخذ جسداهما الانحناءة نفسها، كأنهما توأمين.

* * *

دخل الطبيب المتدرج إلى غرفة خليل وحيّاه. قال له: اسمي وضّاح إبراهيم وجلس بعد أن قرب الكرسي من السرير. ابتسم وراح يمازحه: غداً صباحاً نفتح بطنك إذن. أنت بالفعل أجبن شاب صادفته. أجّلنا إلى الغد لأن دمك بطيء التجمّد يا سيدي وهذا سببه الخوف الشديد، الجبن فقط، الذي إن تغلب على الحقن عقد الأمور إلى حد كبير... هذا سبب جديد للخوف أليس كذلك؟ دمك يسيل ويركض فلا يختم لك جرح.

إذن أنا عصبي كما قال الطبيب الذي وجد القرحة، وأيضاً جبان كما يقول دمي الذي يركض.. قال خليل، فقهقه الطبيب الشاب. ما العمل إذن؟ سأل خليل الجواب عندك أجاب الطبيب، أمامك وقت لتفكر.

لا تذهب الآن. قال خليل.

حسناً.. ماذا تقترح.. نلعب بالورق.

وافق خليل وتبع الطبيب الشاب.

لم يكن الطبيب الشاب ذا شكل أليف لكن خليل وجد في وجهه شيئاً يدعوه لراحة عميقة ولكلام طويل، شيئاً يقول له إن سهرة طويلة تمتد ربما لأسابيع ممكنة بل ممتعة معه. عمّا عساه يكلمه. لم يجد خليل إجابة واضحة وفكر وهو يتبعه في الممر الطويل، كدجاجة تتبع صاحبتها إلى حيث الحبّ الكثير، فكر أن الأمر ربما عائد إلى كون الطبيب الشاب قادراً على ضحك أبيض كهذا وهو يرى كل يوم ما لا أستطيع تصوره من أهوال. يشمّر عن ساعديه ويغرق في دماء الأشلاء الممزقة والـ... ثم يستطيع أن يمازحني ويلعب الورق معي. إنه يملك ما

لا أملكه، وما لا أستطيع امتلاكه أبداً وأنا غارق في هشاشتي ونواحي الدائم.. إن مهنته هي المهنة الوحيدة التي لها ما يبررها في هذا العالم بأسره، ولكن من أين له قوة القيام بها يا ترى؟

إن اسمه وضّاح وأنا لا أعرفه من قبل لكننا نلتقي على تفاهم سابق لتعارفنا. كأن تعارفنا ليس سوى أمر ثانوي، وأسماءنا ليست سوى تفاصيل سخيفة وكذلك ذكرياتنا وأهواءنا. إننا هنا، مع بعض، لأقول له إني متألم ولكي يخلصني، وما من سبيل لأي سوء تفاهم. ومن دون مقدمات ومواربة وذكاء وتخمين وتقدير. لقد وصل مباشرة إلى معدتي ودمي اللذين لا يعرف أحد عنهما شيئاً ولا سبيل إلى ذلك. له هو أقول: انظر أنا متألم وهو يمد يده ويداويني ويسحب الألم ويلقيه بعيداً.

* * *

الطبيب وضّاح كان يحس بقوة بالمريض خليل. هل لأنه ما زال متدرجاً، بمشاعر طرية ومكسب قليل، قريباً من الحافز الصغير الذي دفعه إلى كلية الطب أو لأن في خليل ودرجة انكشافه وفراغ عينيه الكبيرتين لتلقي الكلام والمزاح والابتسام وعمل أي شيء بطواعية مطلقة، شيئاً خاصاً. إنه يتبعه ويسأله وينفّذ ما يقول كتلميذ صغير أو كتابعِ نبي، ويذكّر الطبيب وضاح بدرجة قربه من وظيفته البدائية حيث كان الطبيب ساحراً أو نبياً صغيراً. ومن لا يغريه هذا؟.

أكثر من ذلك. إن خليل يجعله غصباً عنه يتورط في إحساس بالضرورة والحماية والمسؤولية، خاصة وأن الزيارة الوحيدة

التي كانت من حصة هذا الشاب النحيل جعلته يرى كم هو وحيد ومتروك، إذ قام خليل بعد خروج الشاب صديقه ـ نايف على ما أعتقد ـ برمي باقة القرنفل الزهري الهزيلة في سلة المهملات وحين سأله الطبيب وضاح عن السبب قال خليل: لأنه اشتراها عن البسطة الصغيرة التي على باب المستشفى وهو لم يتذكر قبل ذلك.. مرّ عليّ في طريقه إلى مكان آخر.. ثم إن منظر هذه الزهور العامة، السهلة، لا يتلاءم مع ما أحبه في هذه المستشفى من درجة التعقيم.

مسكين هذا الشاب قال الطبيب وضاح كمن يتكلّم عن ولد له، دائم الحزن بلا سبب ولا يحسن التصرف، وأضعف من أن يلعب مع زفاقه. لكنه، في الوقت نفسه، يملك قوة جاذبة وصلابة متميزة لا أعرف ما هي ولا ما هو مصدرها.

* * *

قال له الطبيب وضّاح: هيّا يا بطل أنا أنتظرك تحت. وغاب مسرعاً. دخلت الممرضة باسمة تحمل حقنة وقالت له هذه «الواوا» ستجعلك تسترخي تماماً. فكر خليل أن المستشفى بأكملها على علم بجبني. واطمأن لعمق التفاهم بينه وبينهم. أعطته مريلة تقفل من الخلف وقالت هيا اخلع ثيابك واتركها في الحمام في الكيس الورقي. خرج من الحمام ويده تشد الفتحة التي على قفاه. وصل الممرض القوي البنية يجر حمالة. صعد إليها خليل وترك مريلته على هواها. قال وفمه يرتجف: الدكتور وضّاح تحت؟ قال الممرض سوف تراه قريباً جداً. رفعت الممرضة المريلة عن قفاه المكشوف وأعطته الحقنة ثم ربتت مكانها. أخرجه الممرض إلى الممر ثم إلى المصعد فيما خدر

لذيذ يسري سريعاً في جسمه. وصل الطابق الأرضي المضاء بقوة وراح يبحث بعينيه عن الطبيب وضّاح. رأى عينيه تبتسمان بشدة من وراء القناع الأزرق الفاتح. رأسه كذلك كان ملفوفاً بقمطة زرقاء وثيابه سميكة كثياب رواد الفضاء. جرّاحك يهيء نفسه، قال وضاح. ستبقى هنا؟ سأله خليل. لن أستطيع أن أهرب فأستاذي قاسي القصاص، أجاب وضاح من خلف قناعه ثم دلف من باب زجاجي كبير، رافعاً يديه، ولحقته الحمّالة. وجد خليل نفسه في غرفة كبيرة يتوسطها ما يشبه الطاولة أو الناووس الحجري الكبير. نقلوه عليها. كل شيء كان أزرق فاهياً، حتى الكشافات الضوئية فوق رأسه. كان في الغرفة كذلك أصوات زرقاء فاهية قليلة الكلام. وفي هذه الجنة الصغيرة كانت حركة الأشياء من حوله تتخذ نفس الإيقاع المائي الذي يبثه رأسه، كأنه هنا، بينهم منذ الأزل حتى استطاعوا الوصول إلى هذه الدرجة من التناغم ووحدة الحركة.

بالسلامة يا بطل، قال له الطبيب الجراح من خلف نظارتين سميكتين. قمطوا رأسه وكشفوا جسمه حتى عورته، لم يكن خليل خائفاً بالمرّة. اقترب وضاح هامساً: الآن سيخدرك صديقي الطبيب... ابتسم خليل يعبّر عن امتنانه لحبهم جميعاً. امتدت ذراع بقفاز شفاف إلى ذراعه وثبتتها. إبدأ العد لنرى إن كنت شاطراً بالحساب، قال صوت ولد صغير.. إنهم يحبونني كثيراً وأنا طفل هانىء، واستطاع خليل رغم ثقل ونشاف لسانه، أن يلفظ بسهولة: واحد اثنان ثلاثة أربعة. انغرزت إبرة في طية ساعده، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية..

سمع خليل دمه يدفق بصخب، تسعة، عشرة، ضرب قلبه ضربة قوية، إحدى عشـــ.....

* * *

ـ تنفّس. خذ نفساً عميقاً. تنفّس. إنه لا.
ـ تنفّس. خذ نفساً عميقاً. تنفّس.

سمع خليل صوت صفعة. كان صاحياً تماماً لكنه عرف أن جسده خارجه. أمامه. لم يرَ جسده.

رأى خليل ليلاً مطبقاً، تتحلق فيه بضع هالات زرقاء فوسفورية رفيعة مشعة، حوله. الهالات هي هم.

ـ تنفّس.
روح خليل تشدّ صوب فمه فتخبط وتقع مكانها. فيها.
روح خليل تشد.. إلى الرئة. إلى الرئة.. تخبط. تقع. أنتم. أنتم. أنتم لأتنفس.

أنتم افعلوا.
أنا أسمع. أنا لا أستطيع. أن أقول أني. لا أستطيع
أسمع. أسمع. أسمع. هنا. أنا
أنا

ـ تنفّس.
أنتم لـ. أرجوكم.
فم.. فم. يد. يد. جفن جفن. لإشارة. لكي..
ـ إضغط إضغط أكثر. لا يستجيب يا حكيم. إنه لا..
هنا. لا تذهبوا.

أنا لا أراه جسمي. لا أعرف. أقدر أن أصل إلى
أنا دونه. وأسمع. افعلوا معه. أنتم.

الآن ينزلق إلى الخلف. بسرعة. بهلع. ليست سرعة. ليس اسمها سرعة. ليس لها اسم لأن لا يعرفها من لا يموت.

هلع. ليس هلعاً. ليس اسمه هلع لأن لا يعرفه من لا يموت.
الليل المطبق الآن نفق. ليس نفقاً.
نفق من يموت.
هو شهب. أفقياً إلى الخلف. الهالات الفوسفورية تبقى قريبة.
- إنه لا.. لا.

عرف.
لن يسمعوني.
أنا لوحدي.
كثيراً.
«لوحدي كثيراً» التي لمن يموت.
يا حرام.
يا خليل.
لوحدي
أسْرَعْ. إلى الخلف مـائلاً. إلى تحت
الهالات تصغر بسرعة.
أسْرَعْ.
روحه تشد عكساً إلى أصبع يده.
كلّها.
لا يجد.

تنشفط إلى الخلف التحت.
ابتعدوا.
انطفأوا.
أسود.
نقطة بيضاء أمام. أمام.
صغيرة جداً.
إلى الخلف التحت وصوبها.
خلص.
أموت.
يا حرام.
يا حرام.

* * *

هذه يده. يعرفها
عيناه تريان يده.
عيناه تريان وهذه يده مرفوعة أمام عينيه.
تحرك إذن جسده قبل أن يعرف. وارتفعت يده أمام عينيه.
ظاهرها أمام عينيه.
في ظاهرها إبرة مصل ملصقة بشريط أبيض.
خليل يرى كامل جسده مغطى بشرشف أبيض.
يسمع صوتاً يتكلم بقربه.
لكن السمع ليس....
عيناه على ظاهر يده.
الخطوط الزرقاء تحت الجلد تنبض.
دمه يجري في شرايين يده ويحركها. تتحرك.
أنا حي.

ينظر خليل ظاهر يده ويبكي.
يبكي. يبكي. يبكي دون صوت.
يبتل صدغاه بسائل بارد وتمتلىء أذناه. ويبكي.
يقترب وجه وضاح فوق وجهه.
كفى، يقول وجه وضاح.. انتهى الأمر.
يرى خليل يد وضاح رافعةً يده ذات الشرايين النابضة.
يبكي خليل.
يبكي
يشم الرائحة.
وينقط من وجه وضاح حَليباً دافئاً في عينيه ويبيض المكان ويتساقط الثلج خلف النافذة.

* * *

خليل، في غرفته، طوال بعد الظهر، طوال المساء، يبكي. ما الأمر، زال مفعول البنج منذ زمن. لماذا تبكي؟ يقول وضاح. يهم خليل بالكلام. يفتح فمه فتغزر الدموع. تفيض تفيض تفيض. ينتظر خليل أن تفرغ، حتى يقول. ما أن يهم بالكلام تعود الدموع. يريد أن يقول، وهو الآن استعاد فمه لكنه لا يستطيع.

ينظر إلى وضاح. ينظر إلى يده. ويبكي.
ربما فقدت النطق يفكر خليل دون أدنى حزن أو قلق.
إني أبكي من السعادة.
إنني أبكي ولا أقوى على الكلام لشدة ما أنا سعيد. وحيّ. ولم أمت وعدت من.. ذلك الشقاء الـ.....

ولكن أي كلام.... أي كلام... بعد ذلك الذي حاولته في العتمة بعد ذلك العذاب في الإشارة إلى أصبعي.....

يحرك يده. رجله. وذلك الحريق القوي في بطنه المضمد، ويبكي.

خلصنا. يقول وضاح... تكلم إليّ..... هذا ضروري. بسبب أنك لثوان رفضت أن تستفيق من البنج. حالة من ألف حالة ولا ندري ما السبب.

نخاف من تلف ما في الدماغ. شيء يشبه الغيبوبة. ثوانٍ فقط ومشي الحال.

لكنك تدعوني للقلق. هلا تفضلت بالكلام. قل أي شيء.

- جرحي يؤلمني قال خليل ضاحكاً، غارقاً في شهقات دموعه.

* * *

هكذا إذن يموتون.

يا إلهي.

يا إلهي.

أي عذاب، ليس هو عذاب لغة الأحياء مهما عظم. يكاد لا يشبهه. وأي وحشة، ليست هي وحشة الأحياء مهما عظمت. تكاد لا تشبهها. ماذا يعرف الأحياء... ماذا تعرف كل هذه القطعان البشرية الخابطة قرونها بصخور الأيام؟.

الأمهات اللواتي يحببن أولادهن. هذا الثابت الوحيد هراء يتشكين ويصرخن ويتذمرن ويضربن. هراء.

لا شيء خالصاً سوى حب الجسد. ولا يستطيع أن يحب جسده سوى من يفقده. والذي يفقده لا يقدر. يموت.

كل هذه السنوات التي تسمى عمراً هراء وجهل لأن ينقصها أن تموت لتعرف.

كل هذا الشقاء ليس شقاء إذا لم تعرف شقاء أن تموت.
كل هذا العذاب، الوحشة، الألم هراء لأنك لم تمت لتسمي هذه الأشياء من جديد.

كل هذا التشكي، الشعراء اليائسون، الثكالى، الحزانى، المرضى، العشاق المرفوضون، البرص، المسلولون، الفقراء، الجائعون الضائعون، العبيد، المضطهدون، المذلولون، كل هؤلاء الذين لا يلتفتون إلى أجسادهم الحيّة، إلى الضوء الطالع فجراً، إلى الهواء النافذ إلى الدم، إلى الكلام الطالع من رغبة الكلام، كل هؤلاء الجهلة المتكبرين الرافضين النعمة الكافرين برجع خفقات الحرارة في آذانهم حين تنصت إلى داخلها...

كل ذلك لأنهم لا يعرفون. ولن يكون لهم ذلك... لن يكون لهم سوى الحكم الكئيبة....

لو يموت الملك ويرجع.
لو يموت القائد، العسكري، الطاغية، الثائر، الموظف، لو يموت الامبراطور، الشيوعي، الأم، لو يموت، المريض، العاشق، السمكري، الفيلسوف...... ويرجعون.

أنا عدت من هناك... وصدري يرتفع ليتنشق الهواء ويبث الأوكسجين في خلاياي كلها، ثم ينخفض ليخرج ما لا لزوم له.

جسدي الحي هو النعمة.

جسدي الحي هو الحكمة، كلها.

ولا شيء في هذا العالم أشد سعادة مني. لا شيء، وأنا أسمع دفق الدم قوياً صاخباً بمجرد أن أضع رأسي، أذني على يدي......

تغيّر كاتي كيس المصل. ترفع الغطاء عن الجرح ثم ترده. نوماً هنيئاً تقول.

تطفىء النور وترد الباب عن ضوء الممر. يسعل الرجل في السرير الآخر. تضيء الشراشف البيضاء. بجانبي رجل حي، يسعل ويتنفس لأنه مثلي حيّ. أي سعادة، أي سعادة، أي سعادة.

ينام خليل.... يروح ينظر نقاط المصل الرتيبة التسرب ويعدها هكذا إذن يموت الذين يموتون..... الذين ينتحرون كيف.. ثم ذلك الندم مضافاً إلى جحيم الـ.... يا إلهي. يا إلهي.

هكذا إذن يموت الذين يموتون.

يظل الرأس الذي يتدحرج عن المفصلة يسمع تهليل حشود الثوار المنتصرين لوقت يطول كثيراً عن ثواني الزمن السابق. يظل المسلح الملقى في أرض الشارع يسمع رصاص المعركة وتقدم الأعداء أو تقدم الأصحاب ورفاقه لا يجرونه معهم إلى الخلف أو إلى الأمام إذ يقولون فوق رأسه اتركوه لقد مات. اتركوه لقد مات. وهو......

ويسمع الميت المسجّى صراخ أولاده وهو ما زال يشدّ لكي، يتعذب لكي، قبل أن يوقن أنه.... يقف شعر خليل في رأسه. يضغط على الزر مرتجفاً مقروراً. تأتي كاتي.

بردان يقول خليل ولا أستطيع أن أنام.

تضيء كاتي النور الصغير. تقترب منه وتضع كفها على جبهته. تخرج وتعود ببطانية. تضع ميزان الحرارة في فمه. تسحبه وتقول لا بأس. هل أنت موجوع؟

نعم يقول خليل. تعطيه حقنة في يده وتقول. ستنام الآن تطفىء الضوء الصغير. تقرّب الزر من يده، وتردّ الباب عن ضوء الممر.

ـ ٥ ـ

مجرد أن تكون حياً. مجرد أن تكون حياً. يا للعقوق والنكران... وسوء التفاهم. الفهم.

مجرد أن تكون حياً هو كلّ الفرح. النعمة. تلك هي النعمة التي سكنتني.

يا لسعادتي. يا لسعادتي.

كان خليل يردد وعيناه مغرورقتان بماء العرفان والنعمة وهو ينظر إلى الشارع من نافذة التاكسي، في طريقه إلى غرفته.

كان يحب جرحه الذي يؤلمه ويحب جسده المرتاح في المقعد الخلفي ينظر إليه كولد جميل وعزيز طال غيابه كثيراً. أنا أحب جسدي الجميل.

توقف سائق التاكسي بسبب الازدحام. لكن الازدحام يعني أن لا قصف. أن هؤلاء الأحياء المشاة وهؤلاء الذين يملأون المحال وهؤلاء الذين في السيارات وفي العمارات والأبنية، والنساء في المطابخ والأولاد في المدرسة والعمال والموظفون في غرفهم، كلهم أحياء ولن يموتوا الآن. الازدحام حياة، وأجساد صحيحة معافاة تتحرك بإرادة أصحابها.....

ثم راح السائق يتأفف من رائحة الزبالة المتكومة وأغلق نافذته ثم عاد وفتحها لشدة الحرّ.

والزبالة؟ الزبالة دليل حياة، ليس في المقابر زبالة إنها نظيفة جداً، تماماً، إلى الأبد. ولا تتحرك أو تتململ بالحياة إلا حين تضيق المساحات بالأحياء ويروح الأولاد يلعبون قرب القبور ويتركون هناك نفاياتهم من أوراق السندويشات والسكاكر إلى علب المرطبات الفارغة أو محارم الورق والزجاجات الفارغة.

الزبالة هي ما فضل من غذاء الأحياء والذي به تنبض أجسادهم وتعيش.

يا للكفر.

يا للكفر والجهل.

امرأة تلقي بكيس ملآن على عربة الخضار القريبة. يروح البائع يشتم بصوت عال. لا يعجبها السعر ولا الشتائم فتأخذ بالصراخ والسباب. يتجمع بعض المارة وتتوقف السيارات التي بدأ خطها بالتحرك البطيء فيزداد الازدحام وتتعالى أبواق السيارات. ينزل أحد المسلحين ويطلق رصاصة في الهواء. ثم رصاصتين....

لا يتركونهم يتتبعون أثر اللصوص. يقول السائق. اللصوص الذين سرقوا المصرف في أول الحمراء كنت هناك ورأيتهم يفرون. يعرقلون السير بسبب شجار على كيلو خضار. شعب بجم.

إنهم يلعبون. فكر خليل وهو يبتسم. يبتكرون ألعاباً كالأطفال، ويلعبون. كل هذه الألعاب لتمجيد الحياة.

كل هذه الألعاب، التمثيليات، المشاهد، النكات، السباب هي للعب ولتمجيد الحياة. حين يرونها، يلمسونها تسير بينهم وتوزع عليهم سراً أمصالها العظيمة، يلعبون في حضنها.

* * *

أغلق خليل باب غرفته. وضع شنطته الصغيرة على السرير. وجلس تعباً، فرحاناً ببرودة الداخل يساعد قلبه ورئتيه على انتظام تنفسه واستعادة إيقاع قلبه.

قام إلى المغسلة. غسل وجهه ونظر في المرآة إلى وجهه الشاحب وابتسم وقال مرحباً.

مرحباً يا خليل.

كم أنا آسف. لم أكن أدري. لم أكن أدري كم أنا أحبك. كم أنا أحب الحياة. لا يحب الحياة من يكره نفسه. لا يحب الحياة من يكره نفسه يا خليل الجميل.

* * *

فك الطبيب الجرّاح قطب خليل وقال مبتسماً. عظيم...... الجرح تمام. الحمد لله على السلامة. انتبه لنفسك. وصافحه على عجل.

خرج خليل من الغرفة الصغيرة شاكراً بعد أن ابتسم للممرضة وقف في باحة المستشفى ينظر إلى باب الخروج ولا يتقدم إليه.

عاد إلى حيث مكتب الاستعلامات. انتظر أن يفرغ الموظف مما في يده وقال وقلبه يضرب بعنف: الدكتور وضاح.........

الدكتور وضاح إبراهيم خرج منذ قليل، أجاب الموظف. لبث خليل في مكانه ينظر إلى الشارع من خلال الزجاج الداكن.

ماذا أسمّي هذا الرجل. حين كان ممسكاً بيدي في غرفة النقاهة. ووجهه فوق وجهي. أي ملامسة تلك التي كانت بين أيدينا. بين جلدينا. كان دفء يده ينقل إلي أكثر مما نقله حبل الصرّة العالق طرفه بأمي. أكثر بكثير لأنني كنت أرى عينيه. أقوى من رائحتها. كأنني ولدت منهما، ومن حرارة يده. بقي بجانبي كثيراً، طويلاً. جلس على الكرسي في غرفتي، وراح وأنا نائم ينظر إلي. أكثر مما نظرت إليّ أمي وأنا نائم، طفلاً. وأنا أبكي كان ينظر ويبتسم ويراني ويعرف ما بي. يبقى طويلاً ينظر إليّ ولا يكلمني ولا يفعل شيئاً. يغادر ويرجع يجلس وينظر إليّ. وكان فرحاً بي كثيراً حين عدت من غيبوبتي. اعتقد إنهم لن يسترجعوني وعدت. كأبي، عدت وفرح بي ووقف بجانبي وأمسك يدي وقال: كفى. انتهى الأمر. كان إذن يعرف الأمر. الأمر الذي انتهى. ذهبوا جميعاً بعد أن خرجت من الغيبوبة وهو بقي. بقربي. وكان ممسكاً يدي قبل أن أستفيق وأفتح عيني وأنظر. كان ينظر إلى وجهي وأنا مغمض العينين وقبل أن أفتحهما.

وكان يضغط على يدي ويدعوني باسمي مرات عديدة قبل أن أفتحهما. قبل أن أسمع. وحين سمعت وفتحت عيني كانت يده أول من قال: عدت يا خليل. عيناه الإشارة والصلة والجبل الذي رفعني من النفق.

كان يسأل الممرضات. لا أحد زار خليل. لا، لا أحد كان يعرف أن ما من أحد.

فيأتي ويجلس ويبتسم وتزداد صعوبة أن يتكلم إليّ. فيشغل الفراغ أحياناً بأن يحمل صينية إلى جانبي ويأكل. جريدته ويقرأ يبتسم.

النقطة التي يلمس فيها جسدي تنفتح وتضيء. تنفتح ويخرج ضوء منها ويشرق داخل جسمي كله بنور لمسته. يغيّر ضماداتي فننظر كلانا إلى الجرح كأنه طفلنا الذي ينطق بأول كلامه.

يمسك معصمي فيسري مصل روحه الدافىء في كامل جسمي ويبث حياة حبيبة كموجة هادئة تنفلش وتعبئني حتى تخرج إلى طبقة رقيقة تعلو جلدي كله. حين أراه في حلمي رجلاً جميلاً لا أشتهيه لأنه فوق شهوتي بكثير. وحين أراه يحتضنني ورأسي ملقى على ثدييه الكبيرين لا أشتهيه لأنه أكثر من امرأة. ولا أجوع وأفتح فمي لأنه أكثر من أمي وعيناه أكثر من حليبها بكثير.

ما حاجة أن أنتظره. هل لقوة وكثافة ما بيننا أن يقول كلاماً. سأكون شديد الشقاء حين لا أجد الكلام. ولن أجده. لن أجد أي كلام. أي خواء سيكون للغة بعد الذي كان بيني وبينه. إنه عنيف وجميل وكثيف إلى درجة اللاعودة. أي لا جدوى في أن ألتقيه الآن؟!

ذلك الذي أحب بهذا الشكل، ذلك الذي أحبني إلى هذا الحد. مرّة واحدة، يحصل. فقط. وينقضي إلى الأبد ولا يتكرر سوى عذاب انقضائه وفشل ما يليه، وفراغه وانحطاطه. ما حاجتي إليه الآن.لقد أعطاني كل شيء. وأعطاني الذي كل هذا.

لن أراه ثانية لتبقى مدّخراتي منه صلبة محفوظة جيداً ليبقى في قلبي.

في طريقه إلى باب الخروج رأى خليل الطبيب الشاب يدخل من الباب الثاني. ومن الشارع راح ينظر إلى ظهره يغرق بين جمع الناس المنتظرين وصول المصعد. في قلبي، كرر خليل.

وفي الشارع قال في نفسه: اسمه الدكتور وضّاح إبراهيم.

- ٦

كان خليل فرحاناً كطفل بجسده الجديد، المعافى. لم يكن يعرف كيفية التعبير عن فرحه. لا يجد سبيلاً لإخراجه لاستعماله، لمشاهدته في الأشياء. يعرف ولكن يلزمه معرفة أكبر وأغنى.

كان بحاجة لإعادة تأهيل. لتعلم أبجدية جديدة يحب فيها نفسه التي كرهها طويلاً واضطهدها. بحاجة لأدوات متنوعة وكثيرة حتى يستطيع أن يتغير وأن يرى نفسه مختلفاً تماماً، على نحو ما يشتهي، وعلى قدر ما يريد أن ينسى.

كان يجلس طويلاً في غرفته، يأنس ويسعد لكل ما يراه ويسمعه. ضجيج الأولاد. زمامير السيارات، أصوات المولدات الكهربائية. يبتسم لكل شيء حتى للصرصار الذي يمر مسرعاً تحت سدّة المجلى. ويتسلّى كثيراً مع الهرّ الذي جاء مع الحاجة أم الأستاذ وبقي بعد أن غادرت.

ما عادت معدته تؤلمه، وهو شديد الانتباه لما قاله له الطبيب، مثابر على اهتمامه بأكله وبدوائه.

عاد كذلك يعتني بغرفته، لكن دون عصاب ووسوسة يتسامح حيث ينبغي التسامح ويضحك من عاداته الماضية والتي أصبحت على أي حال مستحيلة الآن وقد امتلأت الغرفة بالحوائج التي كان أنزلها من الشقة فوق.

أخرج ثيابه الصيفية وستّفها بعناية. انتظر عودة التيار وكوى قمصانه وبنطلوناته وطواها ورتبها في أمكنتها. أخرج الثياب الجديدة من أكياسها. أعاد طيها فرحاً فخوراً وعلّق ما ينبغي تعليقه. وفي أحد الأكيـاس دسّ ما وجد أنه صار عتيقاً أو ما لم يعد على الموضة متسائلاً عن السبب الذي جعله يحتفظ بها كل هذه المدة.

* * *

العريس الذي غدا سمساراً وتاجراً، وطلق السلاح رغم استعادة أصحابه للحي أتاه ذات يوم ينصحه بتأجير الشقة فوق. عشرة آلاف دولار خلو رجل فقط. ثمانية لك واثنان لي، أم تفضل أن يحتلوها. خمسماية دولار ترتب أمور الشبان. أنا الكفيل والباقي لك. أم تفضل أن يحتلوها. ثم مئتا ألف ليرة إيجار سنوي، ونستطيع أن نطلع أكثر. أكلم الجماعة وأعود مساءً. فكّر بالأمر.

لن يفكر خليل كثيراً. فقد باع السجادتين العجميتين ليدخل المستشفى. باعهما.

آنذاك كان يبصق دماً. يموت أم يبيع السجادتين. احضر العريس المبلغ في اليوم نفسه. أكل حصة الأسد وغشه

بضراوة. لم يفتح خليل فمه لأنه كان متألماً ومضطراً ولأنه كان يحتقر نفسه كثيراً.

بعد عودته من المستشفى باع التلفزيون والانسيكلوبيديا والبراد. لم يكُن متألماً ولم يكن يحتقر نفسه أبداً. كان بحاجة للمال. كان يحب نفسه وكانت نفسه بحاجة للمال فباع واشترى اكلاً وثياباً.

لا يمكن للأخلاق أن تجعل الإنسان يكره نفسه.

الأخلاق العالية هي لكي تشعر بكرامة نفسك وبغلاوتها واحترامك لها.

والأخلاق العالية هي أن تتكرم وتتلفت قليلاً حواليك، ترى وتشاهد حتى لا تبقى نفسك معلقة في لمبوس العذابات دونما جدوى وبلا أي فائدة لأحد، فقط لتعاقب نفسك وتضطهدها لذنب لم تقترفه، لتنتقم مما حولك بتعذيب نفسك وبمزيد ومزيد لا ينتهي من تعذيب نفسك.

لم تكن الست إيزابيل نفسها لترضى بذلك. هي لم تكن لترضى بذلك. ما حاجتها إلى أغراض البيت. نسيته سافرت إلى ابنتها أو ماتت بعد موت ابنها. فعلى ماذا تعاقب نفسك يا خليل.

هل أحد يتأذى إذا بعت؟ إذا أجرت البيت؟ هل أفضل أن يبقى فارغاً أم أن يحتله أحد؟ هذا سخف. المبدأ يكون للعموم. اصطلاح نتفق عليه جميعاً ونسعى إليه وتبقى خروقات صحيح نحتقرها ونرذلها. لكن أن يصبح المبدأ لي وحدي وأكون أنا

الخروقات الوحيدة ولصالح المبدأ ثم أحتقر وأرذل وأكره نفسي فهذا هراء.

لا يمكن أن تكون الأخلاق ضدك إلى هذا الحد.

خطأ فادح فاضح. وفضحني. مزق معدتي وطحن روحي، نفسي التي أحبها تقول لي أن الأخلاق لا تعني أن يكره الإنسان نفسه بل أن يحبها. ذلك لأن نفسي تعتقد أن الذي يحب الحياة هو الذي يحب نفسه وأن الذي يحب نفسه هو الذي يستطيع أن يحب الآخرين.

ولا يكره الآخرين، الدنيا، الحياة إلا من يكره نفسه.

أحبني، أحبني، أنا نفسك، يا خليل الجميل. من أجل مجد الحياة.

لكن خليل كان يحس، رغم اغتباطه العميق الكبير بعلمه كان يحس، يتوجس من فقدان حلقة صغيرة في هذه السلسلة حلقة لا يعرفها أبداً، كان يحدس خفيفاً جداً وخفياً جداً إن علمه العظيم هذا ناقص قليلاً... نقصان باهت وواه وصغير وبعيد..... لكنه نقصان.

* * *

حين طلع مع العريس والمرأة إلى الشقة سخر قليلاً من حساسيته المفرطة التي كانت تجعله يؤجل ويؤجل تفقد المكان.

كانت الشقة فارغة إلا من بعض قطع الأثاث الكبيرة المكسوة بالتراب.

كانت فارغة إلى درجة أثارت دهشة خليل. ماذا كان يتوقع أن يجد فيها. من كان يتوقع أن يجد فيها. أرواح من سكنها. من غادرها. من مات فيها. حتى حزنه وهو يتجوّل بين الغرف كان حزناً رقيقاً، ورقياً ويتهادى على السطح. مكان البراد ومكان خزانة الأنسيكلوبيديا كانا محززين بحدود الأشياء التي مكثت طويلاً جداً قبل أن تتحرك.

كان العريس يفاوض المرأة على سعر ما تبقى من الأثاث وكان واضحاً أنها لا تريدها. تركهما خليل وتوجه إلى غرفة النوم.

تغيرت كثيراً غرفة الست إيزابيل، تلك السيدة اللطيفة التي غادرت فيمن غادر، منذ زمن طويل. جداً. لم يبق من أشيائها سوى عظام سريرها و... بعض المسامير التي دقتها، هي أو أبو ناجي، في الجدران ليعلقوا صورة قديس أو ولد أو أخ.. وسوى خزانتها ذات الدرفة المخلوعة التي لا بد كان يتعلق بها أولاد عمه الصغار.

تخلَع الحياة كثيراً حين تمر في الأمكنة.. فقط مفصلات التوابيت تبقى ثابتة مكانها ولو صارت صدأ خالصاً.

لكن كان في الغرفة أكثر مما فرغت منه. كانت مليئة بأغراض كثيرة. وكانت مليئة بأكثر من الأغراض. وبأكثر من الذين غادروها حتى بعد خروج بيت عمه. وتمنى خليل أن يتفق العريس مع المرأة بالتي هي أحسن.

دخل غرفة ناجي.. ناجي الذي أحبه. الذي مات قنصاً من الجهة الشرقية وقالوا إنه كان عميلاً. كانت غرفته خالية حتى

من سريرها وطاولتها لأن الحاجة أم الأستاذ كانت قد نقلتهما إلى الصالون حيث الضوء أقوى من أجل عينيها التعبانتين من القراءة والتسبيح. غرفة ناجي كانت فارغة حتى من الكومودينة الصغيرة وجارورها ومصباحها الصغير. ومن ثيابه المفشكلة بعناية حتى يعود. ومن رائحة ثيابه التي كانت تتكلم عن حكماء التيبت وأنوثة الأغذية وذكورتها وانتظام النجوم التي تحكي مع مصائرنا. هل حكت النجوم عن مصير غرفتك وفراشك أيها الحكيم الهندي الصغير الفاشل.

في غرفة ناجي كانت منثورة أرضاً سدات معدنية صغيرة، أغطية قناني الكازوز التي كان يجمعها أبناء عمه ويلعبون بها. وكذلك شحاطة بلاستيكية صغيرة مقطوعة الطرف على بطانية كانت حراماً طوته امرأة عمه وخاطته بغلاظة، بخيط من قنب ليكون فراشاً لأحد الصغار. كان هنالك طابة رخيصة وأقلام مكسرة ومزق من مجلة مصورة. وعلى الحيطان رسومات رجال ضخام الرأس وشمس وبيتين وأشجار معاقة وطائرة وأسماء الأولاد و «زهرة حمارة في المدرسة»، انتقاماً ربما من قرصة قوية.

لم تترك الحاجة أم الأستاذ أكثر مما رآه لحظة كانت ميتة في أرض الدار. كان المطبخ وسخاً لدرجة أنه خمن بأنها لم تدخله أبداً. لم تأكل أبداً في هذا البيت. فقط توضأت وصلت وقرأت ونامت وماتت. بقي هرّها الذي يتردد الآن إلى غرفة خليل، يأكل، ويلعب، ويتبعه، وينظر إليه كثيراً. ويموء ويخرج ويموء ويتثاءب ويموء وينام.

لماذا، وحده يوسف، لم يترك أي أثر في هذا المكان. أي أثر. هل أقام فعلاً هنا؟ أم في مكان آخر.

غير معقول، قالت المرأة، يلزمه طرش ودهان، ويلزمه أدوات صحية جديدة. انظر. القساطل مهترئة وقد يستلزم إصلاحها تكسير البلاط. انظر الماء كيف يتسرب من أرض المطبخ إلى المدخل. انظر كيف تنز خزائن المطبخ. لا أدري كم يكلفني كل هذا. وبدون عقد إيجار شرعي. أنا لست كما تعتقد. ليس معي ما يكفي من المال. الأثاث قديم ومخلع ومهترىء لا أحد يشتريه مني. بعه أنت وصلّح البيت وأنا أدفع ما اتفقنا عليه.

لم يكن خليل قد رآها. فكر أنها تبدو الآن جميلة لأنها كالموشكة على البكاء. اقترب خليل منها وقال حسناً. سنحسب تكاليف التصليحات كلها ثم ننظر في الأمر. نعيد الحسابات. لكنني مستعجلة قليلاً... مضطرة، قالت بارتباك. وعادت في اليوم التالي.

* * *

كان شعرها أسود قصيراً ومالساً جداً يصل إلى أعلى رقبتها النحيلة. وكانت قصيرة القامة وذات عينين صغيرتين سوداوين وفم كبير بلون البن، يشبه قليلاً فم ريتا.

قال له العريس إن زوجها مات في أميركا الجنوبية. هرب من الحرب إلى أهله هناك. أحوالهم تدهورت. هو مات وهي عادت مع ابنها.

إنها دفاع عن النفس إذن تلك الابتسامات المقننة التي

تحسب المسافة وتقيمها بدقة. كانت تمر متعجلة ممسكة بيد ابنها الصغير. تقبله قبل أن يطلع إلى باص المدرسة ثم تقف مشيرة بيدها ضاحكة حتى يغيب. تختفي ضحكتها بمجرد أن تستدير إلى مدخل البناية فتسرع بخطى صارمة تشبه خطى الرجال وتصعد الدرج رافعة رأسها.

بعد قليل تعود فتنزل بالتعجل إياه. تركب سيارتها الصغيرة وتذهب ولا تعود إلا مع ولدها. هي تعيده من المدرسة. حين تلتقي بخليل، في المدخل، تحييه بتهذيب يكون من المبالغة إلى حد التحقير. ثيابها الشديدة البساطة كانت كذلك تشعره بأن هذه المرأة تحتقره قليلاً دونما داع.

لم يكن يزورها أحد. فقط وبالنادر امرأة في مثل عمرها، ولم تكن تخرج إلا في مواعيدها الثابتة إياها. أي التباس في تلك الدقة المتناهية.

مرة، لبث خليل أمام باب الشقة دقائق. قال إن فاجأتني أسألها عن مياه الشرب. كان دهان الباب الخارجي شديد اللمعان بلونه الزيتي الغامق وألوان ممسحة الأرجل الجديدة يتناسب أخضرها المتفاوت مع لون الباب. الجرس كذلك كان جديداً لكنه لم يكن يحمل أي اسم لساكن البيت. كان الوقت عصراً وكان خليل يعرف أنها في الداخل لكن الصمت كان مطبقاً. قرب خليل أذنه قليلاً في عتمة الدرج فسمع صوت موسيقى خافتة.

ماذا تعمل هذه المرأة. ما تشتغل خارجاً وماذا تعمل حين تكون في بيتها.

على أي حال ليست تلك الأرملة الحزينة على موت وليفها فهي ليست في حداد ولا تلبس الأسود. ألوان ثيابها داكنة لكنها لا تلبس الأسود. ابنها لا يشبهها. أبيض البشرة وعسلي الشعر لا بد أنه يشبه أباه.

ضغط خليل زر الجرس وتراجع قليلاً. مرت فترة طويلة فقرر خليل أن يسرع بالنزول لكن الباب انفتح. لم يبد على وجهها أي أثر للدهشة أو المفاجأة. ربما لأنها رأتني من المنظار الصغير، الجديد كذلك. امرأة شديدة الحذر إذ فتحت وهي بالثياب التي يراها فيها خارجة. هل تبقى متهندمة هكذا في بيتها أم أنها لبست لتفتح لي الباب.

اعتذر خليل باقتضاب وتهذيب وسأل المرأة إن كانت رأت هره البنّي ذي البقع البيضاء، ذلك أنه كان معتاداً الطلوع إلى هذه الشقة، فصاحبته كانت.....

نعم إنه هنا، قالت المرأة متأسفة لأنها لم تخطره.. إنه في الداخل يلعب مع الصبي، سأجعله يحمله إليك في الحال. لا لا. لا داعي أبداً، فقد استفقدته وأردت أن....

ماذا تعني هذه المصادفة راح خليل يفكر في غرفته أن يكون الهرّ عندها و.. كل ما في تفاصيل الحياة هو إشارات. إشارات ذات دلالة...

كان فرحاً جداً بما حصل. راح يستعيد وجهها الذي رآه للمرة الأولى كالموشك على البكاء. لا.. إنها صلبة جداً هذه الأم الصغيرة. كان خليل فرحاناً كذلك بما تسنى له رؤيته من داخل البيت، من وراء وجهها المبتسم بتحفظ. لم ير الشيء الكثير.

فقط لوناً أزرق فاهياً في الأرض وفي هواء الجدران النظيفة، ونبتة كبيرة ريانة في وعاء كبير نحاسي، وضوءاً زجاجياً داكناً يتدلى من سلسلة سوداء، ورائحة عطرة. كل هذا يسترجعه الآن، يراه بذاكرته. وخليل كان فرحاناً كذلك بالهر الذي يروح ويجيء بيننا.. وفجأة أضاءت رأسه قدماها العاريتان. نعم، لم تكن تلبس حذاء. كانت أصابع قدميها ظاهرة في شحاطة من قماش مزهر.. أصابع جميلة صغيرة لقدمين عاريتين صغيرتين.

ذات صباح طرقت المرأة بابه بلطف كبير. فتح الباب وفاجأه وجهها القريب وفمها البني الكبير. قالت له بأنها لم تجد أبو... العريس، قال خليل. مياه آسنة وسخة تملأ الحمام. والبالوعة قد... ربما من الشقة التي فوقها.. والموكيت قد.... أرجوك، ماذا....

ابتسم خليل ليطمئنها. العريس يحضر سمكرياً اليوم بعد الظهر، حين تعودين. شكراً. قالت. شكراً. تشكرني كما كانت تبتسم لي.. هذه المرأة تحتقرني قليلاً فكر خليل وهو ينظر إلى ما تكون قد رأته من حقارة غرفته.

مرة أخرى وقفت في المدخل حين رأته بعد أن ودعت باص المدرسة وأبتسم لها كل الأولاد وراحوا يلوحون بأيديهم حتى اختفى الباص. وقفت، أو تمهّلت، ولم تسرع بخطاها الرجالية. تعطيني فرصة، فكر خليل. واقترب منها وسألها عن مياه الشرب قالت لا بأس أتدبر أمري نحن عائلة صغيرة، ثم لم تسرع بالذهاب. حسناً أجاب خليل ثم نظر إلى ساقيها وهي تصعد الدرج.

وفي غرفته رأى يديها. أصابعها نحيلة وأظافرها مقصوصة تماماً وعليها طلاء لامع وبلا لون.

فيها شيء يشبهني هذه المرأة. فيها شيء من الرجال لا استطيع وضع إصبعي عليه. وهو ما يثير حشريتي حيالها إلى هذه الدرجة. ودائماً أراها بعد أن تغيب.

٧ -

جاء نايف مرتين وهنأ خليل بسلامته. فرح كمن يخلص من هم حين أخبره خليل بأنه أجّر الشقة.

دعاه خليل إلى المطعم لتناول الغداء. كان الجو أليفاً للغاية بين الصديقين. بعد الأكل طلبا فنجاني قهوة وأركيلتين وراحا يدخنان ويتكلمان. راحا يتذكران سنوات مضت كعاشقين قديمين. تكلم خليل عن المرأة التي في الشقة وأصغى نايف بانتباه وفرح إذ على الأصدقاء أن يتكلموا بأمور النساء. لم يقل خليل شيئاً ذا معنى لكن مجرد فتح الموضوع أفرح نايف ووعده ببقاءالصداقة بينهما، وبعودتها إلى ما يشبه متانتها القديمة.

خليل كان يجد في الكلام ترحيباً بنايف وشيئاً من الاعتذار او من تبكيت الضمير على مشاعر سوداء انقضت. كان كأنه يقول لنايف بأن ما من شيء تغير وأن ما جرى ليس سوى حالة من حالات صداقة طويلة مستمرة، حالة حرص أن يوحي بأنها كانت بسبب حالته النفسية القلقة من جراء آلام القرحة في معدته.

لكن حزناً خفياً كان يجلس قرب خليل، على الكـرسي الملاصق لكرسيه. رأى أنهما كبرا في العمر وأنهما، على نحو ما شخصان آخران لكن شديدي الشبه باللذين كانا. وأنهما صارا يتغاضيان عن نقاط اختلافهما بقصدية ظاهرة بينما كانا في الماضي يبحثان عن نقاط اختلافهما تلك، يقعدان فيها حتى تصير إلى تآلف وانسجام، يتغاضيان بتواطؤ كبير هو الآن أمتن ما يجمعهما إذا وضعنا الذكريات جانباً. كأن هناك واجباً، واجباً محبباً جداً، ولكنه واجب، أن تستمر صداقتهما، كزوجين قديمين لم يعد يليق بهما أن ينفصلا، أو أن يتقاتلا. كما يتواطأ زوجان قديمان لدرجة أن التفاهم بينهما يغدو كاملاً. يكتمل التفاهم حين ينتهي الحب وانشغال أحدهما بالآخر. ينجحان إلى درجة تثير الدهشة، يفرغان كلية، ويكونان مثلاً منتهى الانسجام في السرير، أي في العلاقة الجنسية. أنجح العلاقات الجنسية هي ربما تلك التي تبدأ بعد أن ينتهي الحب، إذ حينها ينتهي القلق. ينتهي الرأس وخفقان القلب، ويفرغ الجسد إلا من نفسه. يكون كاملاً، بكامله لنفسه. فالشحاذ أكثر تلذذاً واستمتاعاً بالجنس، بما لا يقاس من الفيلسوف ونحن، نايف وأنا، على هذه الدرجة من الانسجام الآن على هذه الدرجة من النجاح. نكركر بالأراجيل وبكل الكلام الذي لا يعنينا، ولا يطال المواضع الحساسة فينا.

قال نايف بأن الأخ، حسب اعتقاده، على استعداد تام لقبول خليل في الجريدة. قال خليل عظيم، دعني أفكر قليلاً بالأمر.

أراك قريباً.

أراك قريباً، بالتأكيد.

اتصل بك

اتصل بي

إلى اللقاء

إلى اللقاء.

* * *

مر خليل على نايف عدة مرات في الجريدة، ومكثا عدة مرات في مكتب الأخ.

مر نايف على خليل عدة مرات في غرفته.

التقيا كثيراً في المقهى. صارا يلتقيان في المقهى، وفي الجريدة ومع أصحاب كثيرين، ولم يعمل خليل في الجريدة، ولم يصر نايف كثيراً. لم يعد خليل كثير الصمت كالسابق. وكان نايف شديد الحماس لإعجاب الأخ بخليل فراح يعجب الأخ، ويتسلى كثيراً ولا يشعر بثقل الوقت عليه.

ذات مساء دعاهما الأخ إلى السهرة، عنده في السمرلاند. تهندم خليل. مر عليه نايف بقميص حريري جديد. عبر خليل عن إعجابه الكبير بالقميص وهو إلى جانب نايف في سيارة هذا الأخير. فتح نايف تابلوه السيارة وأشار إلى قنينة عطر. ضع منها واعطني، قال نايف. وأدار زر الراديو الصغير فانبعثت موسيقى لطيفة.

حين وصلا كانت شرفة جناح الأخ مكتظة بالساهرين ليست مكتظة تماماً لكن خليل لم يكن يتوقع هذا العدد من الناس. وقف الرجال وسلموا عليهما. النساء مددن أيديهن جالسات.

كان خليل يعرف أكثر الموجودين الذين استقبلوا نايف

بهرج ومرج. اندس نايف بينهم. إحدى النساء أعدت له كأساً فقبل يدها وراحت تتعالى الضحكات من دائرة نايف الهامسة.

اقترب الأخ من خليل وقال له: إنني أعرف كل نكات نايف. إنه الآن يروي حكاية الرجل الذي كان يتغوط. ولما لم يبد على خليل أنه يعرف الحكاية، عبر الأخ عن دهشته وراح يسأل خليل عن عمق علاقته بنايف. إنه فقط لا يروي لي نكات كثيرة، قال خليل، وطلب إلى الأخ أن يروي حكاية الرجل الذي كان يتغوط. قال الأخ بأن رجلاً كان يتغوط في حمام بيته ككل بني البشر. حين فاجأه القصف العنيف وحين عاد الهدوء. خرج الناس إلى الشارع يتفرجون على البناية التي كانت أكثر تضرراً حين رأوا الرجل، في الطابق الرابع ما زال جالساً على كرسي الحمام وقد انهارت الشرفات، وجدران البيت حتى ما يقارب المتر الواحد عن مقعده. ولهول المفاجأة طبعاً، ولأنه كان يخاف إن هو تحرك أن ينهار ما تحت قدميه، بقي جالساً مشدوهاً ممسكاً بحزام بنطلونه المتكوم عند قدميه فيما راح الناس ينفجرون بالضحك ويصرخون عليه وهو لا يسمع حتى صار المشاهدون بالعشرات وتسبب بأزمة سير في الشارع...

أحلى مسرحية، قال خليل وهو يضحك فيما تحول ضحك الآخرين إلى ما يشبه الصراخ. قال الأخ مبتسماً أسلوب نايف في الرواية هو المهم، تأخذ منه أحياناً نصف ساعة أو أكثر، ألا تلاحظ أنه أكثر استمتاعاً بوقته منذ سافرت زوجته. هل تعرفها؟ نعم أعرفها، قال خليل، لم تكن مبسوطة هنا. النساء أصبحن متطلبات جداً قال الأخ، والظروف صعبة. وأنت، لماذا لم تحضر امرأتك معك.

أنت تعرف أني لست متزوجاً قال خليل. أعرف، أجاب الأخ أعني صاحبتك. ارتبك خليل قليلاً وهو يحاول أن يصيغ جملة مفيدة فقاطعه الأخ قائلاً: لا بأس. وملأ كأسه.

كانت الشرفة تطل على البسين وعلى صفحة الماء المضاءة بالكشافات الجانبية كان مركب صغير من الورود الاصطناعية التي تحمل شموعاً مضاءة، يتهادى في هواء الخريف الفاتر الثقيل. وكان صبيان الفندق يلملمون بقايا حفلة عرس صاخبة ويكنسون المكان برشاقة ثم خفتت الأنوار وهدأت الحركة على نظافة فسيحة فبان سطوع ضوء القمر البدر.

دخل الغرسون بعد طرقات خفيفة، رفع بقايا الأكل ثم حمل إلى الشرفة صينية كبيرة مليئة بالكؤوس النظيفة وضعها على الطاولة. انحنى بقرب الأخ ليستوضح إشارة منه ثم عاد بصدر كبير من الفواكه الجميلة اللامعة وبسطل ثلج كبير. نظر إليه الأخ فرفع الغرسون سبابته أنْ حالاً، ومن الباب عاد يجر عربة صغيرة محملة بأنواع كثيرة من الحلويات ثم خرج مسرعاً مبتسماً واضعاً يده على رأسه علامة الشكر والامتنان وأغلق الباب وراءه.

دس نايف كاسيت موسيقى شرقية في المسجل الكبير فقامت سلام صاحبة سعيد، مسؤول نايف الحزبي، قامت ترقص. كانت حافية القدمين. لف نايف وركيها بشال طويل كانت رفيقتها سحبته بخفة عن كتفيها وألقت به إلى نايف. كان رقصها جميلاً لأن جسدها كان متناسقاً ولأن فتحة فستانها كانت ترتفع إلى فوق كلما رفعت يديها، كذلك انسدال القماش

الزهري الرقيق كان يساعدها في إبراز حركة ثدييها وفخذيها الطويلتين.

بحث خليل بعينيه عن سعيد ليرى كيف يتفرج على رقص صاحبته الجميل فلم يجده مال على الأخ وسأله أين سعيد. قال الأخ ليس بعيداً جداً. ثم راح يتابع رقص سلام.

كانت سلام تزداد استغراقاً برقصها وبالموسيقى وصار يبدو على وجهها أنها قد نسيت الجميع تماماً وبأنها تتمايل كأن في غرفة نومها، إلا أنها بين وقت وآخر كانت تنظر إلى نايف المتربع على وسادة صغيرة في الأرض، تضحك له، وتروح تقترب منه ثم تدفعه بقدمها العارية من كتفه فيدعي أنه سقط أرضاً من قوة الأنوثة وطغيانها.

عاد سعيد إلى الشرفة مصفقاً لرقص سلام على إيقاع الموسيقى جلس وأشعل سيكارة، وبعد قليل لحقت به فاطمة الممثلة المسرحية بعد أن أعادت تصفيف شعرها، وحين انتبهت لعيني خليل الشاخصتين إليها قالت بصوت مرتفع هل أحد منكم رأى حقيبتي... «إنني لا أجدها ثم جلست قرب خليل، وحين وجدت أنه ما زال ينظر إليها قالت له: نعم؟ مال خليل برأسه وقال لها: أنت جميلة جداً فقالت بنبرة: شكراً. شكراً يا أمير.

فخذاها جميلتان جداً أليس كذلك قال الأخ لخليل وهو يشير بعينيه إلى فخذي امرأة لا يعرف خليل عنها سوى أنها شاعرة خصبة الإنتاج لكثرة ما يقرأ اسمها في صفحات الجرائد. كانت مستلقية بوضعية من أمامه رسام حساس. إلا أنها ثقيلة الدم

أضاف الأخ. قال خليل إنها تشرب كثيراً ضحك الأخ معلقاً: ذلك لتثبت أنها مهما شربت لا تهتز وأنها أخت الرجال ورأسها كبير ويحمل. زوجها حاج وهو لا يخرج معها يظل مسافراً وراء تجارته التي تحتقرها وتبذر أموالها قصاصاً له. لماذا هي ثقيلة الدم سأل خليل... لأنها تستميت لتشبه الرجال، وأنت تعلم أنها حالياً عشيقة رئيس التحرير، لا أدري كيف يطيقها هذا الرجل في ظروف كهذه، حين يكون الموت على هذه الدرجة من الاقتراب من الناس، لا يعودون يعون تماماً تصرفاتهم، ولا حتى أمزجتهم.. قال الأخ.

كأن الحرب نزلت عليهم نعمة من السماء، فكر خليل، كل تفلتهم الآن من الضوابط الأخلاقية التي كانت ترزح بشدة على ذاكراتهم، يردونه بتبرؤ خبيث إلى الموت الذي على هذه الدرجة من الاقتراب........ وهم يجدون أنهم كلما استرسلوا في تفلتهم هذا كانوا أكثر التصاقاً بنموذج المعذب من هذا القدر الغاشم، وأكثر إحساساً من غيرهم من الناس العاديين بوطأة الأشياء. إنهم، بشكل ما، يشكلون نخبة الناس الحساسين الذين لشدة حبهم للحياة، يرفضون كل أشكال الموت. إنهم ببساطة وجدوا سبباً وجيهاً يشرع لهم ما هو في ذاكرتهم وتربيتهم السحيقة غير مشروع بالمرة... حرب شعواء وهيهات أن تعيش إلى الغد....

لكنها رغبات صغيرة، مفروطة. وهي أقل من حب الحياة بكثير فكر خليل... رغبات على مقاساتهم فما الذي يشغلني، رفع كأسه وشرب في صحة الجميع...

امتدت يد سمية بسيكارة سميكة كثيرة الدخان إلى خليل.

أخذها خليل وقال: أنا لا أدخن شكراً، مررها إذن يا صاحبي قالت سمية ضاحكة من تهذيب جملة خليل المتماسكة، غير المتناسبة مع اشتداد ميوعة الأشياء من حوله. مررها خليل إلى الأخ. ابتسم الأخ لخليل وقال: أنا مثلك. أنا أيضاً لا أدخن. وأعادها لسمية التي شكرتهما على ذوقهما.

سمية منزعجة منك يا خليل قال الأخ. أنت قاسي معها منذ كنت تتردد على مكاتب الجريدة أيام القصف.... أنا لا أقصد قال خليل.. لم أنتبه. ضحك الأخ عالياً راح خليل ينظر إلى سمية التي كانت تدخن مغمضة العينين. فتحتهما وقالت لخليل لا تنظر إلي.... انظر إلى مكان آخر. ثم قالت: أعتقد أن بك شيئاً غير طبيعي أنت يا صاحبي. ربما سمعت كثيراً أنك جميل ومغر فركبت رأسك. لا يهم. أنت بالفعل جميل وشديد الجاذبية، ولكن حسناً، أنا امرأة واقعية. لا يهم. كأسك. لكن دعنا نراك من وقت لآخر. واطمئن، أنا لا أريد أن أتزوج ثانية. شكراً.

وقف نايف يقضم تفاحة فقالت الشاعرة. أترك ما في يدك وأجبني.... أنا لست... عاد نايف إلى جانبها عابساً هذه المرأة حمارة، قالت سمية، حمارة بآذان لا تحصى. كلما فتحت فمها نهقت تقول «أنا لست».... ستقضي عمرها تشرح ما هي ليست...لا يخطر ببالها إن جمل النفي لا تفيد... لو تبدأ ذات صباح تقول أنا كذا... لاحظوا أنها لم تعد تملك الكثير من الوقت..... ربما لهذا تدور في حلقة مفرغة. لقد بدأت تُخَثْيِرْ... هل تعجبك يا خليل؟... حسناً قل من يعجبك يا خليل. لم تجد حتى الآن امرأة تعجبك، أعني تنام معها أكثر من مرة أو مرتين... هل تسمع أم كلثوم... أنت تطيّر الحشيش من رأسي.



ضع إصبعك على عرق رقبتي سترى كم نبضي سريع. أنا لا أحب هذا بالمرة. طيب. قل لي مع من..... سمِّ لي واحدة نمت معها لأرى من يعجبك قليلاً.

أنا لست، عادت الشاعرة تقول بصوت مسموع. وقف نايف وراح يشكر الأخ على السهرة العامرة. وضع الأخ يده على ساعد خليل وقال له: ابق هنا أريد أن أتكلم إليك. لم ينظر نايف إلى خليل مباشرة حين سأل عمن يريد أن يذهب معه في سيارته....

ترك الأخ الشرفة الفارغة وقال لخليل ندخل أفضل فالجو صار شديد الرطوبة وابترد الهواء. دخلا. أضاء الأخ نور الزاوية وجلس مترحرحاً على المقعد الجلدي الكبير. جلس خليل على الكنبة الصغيرة كأنه ينتظر.

قام الأخ وحمل صينية الفاكهة، وكأسين نظيفين من الشرفة إلى الداخل وأغلق باب الشرفة. فتح خزانة صغيرة وأخرج قنينة داكنة سكب القليل منها في الكأسين. جلس ونظر في وجه خليل وقال كنت سمعت من نايف أنك ترغب بالعمل في الجريدة.... وسكت ينتظر. ليس تماماً، أجاب خليل، إنها رغبة نايف، كان يريد أن يساعدني مادياً. لم أعد مضطراً جداً.

قام الأخ إلى جارور الخزانة. فتحه وأخذ من محفظة داخله كدسة من الدولارات وضعها قرب كأس خليل وقال. خذ ما تريد. كانت عيناه تنفذان بقوة شبقهما إلى داخل خليل فشعر بارتباك كبير وبدفق حراري شديد في رأسه. لا أريدك أن تخجل مني، قال الأخ خذ ما تريد. لكنني لست بحاجة للمال قال خليل. ولا.... ولا أرى لماذا آخذ منك مالاً.

أخذ الأخ نفساً عميقاً كمن يتألم لأنه غير مفهوم. تستطيع أن تأخذ مني أي شيء قال الأخ وأنت تعرف. لا ينفعك أن تزيد في عذابي.

بلى، خليل كان يعرف، ولكنه قال وهو يتنفس بصعوبة بالغة: لا. أنا لا أعرف. حسناً، قال الأخ وهويحمل كدسة العملة ويلقيها على السرير. لا أريدك أن تفهمني غلط. إلى الجحيم المال. انسَ أمره تماماً... وأخذ رشفة من كأسه كان عليّ أن اسافر منذ شهر لكنك تشلني لم أعد قادراً على الحركة. ما زلت أؤجل من أجل أن أراك. هل أكون غبياً إلى هذه الدرجة؟ هل انت تحب النساء؟ لا أدري. قال خليل.

لا.... أنت لا تحب النساء.. أنا أدرى. اسمع.. أنت أصغر مني بكثير ربما هذا ما يعذبني ويعقد الأمور. أنا أيضاً فيما مضى كنت أنام مع النساء. لكن الآن انتهى الأمر. ذلك أنني لم اكن أعرف تماماً، ولأن التخلي عن جنسهن كان يقلقني قليلاً. حسناً. أنا بالطبع لن ألمسك إلا إذا كنت راغباً.... حسناً... ماذا ستفعل بي..... أنا أعرف أنك مشغول برأسك، وأنك حائر... باستطاعتي مساعدتك. أعني باستطاعتك أن تطلب مني ما تشاء. ما تشاء.

رن جرس الهاتف. رفع الأخ السماعة وقال. لا بأس، تستطيعان الطلوع، لا لست نائماً.

دخلت امرأتان بمرح ظاهر، تسألان إن كان مجيئهما في هذه الساعة يزعج أحداً. أبداً قال الأخ مبتسماً وراح يسألهما اين كانتا تقضيان السهرة. قالت الدكتورة العصابية المتشددة

حيال مبادئها السياسية التي حد علم خليل لم تكن تتماشى مع مبادىء الأخ: كنا نتعشى ونناقش كتابها الأخير، وخطر لنا أن نمر عليك... خلعت حذاءها وقالت: أنا أريد أن أسبح.... كنت تركت المايوه عندك.... ما زال حيث تركته أجاب الأخ مرحباً. دخلت الحمام وخرجت بالمايوه وقالت لرفيقتها المؤلفة هل تأتين؟ أجابت لا.... أريد أن أتمدد قليلاً وتمددت على السرير ثم عادت تكرر..... هل نزعج أحداً، ولا تنتظر جواباً.... على فكرة، أضافت، هل ستخلصني من ذلك الكائن الكريه أم لا.... إنه لا يتركني أعمل أنا لا أستطيع أن أعمل إلا على طريقتي. من أين أتوني به وعدها الأخ خيراً والتفت إلى خليل وقال: سأسافر بعد يومين. أراك طبعاً حين أعود.... سأطلب لك تاكسي.

- ٨ ـــ

أستيقظ خليل على أصوات القصف. إنها الساعة الثانية بعد الظهر. ما الذي استجد. كانت الفترة الماضية فترة هدوء وتفاؤل كما يقولون.

سمع صوت المرأة في مدخل البناية. غسل وجهه وخرج. كان أبو أحمد إلى جانبها وهي شاحبة جداً وزائغة النظرات. لا تبقي هنا. لا تستطيعين شيئاً الآن كان يقول أبو أحمد ثم قال لخليل: الولد في المدرسة وهي تريد.... غير معقول، قال خليل، انتظري حتى يهدأ القصف قليلاً. في هذه الحال لا بد أن يكون الأولاد في الملجأ. ليس في المدرسة ملجأ، أجابت المرأة. إنه يخاف كثيراً... ربما لم يعد أحد من الأطفال غيره هناك.... ربما اشتد القصف وعنف. يجب أن أصل إليه.

تفضلي نتصل بالمدرسة قال خليل فسارعت المرأة إلى اللحاق به. كانت يداها ترتجفان بشدة فأخذ خليل السماعة من يدها وراح يطلب الرقم الذي تمليه عليه. كان الخط مشغولاً باستمرار فظلا ساكتين. فكر خليل أن يصحبها في سيارتها لإحضار الصبي لكنه سرعان ما عدل عن الفكرة. رد هاتف المدرسة فناولها السماعة. تكلمت بلهفة ثم أقفلت وهدأت وجلست على الكرسي القريب: إنهم بخير، قالت وفي مكان آمن، حسناً قال خليل لننتظر قليلاً إذن. تشربين القهوة؟ وقفت المرأة متأسفة وشكرت خليل وطلعت إلى بيتها.

عاد القصف عنيفاً في المساء. طلع خليل إلى سفرة الدرج فوجدها هناك مع ابنها وبعض الجيران. كانوا صامتين. كانت تنتعل شحاطتها القماشية وكان ابنها ملتصقاً بها لا يتكلم. بين الفينة والأخرى يسألها عن الهر فتجيب بأنه مختبىء جيداً. كان شعرها المنسدل مبلولاً يقطر على كتفيها.

كان التيار مقطوعاً والشمعة الوحيدة تهتز شعلتها وتكاد تنطفىء لأن مجرى الهواء كان قوياً فوضعها خليل في الزاوية. سألت ابنها إن كان بردانأ فلم يجب. دلفت إلى مدخل بيتها وتناولت سترة سميكة لها، وضعتها على كتفيه. العروس كانت تتثاءب بصوت مسموع بعد أن أهملت أناقتها السابقة ولم تعد تنتعل القبقاب ذا الكعب العالي والدانتيلا المهفهفة. كانت ترتدي روبها المخملي إياه لكن فتحته ازدادت اتساعاً عند الصدر لأنها كانت قد سمنت كثيراً. الفتحة لم تكن تكشف عن صدرها لأن القميص القطني كان يصل إلى رقبتها.

أغفى الصبي على كتف المرأة بعد أن خفت حدة القصف

تصبحون على خير قالت العروس وطلعت إلى بيتها. ما لكم ولها قال أبو أحمد، لا تتركوا المكان حتى يهدأوا تماماً.

راحت المرأة تحاول إسناد رقبة ابنها الملتوية، على كتفها. قام خليل يساعدها بحمل الصبي. لمست يده أعلى ثديها الصغير والتقى وجهاهما عن قريب في عبق صابون طازج ملأ بثانية راس خليل. عاد إلى مكانه على الدرج. كان قلبه يضرب بعنف وهو ينظر ناحية أبي أحمد. مر وقت طويل ولم يلتفت إليها وحين قال أبو احمد: هيا نستطيع أن ننام الآن، استدار خليل لينزل الدرج فرآها تنظر إليه ثم أشاحت سريعاً تحاول رفع ابنها بين يديها.

كم هي قوية، هذه المرأة، كم هي قوية كان خليل يردد وحيداً أرقاً في غرفته. يالبشاعتهن. يا لبشاعتهن. الساحرات الشريرات والساحرات الطيبات. لأنهن يعرفن قوة الجذب التي يملكنها، نظيفات ووسخات ذكيات أو غبيات.

يا لقرف أجسادهن الدائمة الإفراز. الدائمة الإفراز دماً، وسخاً، حليباً زنخاً، بولاً، عرقاً، سوائل بيضاء ذات رائحة، دموعاً....

حفرة دائمة الشفط. دائمة الشفط. كجنسهن البئر الخفية. والجميلة تعرف وتتدلل وتمشي وتبث رائحة معرفتها.... والقبيحة. القبيحة أشد غواية. أشد غواية بكثير. تعرفها في عتمة شهوتها المكبوتة، غير المعترف بها. ترسل خيالك إلى ابعد بكثير وتحفّز أعضاءك. البشعة تصير حركة جسدها فقط لا شكله. شيء أشد. شيء خالص. ولا تضيع وقتك بالغزل تقعد

في عتمة شهوتها المكبوتة شهوة خالصة تقول إلمسني فقط.

القبيحة أشد مدعاة للخوف.

وهذه المرأة فوق، تسير في الشارع فيتفق الجميع: إنها امرأة قبيحة.

* * *

أين ينتظرني، سأل خليل. في منطقة الرملة البيضاء أجاب مرافق الأخ وهو يقود بسرعة أزعجت خليل فأبدى ملاحظة أعادت السائق إلى صوابه قليلاً.

منذ متى عاد؟ سأل خليل. منذ أسبوع تقريباً، أجاب المرافق، أتيت البارحة لكنك لم تكن موجوداً في البيت.

يسميه بيتاً، يسخر مني في قرارة نفسه. لا بد أنه قام بلملمة فتيان كثيرين من شوارع كهذه، وهو يخمن سبب سؤال الأخ عني يومين متتاليين، أنا الذين أسكن غرفة كهذه. لا بأس.

راح خليل يتبع مرافق الأخ على أدراج طويلة تحت الأرض، ثم وصلا إلى باب حديدي ثقيل مزدان بقطع جلدية كبيرة. طرق المرافق الباب وعاد أدراجه. فتحت امرأة الباب فتبعها خليل في ممر يشبه الدهليز، ثم صارا في ردهة كبيرة مقطعة إلى ما يشبه الغرف بحواجز خشبية سميكة. رأى الأخ يجلس إلى بار طويل جداً مقطع بدوره إلى بارات صغيرة ذات خزائن ومن الزوايا تنبعث موسيقى خافتة هادئة.

استقبله الأخ بحرارة وشد على يده طويلاً. ودعاه للجلوس

على كرسي البار القريب. أين أنا؟ سأل خليل بمـا يشبه الاحتجاج، ما هذا المكان؟.

كان مربعاً ليلياً فيما مضى، أجاب الأخ، جهزناه كما ترى ليكون ملجأ استثنائياً، يقيك حتى شر القنبلة النووية. لقد أعيد بناء جدرانه بالكامل. إنه استراحة المحاربين هنا يقضون بعض سهراتهم الحميمة وهنا يجتمعون أحياناً. لكل مفاتيحه وخزائنه وأغراضه. تستطيع أن تبقى هنا سنة بكاملها دون أن تحتاج شيئاً من الخارج. لكن على فكرة إنه مكان سري، بشكل من الأشكال...

سنة بكاملها، قال خليل، وأنت، لِمَ دعوتني إلى هنا تريد أن تسجنني مثلاً؟.. ضحك الأخ وقال. يا ليتني أستطيع ذلك. لكن لا، أردت ألا يزعجنا أحد كما في الفندق أو الجريدة ما أخبارك. اشتقت لأن أراك....

أتدري، قال خليل وهو يقلب كأسه بين يديه، إنك تشعرني باضطراب حقيقي. أعني أني قد أخلط بين الخوف من سطوتك وبين الانفعال الذي تتركه في مراودتك إياي وكلامك المباشر.

أنت تتكلم عن السطوة؟ قال الأخ، مع أنك متأكد أنك أنت صاحب السطوة. دعنا لا نبالغ. أنا لم أعد شاباً صغيراً إن ما يحيرني، ما أريدك أن توضحه لي هو الإشكال التالي: هل تميل بشدة إلى النساء أو أنك عاجز عن الجنس أم إنني أنا بالذات لا أعجبك؟ هل أنا ملزم بالإجابة، سأل خليل. فضحك الأخ: لا..... لست ملزماً ولكن هل أنت تملك الإجابة فعلاً؟...

على مرآة صغيرة راح يسكب مسحوقاً أبيض على شكل

خطوط متوازية، وبورقة ملفوفة كسيكارة رقيقة راح ينشق خطوط المسحوق ويمسح أنفه. قدم المرآة والورقة إلى خليل. نظر خليل في وجه الرجل وقال: كيف يخطر لك أني أتعاطى المخدرات. هل تريد أن تغتصبني في هذا المكان؟.

وضع المرآة جانباً وقال لخليل... حسناً يا خليل باستطاعتك أن تخرج. مرافقي تجده أمام المدخل الخلفي حيث نزلتما... سيوصلك إلى حيث تريد.

قام الأخ عن كرسي البار متوجهاً إلى إحدى الغرف وأغلق الباب وراءه. لبث خليل في مكانه. بعد نصف ساعة أو أكثر خرج الأخ فوجد خليل ما يزال جالساً في مكانه. ما زلت هنا؟ سأله. نعم، ما زلت هنا أجاب خليل. حسناً، قال الأخ، تريد أن تتكلم؟ ليس عندي شيء أقوله أجاب خليل. أعاد الأخ المرآة إلى الخزانة وقال لخليل: هذا كوكايين إنه يبقيني صاحياً متفتح الذهن لوقت طويل فلا أحتاج للنوم أو الراحة إنه يلزمني في عملي، فقد يتوجب عليّ أحياناً ألا أنام لثلاث ليالٍ متتالية.

طبعاً، تمتم خليل، في هذه المرحلة المصيرية من تاريخ أمتنا، لا تستطيعون إغماض أجفانكم... وعلي الآن أن أشعر بتبكيت الضمير وبالذنب وأطلب المغفرة والسماح.

ابتسم الأخ. وضع يده على كتف خليل وقال: أنت يا خليل ذكي جداً. أكثر ذكاء مما توقعت لكنك ساذج إلى حد لم أعد أطيقه... أنت أهبل كدجاجة رغم جمال عينيك الخضراوين الواسعتين... اسمع، غداً آخذك معي في مشوار خصوصي. يمر عليك مرافقي صوب الخامسة بعد الظهر.... أحضر معك

معطفاً سميكاً. بعد هذا المشوار، نتكلم أنا وأنت. عد الآن إلى بيتك ونم جيداً.

ـ ٩ ـ

طلعوا في اليخت من مكان قريب من الحمام العسكري. كان اليخت كبيراً وذا صالون واسع ومريح.

وراء الباب كان سعيد يجهز الكؤوس. الأخ لم يكن يشرب. إلى جانبه على الأريكة كان يجلس خليل وبينهما جهاز صغير يؤمن الاتصال بين الأخ ورئيس الفريق الذي على متن اليخت.

الأجنبي الذي كان خطف، كان هناك كذلك يتحدث بنشاط إلى حبيب الذي طلع إلى اليخت بعد ساعة تقريباً من الإبحار.

ـ لم يكن مخطوفاً إذن، سأل خليل.
ـ لا، لم يكن مخطوفاً، أجاب الأخ باسماً.
ـ ومن هو حبيب؟
ـ نحن الآن قبالة جونية. حبيب لحق بنا من هناك. سنوقف المحركات وننتظر قليلاً...

عبر الجهاز الصغير تأكد الأخ من إيقاف المحركات في عرض البحر، ومن جهوز المراكب الصغيرة المحيطة باليخت لم يكن خليل، ولا الذين في الداخل يرون شيئاً مما يجري خارجاً لكن كل حركة كانت كما يبدو محسوبة بدقة، وعبر الجهاز.

ـ ماذا سيجري الآن؟ سأل خليل.
ـ اقترب مني وتكلم بصوت منخفض، أجاب الأخ... الذي

سيجري هو أننا سنسلمهم حمولتنا من الحشيش والأفيون المصنّع لنستلم منهم سلاحاً.

ـ من هم؟

ـ لا يهم، أناس متعددو الجنسيات، الصفقة الآن مثلاً تتم لحساب جماعة السيخ في الهند. سنستلم السلاح بأسعار بخسة جداً بنسبة الثلث من سعرها العالمي ونعود فنبيعها، حبيب الذي اشترى من الجيش سلاحاً ثقيلاً وجاء بكمية الحشيش يؤمن التغطية من جانبه بحسب مصدر اتصالاته. اليوم المصدر هو مافيا كندية. هي الكفيلة. يقبض سعر السلاح والحشيش ونقبض سعر الأفيون سلاحاً خفيفاً نعود به.

ـ كيف نعود به إلى هناك؟.

ـ ينزل كله في مرفأ هنا ثم يحمل في الشاحنات، ويمر على المعابر على أنه بطاطا. كل شيء مرتب مسبقاً... إكبر يا خليل.

لنا فضل كبير على حبيب، إنه يثق بنا، منذ شهرين صادرنا سلاحاً في منطقتنا وبعناه إياه بأسعار بخسة جداً. كان مضطراً واستفاد كثيراً من الصفقة.

ـ وإسرائيل، سأل خليل، ونحن في عرض البحر، ألا تعلم؟

ـ إسرائيل هنا أجاب الأخ مقاطعاً، أعني أن المفاوضات الدقيقة تجري الآن في هذه اللحظة مع ضباط في البحرية الإسرائيلية عبر جهاز اتصال في غرفة صغيرة إلى جانبنا هنا.

اتفقنا معهم على كوتا، لكنهم أحياناً يطمعون ويصادرون ويبيعون لحسابهم. اتصالاتهم قوية وقد يبيعون بالمفرق أحياناً لقوات الطوارىء الدولية، فقط لنكايتنا طبعاً لا يخسرون،

والطوارىء يعيدون بيع السلاح أو البضاعة بأسعار خيالية... إذن نحن الآن في أدق نقطة لكن لا تخشى شيئاً. اليوم الكفيل الكندي متين جداً.... الذي يفاوضهم على الجهاز، أبو علي، خبير متفجرات سابق، كان نسف الكثير من المراكز الإنكليزية واليهودية في عكا وحيفا مع الثوار أيام حرب فلسطين سنة ٤٨. وهو كفؤ جداً...

سمع سعيد جانباً من كلام الأخ فاقترب مبتسماً بخبث ذكي، رافعاً كأسه.

- عليك أن تكون أكثر خبثاً من أعدائك... هنا تكمن المسألة.

- أي أعداء سأل خليل، أي مسألة؟...

- مسألة أن تعرف أن قضيتك تتطلب الكثير من الذكاء في المعالجة للوصول إلى الهدف، وأن نضالك يحسب كل الحسابات... تلعب حتى لعبة عدوك فلا يستطيع أن يسلبك أدواتك وأسلحتك.... المهم أن تفكر إلى البعيد، إلى من يربح في النهاية... فإيمانك... نظر خليل إلى الأخ وقال:

- الأستاذ سعيد يعتقد أني حمار... كيف يخطر لأحد أن يكون أحداً على هذه الدرجة من الهبل.....

- اذهب وتسلى مع جوني يا سعيد، إنه مع أبي علي وحبيب قال الأخ، أو قل لهم ليحضروا لنا الأكل.

لم يبق سواهما في الصالون. أشعل الأخ سيكاراً ونصح خليل بالاسترخاء على الأريكة الجلدية.

- إن سعيد لم يكن ليجرؤ يا خليل، لكنه يعتقد أني أرتكب خطأ وأتحامق إذ أحضرك إلى هنا فيشتد ساعده قليلاً في المكان..... لكن لا بأس.

- ولماذا أحضرتني، سأل خليل؟

- لأنني كنت أشبهك كثيراً يا خليل، قال الأخ، كنت أشبهك كثيراً. وعزّ عليّ أن تعتقد أنك ترى الأشياء على حقيقتها. أردت أن أساعدك على الرؤية من مكان مرتفع وبعدها يحق لك أن تفعل ما تريد، أن تنتقي من الأفكار ما يحلو لك........

- أنت لن تفيد من أفكاري على ما أعتقد، وما تريده مني قد لا يكون لرأسي علاقة به بالمرة.

- أنت مخطيء أجاب الأخ، كل شيء في رأسك يساعدك كثيراً على فعل ما تريد بجسدك... أردت أن أعطيك فرصة أن تعرف حتى لا تطول حيرتك لأن مشكلتك ليست في جسمك بل في رأسك. أنا أعرف جسدك أكثر منك. أعرفه لأن جسدي كان يشبهه كثيراً وأعرفه لأنني أسمع رغباته وأنصت إليها عميقا. أنت تعتقد أني أشتهيك... هذا صحيح أنا اشتهيك ولكنني أحبك، وأتعذب حين أرى عذابك الذي تتخبط فيه كبركة صغيرة من الوحل....

- أنت تكلمني كيوسف بك وهبي.... كأنني الشرموطة التي تريد إخراجها من الوحل إلى الحياة الطاهرة النظيفة... أنا غادة الكاميليا وأنت الإنسان الطيب القلب، ابن العائلة، الذي وقع بحبي ويريد إخراجي إلى النور....

كل شيء تمام... قال صوت في الجهاز، كل شيء تمام أنتهى الأمر، إنهم يبدأون بالتحميل.

ـ حسنا، قال الأخ في الجهاز، بعد عشر دقائق نعود عشر دقائق. ثم التفت إلى خليل:

ـ لقد انتهت الرحلة.

ـ عظيم، قال خليل، وفقكم الله.

لبثا صامتين... دخل شاب يحمل صواني من الأكل الخفيف مغطاة بقبب من الفضة.

جلس الأخ يأكل ثم قال لخليل...

ـ تعال كل. ألست جائعاً؟

ـ أنا أرغب فيك، قال خليل فتوقف الأخ عن الأكل ونظر إليه. أرغب فيك فعلاً، أضاف خليل، لكنني أعرف أن رغبتي هي من شدة رغبتك. لا أحد يستطيع ألّا يشتهي إنساناً، من أي جنس كان إن كان يعرف عميقاً كم أن هذا الإنسان يشتهيه.

عاد الأخ يأكل صامتاً...

دخل حبيب ومعه جوني ثم لحق بهما سعيد. شد حبيب على يد الأخ مودعاً ثم خرج. اقترب سعيد وجوني من صواني الأكل فيما راح اليخت يتحرك مغيراً اتجاهه.

قبل أن يطلع الأخ في سيارته التفت إلى خليل وقال ماداً يده ببطاقة بيضاء.

ـ خذ هذه البطاقة إن كنت مصراً على عدم توصيلك إلى بيتك أنا مسافر بعد أسبوع، سأغيب لثلاثة أو أربعة أيام... أنت تعرف أين تجدني إن خطر لك أن تأتي لرؤيتي........ خذ البطاقة ولا تتغابى... ولا تمزقها.

كان الفجر موشكاً على الطلوع... راح خليل يصعد نزلة الحمام العسكري متلفتاً باحثاً عن سيارة أجرة... ظلّ يمشي حتى وصل إلى شارع الحمراء. في طلعة أبو طالب... رأى ثلاثة فتيان يركضون ثم يتفرقون إلى الأزقة. سمع رصاصاً كثيفاً فوقف في مكانه... ثم دوى انفجار قوي.

من الحكمة أن أعود أدراجي قال خليل وهو يسرع في خطاه حتى يكاد يركض سمع ركضاً وراءه ورصاصاً. توقف. يد على رقبته ثم ضربة قوية على فكه. وقع أرضاً ضربة أخرى من عقب بندقية على كتفه ثم رفعه المسلح من قميصه، وجره إلى الحائط. أسنده إلى الحائط وراح يركله على ساقيه وكليتيه. مسلحان ينظران إليه وهو ملقى في الأرض يبصق دماً. تتوقف سيارة فيجرانه إليها.

أنتم مخطئون، يقول خليل، أنا لست.... ويتذكر. هناك بطاقة في جيب بنطلوني الخلفي. يسحبها المسلح ويقرأ ما فيها. خليل لا يعرف ما فيها.

توقف يقول المسلح للسائق. تتوقف السيارة.

لماذا لم تتكلم يقول المسلح. لا بأس، يقول خليل.

كيف نعتذر منك الآن؟ أعصابنا تلفانة يا أستاذ.

إنه محام، ومن جماعة أصحابنا.... يا الله... نأخذك إلى المستشفى.

لا، يقول خليل.... انزلوني في نهاية الشارع.
لا، في البيت، يصرّ المسلح....

ـ ١٠ ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أي خيار، أي خيار، أي خيار؟

بمَ تفكّر يا خليل النبيل، وأنت تدور في غرفتك كالقط المجنون، المحروق الذيل؟

يا خليل العائد إلى تمجيد الحياة، وإلى حب نفسك...

تلك هي الحلقة المفقودة التي كنت تتوجس منها ولا تعرفها ذلك هو النقصان. آن لحيرتك أن تنتهي ولفرحك بشرايين يدك النابضة بالحياة أن يزهر ويتفتح ويتمايل على الأغصان الريانة.

لا يكفي.. لا يكفي... لا يكفي أن تحب نفسك يا خليل.
لا يكفي أن تحب نفسك لأن نفسك مكشوفة وسريعة العطب جداً....

نفسك التي تحب يلزمها الملجأ النووي.
تعلّم الآن كيف تحبها... احتفظ بها...
احتفظ بي حتى تحبني كانت نفس خليل تقول له.
أحبني أحبني يا خليل القليل.... أكثر أكثر لتحبني.
لأنني استأهل كثيراً. استأهل أن تكثر، تكبر، لتحبني.

انتظر حولك أي خيار أي خيار.

هؤلاء أولادك المعوقون، الذين لا يقضون بالقصف أمام الأفران، يتقاتلون أمام الأفران. يقتلون بعضهم.

هؤلاء إخوتك في الدفاع المدني يموتون في الانفجار أو يهرعون إلى الموتى ليسلبوا الجثث ويسحبوا خواتم الذهب من الأيدي المقطعة....

أمهاتك اللواتي يخلفن كثيراً يتربعن كالسلطانات وأولادهن يعملون ويتسلحون ويقتلون وهن ينسين سريعاً ويقبضن الرواتب ويحسبن مداخيل الباقين الأحياء.

رتب أفكارك يا خليل. فكل شيء مرتب سلفاً كما قال لك الأخ، أو لاحقاً.... فقط أنت من يتخبط في الفوضى.

فالكفيل الكندي متين.

وجماعة السيخ نظيفون بالدفع/ وإسرائيل تعذبنا بالكوتا.

لكن سعيد بعيد النظر وسيضحك أخيراً.

إحزر إحزر. شغل رأسك.... مئتان. ثلاثماية ألف قتيل أو اليخت في عرض البحر. وكله تمام إلا أنت.

أي خيار، أي خيار؟ ضلعك المكسور؟ النفق ذو الهالات الفوسفورية؟ جميلة الضحية.

هل هي جميلة فعلاً؟....
غبية الضحية يا خليل.... لأنها تحت.
أنت رأيت من فوق......
ومن لي غيرك.
من لي غيرك، ألا أستأهل.... الست جديرة.
جميلة الضحية. هل تحتمل أن تكون ضحية.

جسدك صغير ونام تحت ضلعك المكسور. ضلع واحد

صغير مكسور وكثير من القهر..... كثيرك من القهر ليس سوى زوابع في فناجين الآخرين..... كل الآخرين رتبوا أمورهم. رتب أمرك. ضحية يا خليل. هل تحتمل؟

إذن ما الذي يحميك؟

ما الذي يحميك؟

ما الذي يحميك وأنت تحبني. وأنت تحبني إلى هذا الحدّ؟ وتؤمن عميقاً ونهائياً بأنك في صف الحياة. وأن أجمل ما نعمل هو أن نمجدها.

مجِّد الحياة يا خليل.

مجِّد الحياة.

ليس هناك الحياة يا خليل.

هناك حياة.

هناك حياة الآخرين،

وحياة خليل. حياتك أنت: أنا.

الآخرون سيستمرون بالموت. وبالحياة. بالحياة التي لهم وبالموت الذي لهم.

لا؟! نصف مليون قتيل لأن السلاح.. لأن الفساد...

حسناً..... ماذا تفعل؟

أعمل نبياً.

اعمل رسولاً.

مضحك أنت....

مضحك أنت؟ لا.... فقط هم سيستمرون، لأنك واحد، قليل. أعمل حزباً. حزباً.

هل وجدت لك رفيقاً، أخاً، جندياً؟....

لم تجد لأنهم غير موجودين. إنهم موجودون كما هم.

حسناً.... ماذا ستفعل؟
زمنك مدور ومسدود من كل جهاته كبيضة فاسدة.
بيضة فاسدة. أقعد عليها. أقعد عليها.
قعدت طويلاً عليها.... وها هي قد فقست....
عملت مشواراً وأخذك الأخ في مشوار.
الأخ منحط؟
أكان ينبغي أن يشنق في محاكمة سريعة على محاولة انقلابية فاشلة؟

أكان ينبغي أن يبقى في ريفه البعيد يداري سوء تغذيته كما تدارى العين الرمدانة.....

من هنا تبدأ يا خليل.... من سوء التغذية.
هل تستطيع أن تبدأ من هنا.
ها أنت تعرف طرف الخيط.... ابدأ منه إن كنت تستطيع.......
من سوء التغذية.... أو ادفع الكوتا، أو.
أو لترتعد فرائصك رغبة في جسده القوي.
إجلس يا خليل.
لنضع جملتنا على الطاولة، ولتكن مفيدة جملتنا:
إننا نعرف الآن أن ما من خيار: أن تحب نفسك يعني أن تكره الآخرين.

* * *

الكراهية الكراهية.
الكراهية أمي التي تحبني.
الكراهية لأتنفس جيداً.

الكراهية لتسري الحياة في عروقي.
ألازمها.... ألازمها كما ينبغي أن تلازمني الحياة.

في المرتفعات البعيدة تسير الذئاب متلازمة في خط عرضي طويل يترك خطوطه المتوازية المتعرجة على الثلج الفسيح وعلى المنحدرات والنتوءات التي ينفخها ضوء القمر فتتقبب وتتقعّر.

لا تسير الذئاب في قطعان. تلتقي وتتفرق. حين تلتقي تسير جنباً إلى جنب. لا قائد في جماعة الذئاب ليتقدمّها. لا أحد يتقدم الآخر لأنه يعرف ان من يليه يفترسه.

تلتقي الذئاب حين تجوع كثيراً. تخرج ذكوراً وإناثاً ولا يركن الذكر إلى أنثاه فهي أقوى منه وأشد بأساً. يضاجعها، يكون فوقها سريعاً فلا تخشاه ولا يخشاها لأن الرغبة تشل القوة لثوان. تستعيض عنها بقوة أخرى ثم تسترد الأولى.

إذا حظيت الذئاب بفريسة هجمت سوية ومزقتها في لحظة. الذي لا ينوبه حصة يصير أكثر ضعفاً فتعرفه وتفترسه في الحال.

الذئب لا ينام.
إذا نام يكون وحيداً وعلى بعد كاف من روائح الذئاب.
يقف الذئب على نتوء حاد. ينظر حواليه.
يقف الذئب على نتوء حاد، ويروح يعوي يأسه العظيم.

يمشي خليل في المدينة الآن ويسمع وقع خطاه المنتظم على الإسفلت المبلول.
يمشي فيها كأنه يمشي فوقها، أعلى منها.

هذه المدينة البشعة،
هذه المدينة الفريدة البشاعة.
كيف يتغنى بجمالها الشعراء. هذا الفسق.

إنهم فقط لا يريدون أن يتورطوا برؤيتها في بشاعتها. رؤيتها في بشاعتها تردهم إلى بشاعتهم، كراهيتها تردهم إلى كراهية أنفسهم فيفضلون البلف والاستمرار فيه......

لكن خليل بريء منها. خليل بريء منها تماماً وهي إذا كانت على جمال مضى في شباب لها مضى، فإن خليل لم ينشد مع المنشدين الذين بشعوها.

هو بريء منها تماماً. وحر تماماً. ولذا فهو يعرف كيف يكرهها.

يكرهها لا كما يكره ابن المرأة الجميلة أمه التي كانت جميلة وكانت للجنرال. يلبث الابن وقتاً طويلاً يحضر كراهيته على نار خفيفة حتى تنضج. ثم تنضج. يلبث وقتاً طويلاً يحب أمه ويكره أنها جميلة. فالأم الجميلة لا تكون أماً لنا. تكون أماً وتكون جميلة ويكون هناك الجنرال في جمالها.

تقبلنا في أسرتنا قبل أن ننام، بشفاه تكون من الحرارة والبروز بحيث سيراها الجنرال الذي ينتظر في صالون البيت أي رجل ينتظر في صالون البيت يكون جنرالاً علينا، نحن صبية ألعاب الجنود واللصوص، الذين ابتلوا بأم جميلة إلى هذا الحد.

لكن حين نكبر ونصير زعماء نكرهها وندك جمالها عن آخره.

ندك كذلك جمال شفتيها. وكلما تذكرناه وتغنينا به زدناها دكا وتشويها.

هكذا يفعل الزعيم.
ولكن ما شأن خليل.

لم تكن له هذه المدينة ليتحسّر عليها ويكرهها كراهية الزعيم أو الشاعر.

لم تعده بشيء ولم تأخذ منه شيئاً ولم تخنه ولا هو العاشق.

هكذا كانت حين قدم إليها.... فقط غشته قليلاً في البداية......

غشته هكذا سهواً وعن غير قصد.

أعتقد مثلاً أن صوت فيروز ملائكي فصار ينصت للملائكة. لكنه سرعان ما عرف أن لا شأن له بأغاني هذه المرأة. وأن الأمر لا يعدو كونه خطأ طفيفاً. تلك التي كانت تغني لضياع لا يعرفها ولا يستطيع تصورها، لمرفأ قديم يدور وتدور فينا بكلام فارغ حتى قعره. لأنه رمز حتى قعره. رمز لا يرمز إلى شيء عنده.

أغاني فيروز كانت لأهلنا ربما، لهؤلاء المملوئين بأشواق إلى كفرحالا وإلى جبال من صوان. لكن المغنية لا تطالني ولا ترفعني إلى أي سماء كهؤلاء الذين يبكون كلما سمعوا صوتها، لهذا الجيل الذي مضى قبل أن يكون، وأن يورثنا كما تفعل الأجيال المتعاقبة من مراسم التسلم والتسليم وتغادر في الحسرة والذكريات الكثيرة. أنا لم يعطني أحد شيئاً أترحم به

عليه ولدت كأني فقست من بيضة، وعميّ يغني لأخيه في الحجـاز ثم يوصيني دامعـاً بسمـاع فيـروز والتمعن في أغانيها.....

فيروز التي تستمر بجمع سمائي الوطن، البجعة التي تطير رواحاً ومجيئاً بين سماءيها، البجعة العوراء بالعينين مداورة: ياللهرطقة أي كمية من هواء الكراهية والتنصل الساخن يلزمني ليعلو منطاد روحي فوق سماءيكما ذات المغنيات الملائكية والروائح الكريهة. كم فوق. كم؟ لأكون حراً منكم؟.. حراً، لأني حر.

تباً لكم.... تباً لكم.

حتى العبد. العبد لا يكون عبداً إلا إذا أحب. إلا إذا أحب سيده وقد يحب العبد سيده كنفسه. قد يحب العبد سيده أكثر من نفسه. هذا هو العبد الذي يكون عبداً إلى الأبد.

العبد الذي يكره سيده، ولو كان محكوماً حتى أظافره لهذا السيد، هو عبد حر. عبد حر لأنه يكره ويسوّر كراهيته يوماً بعد يوم. أقوى. أشد تحصيناً. فصلاً بعد فصل.... العبد الذي يكره سيده يحب نفسه ويكون حراً. أكثر حرية من السيد يكون. أعلى من سيده ولا يطاله السيد. وتكون حرية السيد كعانس عطنة. لن تطالني المدينة لأنني سأعلو. سأكون ذكرها العالي.

* * *

هلعي الحقيقي هو أن أتشابه مع قطعان الناس تحت. سوف ألف نفسي بحافظة سميكة فلا أسمعهم ولا أشم روائحهم.

يتقزز خليل لأن كتفا ضربت كتفه في الشارع. يتقزز وتنقبض معدته بالغثيان، لا تلمسوني لا تلمسوا طهارتي....... لا تلمسوني.

ويفضّل خليل أن يعود ماشياً إلى غرفته حتى لا يشم روائح تنفسهم في سيارة الأجرة.

* * *

- ٧ -

كانت تمطر مطراً خفيفاً لكن البرد كان قارساً فـي هذه الساعة من الليل.

وقف العريس في وسط الشارع يساعد سائق الشاحنة على الاصطفاف بشكل ملائم.

أقترب الرجال وبدأوا بإنزال الصناديق الثقيلة.

ـ يا عريس، قال خليل، هل تعتقد أن المكان يستوعب؟

ـ طبعاً يا أستاذ، أجاب العريس، فقد اقتلعت خزانين كبيرين ولم يبقَ إلا سخان مازوت واحد صدىء المفاصل، يعاندني لكن له دواؤه.....

ـ حسناً، قال خليل ودلف إلى مدخل البناية يتقي المطر. رأى المرأة تنزل الدرج بثياب نومها وقد التفت بروب سميك...

ـ ما هذا يا أستاذ خليل.... لا أتصور أنك ترضى..... هذه صناديق ذخيرة وسلاح، أنت تعرف.... وحوادث انفجارها في الأبنية السكنية مؤخراً..... هذا لا...

ـ اطلعي إلى البيت ليس الأمر كما تعتقدين. سألحق بك بعد دقيقة، إن سمحت، وأشرح لكِ ما يحصل. اطمئني.

ـ لكن، خليل....

ـ لا بأس قلت لك.... اطلعي من هذا البرد. لا عليك اطلعي.....

* * *

فتحت الباب ولبثت في المدخل. أغلق خليل الباب وراءه وأقترب منها رأى عينيها تلتمعان بفزع ما زال كامنا. فزع أو هي الرغبة.

أخذ رأسها بيديه الاثنتين وقبلها. حاولت أن تتملص...... وضعت يديها على ساعديه وأخذت تشد لتفلت رأسها. عضها خليل في شفتها. نفضت رأسها: يا كلب قالت كأنها تبكي. صفعها خليل بقوة وكان ممسكاً بشعرها.

لن تصرخ فابنها نائم في الداخل.

طرحها أرضاً ومزق قميص نومها من تحت. صارت تلبط وتزحف حتى صارا وسط الصالون. ثبت فخذيها بركبتيه وهو فوقها فراحت تخبط بيديها. ضربها على وجهها صفعات متتالية قوية فوقعت يداها.... ثم هدأت..... وتراخت كجثة.

لن ينفعك هذا قال وصفعها صفعة أخرى. قبلي يدي. قبلي يدي. ثم نزل على صدرها. قبليني.... قبليني... في رقبتي.... في رقبتي.... ارفعي رأسك... اخلعي...... روبك السميك. اخلعي قميص نومك.

تمددي هنا.

* * *

راح خليل ينظر في أرجاء البيت وهو يرفع سحاب بنطاله أزرق وأخضر ريان ورسومات على الجدران وأضواء في الزاوية... كانت تلعب بيت بيوت..

كانت تلعب إنها أسرة وأمان.
كانت تلعب إنه بيت.

* * *

قال خليل للعريس:

اسمعني جيداً: أو هي تدفع زيادة تكاليف التصليح أو تلقي بأغراضها إلى الشارع.

عندي عرض ممتاز ولك حصتك طبعاً. ثلاثون ألف دولار وهذه المرة بعقد إيجار طبعاً.

أرفع هذه الصناديق إلى السيارة والباقي يبقى هنا. سأعطيك المفتاح.

لحق العريس بخليل إلى مدخل البناية بعد أن أقفل الباب.

في المدخل كان هرّ الحاجة يموء مندساً بساق خليل. ركله خليل ركلة قوية فارتفع مواؤه كالصراخ.

فتح مرافق خليل باب السيارة الخلفي.
الله مع الأستاذ. قال العريس.
طلع المرافق وأدار المحرك.

اقتربتُ من زجاج الباب الخلفي.... كان خليل بشاربين ونظارتين شمسيتين. إلى أين قلتُ له فلم يسمعني.

هذا أنا، قلتُ له، فلم يستدر.

تحركت السيارة، ومن زجاجها الخلفي كان يبدو خليل عريض المنكبين في جاكيته الجلدية البنية....

مشت السيارة وراحت تبتعد. كان خليل يغادر الشارع كأن إلى فوق.

كم تغيرتَ منذ وصفتُك في الصفحات الأولى! صرت تعرف أكثر منيّ. الكيمياء. حجر الضحك.

وغاب خليل، صار ذكراً يضحك. وأنا بقيت امرأة تكتب.

خليل: بطلي الحبيب.
بطلي الحبيب....

* * *

حجر الضحك

رواية ممتازة ورائعة، وهي في تقديري تتفوق بمراحل على كثير من أعمال الروائيين المعروفين. هي رواية «البطل» الواحد أو «اللابطل» الواحد على خلفية الحرب في بيروت.

جدة للكتابة نابعة عن جدة في الرؤية وعمق حقيقي في التقصي، هذه رواية ذهن مثقف على وعي تام ومعرفة بالتقنيات «الحداثية»، فضلاً عن حس مرهف.

ادوار الخراط

تستوحي الرواية موضوعاً راهناً (حرب لبنان)، والشكل الفني (لغة، وبناء، وفضاء وشخوصاً..) يحقق توازناً لافتاً للنظر. إن مأساة الحرب، رغم حضورها، تتوارى خلف التفاصيل وسلوكات الشخوص لتنقلنا من الخاص إلى العام.

من أجمل النصوص ـ إن لم يكن أجـ...

حرب لبنان.

...رادة





185513053X